www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

إعجاز القرآن

تأليف

القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

إعجاز القرآن(الباقلانى)

كاتب:

ابو بكر محمد بن الطيب الباقلانى

نشرت فى الطباعة:

دارلكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
إعجاز القرآن(الباقلانی) ----- ۷
اشارة ----- ۷
ترجمة المؤلف ----- ۷
نسبه: ----- ۷
شیوخه: ----- ۷
مؤلفاته: ----- ۷
وفاته: ----- ۷
انظر ترجمته فی: ----- ۷
[مقدمة] ----- ۷
فصل: فی أن نبوة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجزتها القرآن ----- ۹
فصل: فی الدلالة علی أنّ القرآن معجزة ----- ۱۲
فصل: فی جملة وجوه إعجاز القرآن ----- ۱۹
فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن ----- ۲۴
فصل: فی نفی الشعر من القرآن ----- ۲۵
فصل: فی نفی السجع من القرآن ----- ۲۷
فصل: فی ذکر البدیع من الکلام ----- ۳۱
فصل: فی کیفیة الوقوف علی إعجاز القرآن ----- ۴۲
اشارة ----- ۴۲
لیبلّغ الشاهد الغائب .. ----- ۴۷
من کان همه الآخرة جمع اللّه له شمله .. ----- ۴۸
باب: أیهما أبلغ .. الشعر أم النثر؟! ----- ۵۳
فصل: فی جوانب إعجاز القرآن ----- ۸۰

اشارة ----- ۸۰
التحدی ----- ۸۰
قدر المعجز من القرآن ----- ۸۱
فصل: فی أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضرورة؟ ----- ۸۲
فصل: فیما یتعلق به الإعجاز ----- ۸۲
فصل: فی وصف وجوه من البلاغة ----- ۸۳
فصل: فی حقیقة المعجز ----- ۸۹
فصل: فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز ----- ۹۰
خاتمة ----- ۹۱
تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۹۳

إعجاز القرآن(الباقلانی)

اشارة

نام کتاب: إعجاز القرآن(الباقلانی) نویسنده: ابو بکر محمد بن الطیب الباقلانی موضوع: اعجاز تاریخ وفات مؤلف: ۴۰۳ ق زبان: عربی تعداد جلد: ۱ ناشر: دارالکتب العلمیة مکان چاپ: بیروت سال چاپ: ۱۴۲۱ / ۲۰۰۱ نوبت چاپ: اوّل

ترجمة المؤلف

نسبه:

نسبه: هو: محمد بن الطیب أبو بکر الباقلانی رأس المتکلمین علی مذهب الشافعی، و هو من أکثر الناس کلاما و تصنیفا فی الکلام.

شیوخه:

شیوخه: له شیوخ کثیرون منهم: أبو بکر الأبهری، و أبو بکر القطیعی، و أبو محمد بن ماسی، و أبو عبد اللّه الشیرازی و آخرون.

مؤلفاته:

مؤلفاته: له مؤلفات عدیدة منها: إعجاز القرآن و هو هذا الکتاب، و التبصرة، و دقائق الحقائق، و التمهید فی أصول الفقه، و شرح الإبانة، و غیر ذلک.

وفاته:

وفاته: توفی سنة (۴۰۳ ه) رحمه اللّه، و رضی عنه.

انظر ترجمته فی:

انظر ترجمته فی: ۱- البدایة و النهایة ۱۱/ ۳۵۰- ۳۵۱. ۲- وفیات الأعیان ۱/ ۴۸۱. کتبه أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عویضة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵

[مقدمة]

[مقدمة] بسم اللّه الرّحمن الرّحیم الحمد للّه المنعم علی عباده بما هداهم إلیه من الإیمان، و المتمّم إحسانه بما أقام لهم من جلیّ البرهان، الذی حمد نفسه بما أنزل من القرآن، لیکون بشیرا و نذیرا، و داعیا إلی اللّه بإذنه و سراجا منیرا، و هادیا إلی ما ارتضی لهم من دینه، و سلطانا أوضح تبیینه، و دلیلا علی وحدانیته، و مرشدا إلی معرفة عزته و جبروته، و مفصحا عن صفات جلاله، و علو شأنه، و عظیم سلطانه، و حجة لرسوله الذی أرسله به، و علما علی صدقه، و بینة علی أنه أمینه علی وحیه، و صادع بأمره. فما أشرفه من کتاب یتضمن صدق متحمّله، و رسالة تشتمل علی تصحیح قول مؤدّیها، بیّن فیه سبحانه أن حجّته کافیة هادیة. لا یحتاج مع وضوحها إلی بینة تعدوها، أو حجة تتلوها، و إن الذهاب عنها کالذهاب عن الضروریات، و الشک فی المشاهدات. و لذلک قال عز ذکره: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَیْکَ کِتاباً فِی قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَیْدِیهِمْ لَقالَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ «۱». و قال عز و جل: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ

فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «۲». فله الشكر على جزيل إحسانه، و عظم مننه، و الصلاة على سيدنا محمد المصطفى و آله و سلم. و من أهم ما يجب على أهل الدين كشفه، و أولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، و لقاعدة توحيدهم عمادا و نظاما، و على صدق نبيهم صلّى اللّه عليه و سلّم برهانا، و لمعجزته ثبتا و حجة، لا سيما و الجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق. و العلم إلى عفاء و دروس، و على خفاء و طموس، و أهله فى جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشئيم، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه، و الأخذ فى سبله. فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، و آخر مصدود عن نصرته،

(_____ ۱) آية (۷) سورة الأنعام. (۲) آية (۱۴، ۱۵) سورة الحجر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶ مكدود فى صنعته. فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين فى أصول الدين، و تشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين. و قد قل أنصاره، و اشتغل عنه أعوانه، و أسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائل قال: إنه سحر. و قائل يقول: إنه شعر. و آخر يقول: إنه أساطير الأولين. و قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، إلى الوجوه التى حكى اللّه عز و جل عنهم أنهم قالوا فيه و تكلموا به، فصرفوه إليه. و ذكر لى عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، و يوازن بينه و بين غيره من الكلام، و لا يرضى بذلك حتى يفضله عليه! و ليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر، و قد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش و غيرهم. إلا أن أكثر من كان طعن فيه فى أول أمره، استبان رشده، و أبصر قصده، فتاب و أناب، و عرف من نفسه الحق بغريزة طبعه، و قوة إتقانه، لا لتصرف لسانه، بل لهداية ربه و حسن توفيقه. و الجهل فى هذا الوقت أغلب، و الملحدون فيه عن الرشد أبعد، و عن الواجب أذهب. و قد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن، و تكلم فى فوائده من أهل صنعة العربية و غيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته، و الدلالة على مكانه. فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الخبر، و دقيق الكلام فى الأعراض، و كثير من بديع الإعراب، و غامض النحو. فالحاجة إلى هذا أمس، و الاشتغال به أوجب. و قد قصر بعضهم فى هذه المسألة، حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، و رأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها، و لا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا، و انتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا و وضعوا. ثم رأوا ما صنفوه فى هذا المعنى غير كامل فى بابه، و لا مستوفى فى وجهه، قد أخلّ بتهذيب طرقه، و أهمل ترتيب بيانه، و قد يعذر بعضهم فى تفريط يقع منه فيه، و ذهاب عنه، لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم فى أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ. و إذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول فى هذا الشأن. و قد صنف «الجاحظ» «۱» فى نظم القرآن كتابا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون

(_____ ۱) الجاحظ هو: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى بالولاء. بلغ من الذكاء و جودة إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷ قبله، و لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى. و سألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، و تزيل الشكوك التى تعرض للجهّال، و تنتهى إلى ما يخطر لهم، و يعرض لأفهامهم من الطعن فى وجه المعجزة. فأجبناه إلى ذلك، متقربين إلى اللّه عز و جل، و متوكلين عليه و على حسن توفيقه و معونته. و نحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا، و نشير إليه، و لا نبسط القول؛ لئلا يكون ما ألّفناه مكررا و مقولا، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة. و نضيف إليه ما يجب وصفه من القول فى تنزيل متصرّفات الخطاب، و ترتيب وجوه الكلام، و ما تختلف فيه طرق البلاغة، و تتفاوت من جهته سبل البراعة، و ما يشتبه له ظاهر الفصاحة، و يختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، و المعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع. ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ما ينقسم إليه الكلام، من شعر و رسائل، و خطب و غير ذلك من مجارى الخطاب. و إن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح، و تقصد فيه البلاغة؛

لأن هذه أمور يتعمّل لها فى الأغلب، و لا يتجوز فيها. ثم من بعد هذا الكلام الدائر فى محاوراتهم، و التفاوت فيه أكثر، لأن التعمل فيه أقل. إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنّع، و تكلّف. و نشير إلى ما يجب فى كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محل القرآن، و ليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، و تجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه و بينها، أو يشتبه ذلك على متأمل. و لسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، و أردنا شرحه و تفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا، و عن وجه اللسان غافلا، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما تعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام و متصرفاته، و مذاهبه، و عرف جملة من طرق المتكلمين، و نظر فى شىء من أصول الدين، و إنما ضمن اللّه عز و جل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «۱» و قال: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲».

القريحة ما جعله من كبار أئمة الأدب. مات سنة (۲۵۵ ه) له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۳۸۸، و طبقات الأدباء (۲۵۴)، و تاريخ بغداد ۱۲/ ۲۱۴. (۱) آية (۳) سورة فصلت. (۲) آية (۳) سورة الزخرف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹

فصل: فى أن نبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجزتها القرآن

فصل: فى أن نبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجزتها القرآن الذى يوجب الاهتمام التامّ بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السّلام بنيت على هذه المعجزة. و إن كان قد أيّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا- أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة، و أحوال خاصة، و على أشخاص خاصة، و نقل بعضها نقلا- متواترا يقع به العلم وجودا. و بعضها مما نقل نقلا خاصا، إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم، أنهم شاهدوه. فلو كان الأمر على خلاف ما حكى، لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول، و إن لم يتواتر أصل النقل فيه. و بعضها مما نقل من جهة الآحاد، و كان وقوعه بين يدى الآحاد. فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمّت الثّقلين، و بقيت بقاء العصرين، و لزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة، على حدّ واحد، و إن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، وجه دلالته، فيغنى ذلك عن نظر مجدّد فى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، و كذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النظر فى حال أهل العصر الأول. و إنما ذكرنا هذا الفصل لما حكى عن بعضهم أنه زعم أنه و إن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه. و يكفى عجز أهل العصر الأول فى الدلالة أنهم خصّوا بالتحدّى، دون غيرهم. و نحن نبين خطأ هذا القول فى موضعه. فأما الذى يبين ما ذكرناه من أن اللّه تعالى، حين ابتعثه، جعل معجزته القرآن و بنى أمر نبوته عليه سور كثيرة، و آيات نذكر بعضها، و ننبه بالمذكور على غيره. فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه، فمن ذلك قوله تعالى: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ «۱» فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، و لا- يكون كذلك و إلا- و هو حجة، و لا- تكون حجة إن لم تكن معجزة. و قال عز و جل:

(۱) آية (۱) سورة إبراهيم. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰ وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ «۱» وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ «۲» و هذا بيّن جدا فيما قلناه من أنه جعله سببا لكونه منذرا. ثم أوضح ذلك بأن قال: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة، لم يعقب كلامه الأول به. و ما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة، إلا و قد أشبع فيها بيان ما قلناه. و نحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، و كثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن، و التنبيه على وجه معجزته. فمن ذلك سورة المؤمن قوله عز و جل: حم* تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «۳» ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ «۴» إلى أن قال: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا «۵» فدل على أن الجدال فى تنزيله كفر و إلحاد. ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم، بقوله عز و جل: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ

نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ «۶» إلی آخر الآیة. فتوعدهم بأنه آخذهم فی الدنیا بذنبهم فی تکذیب الأنبیاء، ورد براهینهم، فقال: فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ «۷» ثم توعدهم بالنار فقال: وَ کَذلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ «۸» ثم عظم شأن المؤمنین بهذه الحجة، بما أخبر من استغفار الملائکة لهم، و ما وعدهم علیه من المغفرة، فقال: الَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِیمِ «۹». فلولا أنه برهان قاهر، لم یذم الکفار علی العدول عنه، و لم یحمد المؤمنین علی المصیر إلیه. ثم ذکر تمام الآیات فی دعاء الملائکة للمؤمنین، ثم عطف علی وعید الکافرین، فذکر آیات، ثم قال: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیاتِهِ «۱۰» فأمر بالنظر فی آیاته و براهینه (_____، ۱) آیة (۶) سورة التوبة. (۲) آیة (۱۹۲، ۱۹۴) سورة الشعراء. (۳) آیة (۱، ۲) سورة غافر. (۴) آیة (۳) سورة غافر. (۵) آیة (۴) سورة غافر. (۶) آیة (۵) سورة غافر. (۷) الآیة السابقة. (۸) آیة (۶) سورة غافر. (۹) آیة (۷) سورة غافر. (۱۰) آیة (۱۳) سورة غافر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱ إلی أن قال: رَفِیعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ «۱» فجعل القرآن و الوحی به کالروح، لأنه یؤدی إلی حیاة الأبد، و لأنه لا فائدة للجسد بدون الروح. فجعل هذا الروح سببا للإنذار، و علما علیه، و طریقا إلیه، و لو لا أن ذلک برهان بنفسه، لم یصح أن یقع به الإنذار و الإخبار عما یقع عند مخالفته، و لم یکن الخبر عن الواقع فی الآخرة عند ردّهم دلالته من الوعید حجة، و لا معلوما صدقه، فکان لا یلزمهم قبوله. فلما خلص من الآیات فی ذکر الوعید علی ترک القبول، ضرب لهم المثل بمن خالف الآیات، و جحد الدلالات و المعجزات، فقال: أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ کانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِی الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَ ما کانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ «۲». ثم بین أن عاقبتهم صارت إلی السوأی، بأن رسلهم کانت تأتیهم بالبینات و کانوا لا یقبلونها منهم. فعلم أن ما قدم ذکره فی السورة بینه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. ثم ذکر قصة موسی و یوسف علیهما السلام، و مجیئهما بالبینات، و مخالفتهم حکمها، إلی أن قال: الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا، کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ «۳». فأخبر أن جدالهم فی هذه الآیات لا یقع بحجة، و إنما یقع عن جهل. و أن اللّه یطبع علی قلوبهم، و یصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم، و عنادهم، و استکبارهم. ثم ذکر کثیرا من الاحتجاج علی التوحید. ثم قال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ أَنَّی یُصْرَفُونَ «۴» ثم بین هذه الجملة، و أن من آیاته الکتاب فقال: الَّذِینَ کَذَّبُوا بِالْکِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ «۵» إلی أن قال: وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۶» فدل علی أن الآیات علی ضربین: أحدهما کالمعجزات التی هی أدلة فی دار التکلیف، و الثانی الآیات التی ینقطع عندها العذر، و یقع عندها العلم الضروری، و أنها إذا جاءت، ارتفع التکلیف و وجب الإهلاک. إلی أن قال: فَلَمْ یَکُ (_____ ۱) آیة (۱۵) سورة غافر. (۲) آیة (۲۱) سورة غافر. (۳) آیة (۳۵) سورة غافر. (۴) آیة (۶۹) سورة غافر. (۵) آیة (۷۰) سورة غافر. (۶) آیة (۳۸) سورة الرعد. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا «۱» فأعلمنا أنه قادر علی هذه الآیات، و لکنه إذا أقامها زال التکلیف، و حقت العقوبة علی الجاحدین. کذلک ذکر فی حم السجدة علی هذا المنهاج الذی شرحناه، فقال عز و جل: حم. تَنْزِیلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ. کِتابٌ فُصِّلَتْ آیاتُهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ. بَشِیراً وَ نَذِیراً «۲». فلولا أنه جعله برهانا، لم یکن بشیرا و لا نذیرا، و لم یختلف بأن یکون عربیا مفصلا، أو بخلاف ذلک. ثم أخبر عن جحودهم و قلة قبولهم بقوله جلّ ذکره: فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ «۳» و لو لا أنه حجة لم یضرّهم الإعراض عنه، و لیس لقائل أن یقول: قد یکون حجة و یحتاج فی کونه حجة إلی دلالة أخری، کما أن الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم حجة. و لکنه یحتاج إلی دلالة علی صدقه و صحة نبوته، و ذلک أنه إنما احتجّ علیهم بنفس هذا التنزیل. و لم یذکر حجة غیره. و یبین ذلک أنه قال عقیب هذا: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ «۴» فأخبر أنه مثلهم لو لا الوحی، ثم عطف علیه بحمد المؤمنین به المصدقین له فقال: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ «۵» و معناه

الـذین آمنوا بهـذا الوحی و التنزیـل، و عرفوا هـذه الحجـة. ثم تصـرف فی هـذا الاحتجـاج علی الوحدانیـة، و القـدرة إلی أن قال: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «۶»، فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المکذبین بآیات اللّه من قوم عاد و ثمود فی الـدنیا. ثم توعّدهم بأمر الآخرة فقال: وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَی النَّارِ فَهُمْ یُوزَعُونَ «۷»، إلی انتهـاء ما ذکره فیه. ثم رجع إلی ذکر القرآن، فقال: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ «۸». ثم أثنی بعـد ذلک علی من تلقاه بالقبول فقال: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا (_____ ۱)

آیة (۸۵) سورة غافر. (۲) آیة (۱: ۴) سورة فصلت. (۳) آیة (۴) سورة فصلت. (۴) آیة (۶) سورة فصلت. (۵) آیة (۸) سورة فصلت. (۶) آیة (۱۳) سورة فصلت. (۷) آیة (۱۹) سورة فصلت. (۸) آیة (۲۶) سورة فصلت إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳ تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلائِکَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا «۱» ثم قال جلّ ذکره: وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ «۲» و هذا ینبه علی أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یعرف إعجاز القرآن، و أنه دلالة له علی جهة الاستدلال لأن الضروریات لا یقع فیها نزغ الشیطان. و نحن نبین ما یتعلق بهذا الفصل فی موضعه ثم قال: إِنَّ الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی آیاتِنا «۳» إلی أن قال: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِالذِّکْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَکِتابٌ عَزِیزٌ لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ «۴» و هـذا و إن کان متأولا علی أنه لا یوجـد فیه غیر الحق، مما یتضـمنه من أقاصیص الأولین، و أخبار المرسلین، و کذلک لا یوجد خلاف فیما یتضمنه من الإخبار عن الغیوب، و عن الحوادث التی أنبأ أنها تقع فی الآتی، فلا یخرج عن أن یکون متأولا علی ما یقتضیه نظام الخطاب، من أنه لا یأتیه ما یبطله من شبهة سابقة تقدح فی معجزته، أو تعارضه فی طریقه. و کـذلک لا یأتیه من بعـده قط أمر یشـکک فی وجه دلالته و إعجازه. و هـذا أشبه بسیاق الکلام و نظامه، ثم قال: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِیًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آیاتُهُ ءَ أَعْجَمِیٌّ وَ عَرَبِیٌّ «۵» فأخبر أنه لو کان أعجمیا، لکانوا یحتجون فی رده إما بأن ذلک خارج عن عرف خطابهم، و کانوا یعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، و بأنهم لا یبین لهم وجه الإعجاز فیه، لأنه لیس من شأنهم و لا من لسانهم. أو بغیر ذلک من الأمور، و أنه إذا تحداهم إلی ما هو من لسانهم و شأنهم فعجزوا عنه، وجبت الحجة علیهم به، علی ما نبینه فی وجه هذا الفصل إلی أن قال: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِیدٍ «۶». و الـذی ذکرنـا من نظم هاتین السورتین، ینبه علی غیرهما من السور، فکرهنا سرد القول فیها. فلیتأمل المتأمل ما دللناه علیه یجده کـذلک. ثم مما یدل علی هذا قوله عز و جل: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ. أَ وَ لَمْ (_____ ۱) آیـة (۳۰) سورة فصلت. (۲) آیة (۳۶) سورة فصلت. (۳) آیة (۴۰) سورة فصلت. (۴) آیة (۴۱) سورة فصلت. (۵) آیة (۴۴) سورة فصلت. (۶) آیة (۵۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴ یَکْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلی عَلَیْهِمْ «۱» فأخبر أن الکتاب آیة من آیاته، و علم من أعلامه و أن ذلـک یکفی فی الدلالـة، و یقوم مقـام معجزات غیره، و آیـات سواه من الأنبیـاء، صـلوات اللّه علیهم. و یـدل علیه قوله عز و جـل: تَبـارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْـدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَـذِیراً. الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۲» و قوله: أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَـذِباً، فَإِنْ یَشَـإِ اللَّهُ یَخْتِمْ عَلی قَلْبِکَ وَ یَمْـحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ یُحِقُّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ «۳» فدل علی أنه جعل قلبه مستودعا لوحیه، و مستنزلا لکتـابه، و أنه لو شاء صـرف ذلک إلی غیره. و کان له حکم دلالته علی تحقیق الحق، و إبطال الباطل، مع صـرفه عنه. و لـذلک أشـباه کثیرة تـدل علی نحو الدلالـة التی وصـفناها، فبان بهـذا و نظائره ما قلناه من أن بناء نبوته (صـلّی اللّه علیه و سلّم) علی دلالـة القرآن و معجزته، و صـار له من الحکم فی دلالـته علی نفسه، و صـدقه، أنه یمکن أن یعلم أنه کلام اللّه تعـالی، و فـارق حکمه حکم غیره من الکتب المنزلة علی الأنبیاء، لأنها لا تدل علی أنفسها إلا بأمر زائد، و وصف مضاف إلیها، لأن نظمها لیس معجزا، و إن کان ما یتضمنه من الإخبار عن الغیوب معجزا. و لیس کذلک القرآن؛ لأنه یشارکها فی هذه الدلالة و یزید علیها فی أن نظمه معجز فیمکن أن یستدل به علیه، و حل فی هـذا من وجه محل سـماع الکلام من القدیم سـبحانه و تعالی، لأن موسـی علیه السـلام لما سـمع کلامه علم أنه فی الحقیقة کلامه. و کذلک من یسـمع القرآن یعلم أنه کلام اللّه، و إن اختلف الحال فی ذلک من بعض الوجوه، لأن موسی علیه السلام

سمعه من اللّه عز و جل، و أسمعه نفسه متكلما، و ليس كذلك الواحد منا. و كذلك قد يختلفان فى غير هذا الوجه، و ليس ذلك قصدنا بالكلام فى هذا الفصل. و الذى نرومه الآن ما بيّنا من اتفاقهما فى المعنى الذى وصفنا، و هو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام اللّه من جهة الاستدلال. و كذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال.

(_____ ۱) آية (۵۰- ۵۱) سورة العنكبوت.

(۲) آية (۱، ۲) سورة الفرقان. (۳) آية (۲۴) سورة الشورى. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵

فصل: فى الدلالة على أنّ القرآن معجزة

فصل: فى الدلالة على أنّ القرآن معجزة قد ثبت فى الفصل الأول أن نبوة نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، مبنية على دلالة معجزة القرآن، فيجب أن نبين وجه الدلالة، من ذلك قد ذكر العلماء، أن الأصل فى هذا هو أن تعلم أن القرآن الذى هو متلو محفوظ مرسوم فى المصاحف، هو الذى جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أنه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثا و عشرين سنة. و الطريق إلى معرفة ذلك، هو النقل المتواتر «۱» الذى يقع عنده العلم الضرورى به. و ذلك أنه قام به فى الموقف، و كتب به إلى البلاد، و تحمله عنه إليها من تابعه، و أورده على غيره من لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه على أحد. و لا يحتمل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، و يأخذه على غيره، و يأخذ غيره على الناس، حتى انتشر ذلك فى أرض العرب كلها، و تعدى إلى الملوك المعاقبة لهم، كملك الروم و العجم و القبط و الحبش، و غيرهم من ملوك الأطراف. و لما ورد ذلك مضادّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، و مخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر، وقف جميع أهل الخلاف على جملته، و وقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم اللّه بالإيمان على جملته و تفاصيله، و تظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، و تنقّلت به الرّحال، و تعلّمه الكبير و الصغير، إذ كان عمدة دينهم، و علما عليه، و المفروض تلاوته فى صلواتهم، و الواجب استعماله فى أحكامهم. ثم تناقله خلف عن سلف. هم مثلهم فى كثرتهم و توفر دواعيهم على نقله، حتى (_____ ۱) قال البلقينى: «اعلم أنّ القراءات تنقسم إلى متواتر و شاذ. فالمتواتر: القراءات السبع المشهورة، و المراد بذلك: ما قرءوه من الحركات و الحروف دون ما كان من قبيل تأدية اللفظ من أنواع الإمالة و المدّ و التخفيف فليس بمتواتر. نعم أصل المدّ و الإمالة و التخفيف متواتر لاشتراك القراء فيه. و أما ما عدا السبعة من قراءة أبى جعفر يزيد بن القعقاع و يعقوب و اختيارات خلف التى هى تمام العشر فإنها ليست من المتواتر على الأرجح». التحبير ص (۱۲۹). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶ انتهى إلينا على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكّك أحد، و لا يجوز أن يتشكك، مع وجود هذه الأسباب، فى أنه أتى بهذا القرآن من عند اللّه تعالى. فهذا أصل، و إذا ثبت هذا الأصل وجودا فإنا نقول: إنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله، و قرّعهم على ترك الإتيان به طول السنين التى وصفناها. فلم يأتوا بذلك. و الذى يدل على هذا الأصل، أنا قد علمنا أن ذلك مذكور فى القرآن فى المواضع الكثيرة؛ كقوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ «۱». و كقوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «۲». فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله، دليلا على أنه منه، و دليلا على وحدانيته. و ذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية، و زعم أن ذلك مما لا سبيل إليه، إلا من جهة العقل. لأن القرآن كلام اللّه عز و جل، و لا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا. فقلنا: إذا ثبت بما نبيّنه إعجازه، و أن الخلق لا يقدرون عليه، ثبت أن الذى أتى به غيرهم، و أنه إنما يختصّ بالقدرة عليه، من يختصّ بالقدرة عليهم، و أنه صدق، و إذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا. و ليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل، امتنع أن يعرف من الوجهين. و ليس الغرض تحقيق القول فى هذا الفصل لأنه خارج عن مقصود كلامنا، و لكنّا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه. و من

ذلك قوله عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۳» و قوله: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «۴» فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، و لم يأتوا بمثله. و فى هـذا أمران: أحدهما التحدى إليه؛ و الآخر أنهم لم يأتوا له بمثل. و الذى يدل

(_____ ۱) آية (۲۳، ۲۴) سورة البقرة. (۲) آية (۱۳، ۱۴) سورة هود. (۳) آية (۸۸) سورة الإسراء. (۴) آية (۳۳، ۳۴) سورة الطور. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷ على ذلك النقل المتواتر الذى يقع به العلم الضرورى، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين. و إن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكر التحدى، و إنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان كذلك قولا باطلا، يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا! و هو يبلغ حمل جمل! و إنه كتم، و سيظهره المهدى!! أو يدّعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و إنما هو شىء وضعه عمر «۱» أو عثمان «۲» رضى اللّه عنهما، حيث وضع المصحف. أو يدعى فيه زيادة أو نقصانا. و قد ضمن اللّه حفظ كتابه أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، و وعده الحق، و حكاية قولة من قال ذلك يغنى عن الردّ عليه، لأن العدد الذين أخذوا القرآن فى الأمصار، و فى البوادى، و فى الأسفار، و الحضر، و ضبطوه حفظا من بين صغير و كبير، و عرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف، لا يجوز عليهم السهو و النسيان، و لا التخليط فيه و الكتمان. و لو زادوا و نقصوا أو غيّروا لظهر. و قد علمت أن شعر امرئ القيس «۳» و غيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، و لا أن يحفظ كحفظه، و لا أن يضبط كضبطه، و لا أن تمسّ الحاجة إليه مساسها إلى القرآن، لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت. لا بل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه. و أنكره أربابه. فإذا كان ذلك مما لا يمكن فى شعر امرئ القيس و نظرائه، مع أن الحاجة إليه تقطع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه فى القرآن، مع شدة الحاجة إليه فى أصل الدين، ثم فى الأحكام و الشرائع، و اشتمال الهمم المختلفة على ضبطه. فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته، و معرفة وجوهها، و صحة أدائها. و منهم من يحفظه للشرائع، و الفقه.

(_____ ۱) عمر هو: ابن الخطاب بن نفيل بن رياح القرشى العدوى أمير المؤمنين. كان من قديمى الإسلام و الهجرة، و ممن صلى إلى القبلتين، و شهد المشاهد كلها، و أخباره فى العلم و الحلم و الفهم أكثر من أن تحصر. له ترجمة فى: أسد الغابة ۴/ ۱۴۵، و الإصابة ۲/ ۵۱۱، و النجوم الزاهرة ۱/ ۷۸. (۲) عثمان هو: ابن عفان بن أبى العاص بن أمية القرشى الأموى المكى. كان من السابقين الأولين و ممن صلى إلى القبلتين، و هاجر الهجرتين، ثم إنه أحد العشرة المبشرين بالجنة. له ترجمة فى: أسد الغابة ۳/ ۵۸۴، و الإصابة ۲/ ۴۵۵، و النجوم الزاهرة ۱/ ۹۲. (۳) امرؤ القيس هو: ابن حجر الكندى. كان أشرف شعراء الجاهلية و أشهرهم، و أرفعهم منزلة. مات سنة (۵۴۰ م). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۳/ ۵۳۲، و الشعر و الشعراء ص (۳۷). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸ و منهم من يضبطه ليعرف تفسيره و معانيه. و منهم من يقصد بحفظه الفصاحة و البلاغة. و من الملحدين من يحصّله لينظر فى عجيب شأنه. و كيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة، و الآراء المتباينة على كثرة أعدادهم، و اختلاف بلادهم، و تفاوت أغراضهم، أن يجتمعوا على التغيير و التبديل و الكتمان؟ و يبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر فى أكثر السور مما بينا، و من نظائره فى رد قومه عليه ورد غيرهم، و قولهم لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هـذا «۱»، و قول بعضهم: ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ «۲»، إلى الوجوه التى يصرف إليها قولهم فى الطعن عليه. فمنهم من يستهين بها و يجعل ذلك سببا لتركه الإتيان بمثله. و منهم من يزعم أنه مفترى، فلذلك لا يأتى بمثله. و منهم من يزعم أنه دارس، و أنه أساطير الأولين. و كرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديه لئلا يقع التطويل. و لو جاز أن يكون بعضه مكتوما، جاز على كله. و لو جاز أن يكون بعضه موضوعا، جاز ذلك فى كله. فثبت بما بيناه، أنه تحدّاهم و أنهم لم يأتوا بمثله. و هذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه، و بنوا عليه، فإذا ثبت هذا، وجب أن يعلم بعده أن تركهم للإتيان بمثله، كان لعجزهم عنه. و الذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن، أنه تحداهم إليه حتى طال التحدى. و جعله دلالة على صدقه، و نبوّته، و تضمّن أحكامه استباحة دمائهم و أموالهم، و سبى

ذریتهم. فلو کانوا یقدرون علی تکذیبه لفعلوا و توصلوا إلی تخلیص أنفسهم و أهلیهم و أموالهم من حکمه، بأمر قریب، هو عادتهم فی لسانهم، و مألوف من خطابهم. و کان ذلک یغنیهم عن تکلف القتال و إکثار المراء و الجدال، و عن الجلاء عن الأوطان، و عن تسلیم الأهل و الذریة للسبی. فلما لم یحصل هناک معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها یبیّن ذلک أن العدو یقصد لدفع قول عدوه بکل ما قدر علیه، من المکاید، لا سیما مع استعظامه ما أبدعه بالمجیء من خلع آلهته، و تسفیه رأیه فی دیانته، و تضلیل آبائه، و التغریب علیه بما جاء به، و إظهار أمر یوجب الانقیاد لطاعته، و التصرف علی حکم إرادته، و العدول عن إلفه و عادته، و الانخراط فی سلک الأتباع بعد أن کان متبوعا، و التشییع بعد أن کان مشیّعا، و تحکیم الغیر فی ماله و تسلیطه إیاه علی جملة أحواله، و الدخول تحت تکالیف شاقة، و عبادات متعبة بقوله. و قد

(_____ ۱) آیة (۳۲) سورة الأنفال. (۲) آیة (۷) سورة ص. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۹ علم أن بعض هذه الأحوال مما یدعو إلی سلب النفوس دونه. هذا و الحمیّة حمیتهم، و الهمم الکبیرة هممهم. و قد بذلوا له السیف و أخطروا بنفوسهم و أموالهم. فکیف یجوز أن لا یتوصلوا إلی الرد علیه، و إلی تکذیبه بأهون سعیهم، و مألوف أمرهم. و ما یمکن تناوله من غیر أن یعرق فیه جبین، أو یشتغل به خاطر، و هو لسانهم الذی یتخاطبون به، مع بلوغهم فی الفصاحة النهایة التی لیس وراءها مطلع و الرتبة التی لیس وراءها منزع، و معلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إلیه لکان فیه توهین أمره، و تکذیب قوله، و تفریق جمعه، و تشتیت أسبابه. و کان من صدق به یرجع علی أعقابه، و یعود فی مذهب أصحابه، فلما لم یفعلوا شیئا من ذلک مع طول المدة، و وقوع الفسحة، و کان أمره یتزاید حالا فحالا، و یعلو شیئا فشیئا، و هم علی العجز عن القدح فی آیته، و الطعن فی دلالته، علم مما بینا أنهم کانوا لا یقدرون علی معارضته، و لا علی توهین حجته. و قد أخبر اللّه تعالی عنهم أنهم قوم خصمون، و قال: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا «۱» و قال: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ «۲» و علم أیضا أن ما کانوا یقولونه من وجوه اعتراضهم علی القرآن مما حکی اللّه عز و جل عنهم من قولهم: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ «۳» و قولهم: ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًی، وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ «۴» و قالوا: یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ «۵» و قالوا: أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ «۶» و قالوا: أَ إِنَّا لَتارِکُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ «۷» و قال الذین کفروا: إِنْ هذا إِلَّا إِفْکٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ «۸» فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً. وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا «۹» و قوله سبحانه: وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً «۱۰» و قوله: الَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ

(_____ ۱) آیة (۹۷) سورة مریم. (۲) آیة (۴) سورة النحل. (۳) آیة (۳۱) سورة الأنفال. (۴) آیة (۳۶) سورة القصص. (۵) آیة (۶) سورة الحجر. (۶) آیة (۳) سورة الأنبیاء. (۷) آیة (۳۶) سورة الصافات. (۸) آیة (۴) سورة الفرقان. (۹) آیة (۵) سورة الفرقان. (۱۰) آیة (۸) سورة الفرقان. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۰ عِضِینَ «۱». إلی آیات کثیرة فی نحو هذا، تدل علی أنهم کانوا متحیرین فی أمرهم، متعجبین من عجزهم، یفزعون إلی نحو هذه الأمور من تعلیل، و تعذیر، و مدافعة، بما وقع التحدی إلیه، و عرف الحث علیه. و قد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، و جاهروه و نابذوه و قطعوا الأرحام، و أخطروا بأنفسهم، و طالبوه بالآیات، و الإتیان بغیر ذلک من المعجزات، یریدون تعجیزه لیظهروا علیه بوجه من الوجوه. فکیف یجوز أن یقدروا علی معارضته القریبة السهلة علیهم، و ذلک یدحض حجّته و یفسد دلالته، و یبطل أمره، فیعدلون عن ذلک إلی سائر ما صاروا إلیه من الأمور التی لیس علیها مزید فی المنابذة و المعاداة، و یترکون الأمر الخفیف؟ هذا مما یمتنع وقوعه فی العادات، و لا یجوز إتقانه من العقلاء. و إلی هذا قد استقصی أهل العلم الکلام، و أکثروا فی هذا المعنی و أحکموه. و یمکن أن یقال: إنهم لو کانوا قادرین علی معارضته، و الإتیان بمثل ما أتی به، لم یجز أن یتفق منهم ترک المعارضة، و هم علی ما هم علیه من الذرابة و السلاقة و المعرفة بوجوه الفصاحة. و هو یستطیل علیهم بأنهم عاجزون عن مباراته، و إنهم یضعفون عن مجاراته، و یکرر فیما جاء به ذکر عجزهم عن مثل ما یأتی به، و یقرعهم و یؤنبهم علیه، و یدرک آماله فیهم، و ینجح ما یسعی له بترکهم

المعارضة. و هو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه و تفخيم أمره، حتى يتلو قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۲» و قوله: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ «۳» و قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ «۴» و قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۵» و قوله: إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ

(۱) آية (۹۱) سورة الحجر. (۲) آية (۸۸) سورة الإسراء. (۳) آية (۲) سورة النحل. (۴) آية (۸۷) سورة الحجر. (۵) آية (۹) سورة الحجر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۱ تُسْئَلُونَ «۱» و قوله: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «۲» و قوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ «۳» إلى. غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم شأن القرآن، فمنها ما يتكرر فى السورة فى مواضع منها، و منها ما ينفرد فيها. و ذلك مما يدعوهم إلى المباراة، و يحضّهم على المعارضة، و إن لم يكن متحديا إليه. أ لا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا و لهم فى ذلك مواقف معروفة، و أخبار مشهورة، و أيام منقولة، و كانوا يتنافسون على الفصاحة و الخطابة و الذلاقة، و يتبجحون بذلك و يتفاخرون بينهم. فلن يجوز و الحالة هذه، أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحداهم إليها أو لم يتحداهم. و لو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر، لوجب فى ذلك أمر آخر، و هو أنه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به. و كانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، و تعمل نظمه فى الحال. فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق، و خطبة متقدمة، و رسالة سالفة، و نظم بديع، و لا عارضوه به، فقالوا هذا أفصح مما جئت به، و أغرب منه، أو هو مثله، علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل، و أنه لم يوجد له نظير. و لو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، و لعرفناه كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية، و كلام الفصحاء و الحكماء من العرب، و أدى إلينا كلام الكهان و أهل الرجز و السجع و القصيد و غير ذلك من أنواع بلاغاتهم و صنوف فصاحاتهم. فإن قيل الذى بنى عليه الأمر فى تثبيت معجزة القرآن، أنه وقع التحدى إلى الإتيان بمثله، و أنهم عجزوا عنه بعد التحدى إليه. فإذا نظر الناظر و عرف وجه النقل المتواتر فى هذا الباب، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه، و ما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدى. و أن ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال. قيل: إنما احتيج إلى التحدّى لإقامة الحجة و إظهار وجه البرهان، لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة، بأن يدعيها من ظهرت عليه، و لا تظهر على مدّع لها إلا و هى معلومة أنها من عند اللّه. فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة، بالتحدى وجب فيها

(۱) آية (۴۴) سورة الزخرف. (۲) آية (۲) سورة البقرة. (۳) آية (۲۳) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۲ التحدى، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل، و ينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة. و إلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب، و يتقن مصارف الكلام، و كان كاملا فى فصاحته، جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة، لو أنه احتج عليه بالقرآن، و قيل له إن الدلالة على النبوة و الآية على الرسالة ما أتلوه عليك منه، لكان ذلك بلاغا فى إيجاب الحجة، و تماما فى إلزامه فرض المصير إليه. و مما يؤكد هذا، أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، قد دعا الآحاد إلى الإسلام محتجا عليهم بالقرآن؛ لأنّا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليدا. و نعلم أن السابقين الأولين إلى الإسلام لم يقلدوه. و إنما دخلوا على بصيرة. و لم نعلمه قال لهم ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتى. بل لما رآهم يعلمون إعجازه، ألزمهم حكمه، فقبلوه و تابعوا الحق، و بادروا إليه مستسلمين، و لم يشكوا فى صدقه، و لم يرتابوا فى وجه دلالته. فمن كانت بصيرته أقوى، و معرفته أبلغ كان إلى القبول منه أسبق. و من اشتبه عليه وجه الإعجاز، و اشتبه عليه بعض شروط المعجزات، و أدلة النبوات كان أبطأ إلى القبول، حتى تكاملت أسبابه، و اجتمعت له بصيرته، و ترادفت عليه موادّه. و هذا فصل يجب أن يتمّم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له، و يبين ما قلناه أن هذه الآية علم يلزم الكل قبوله، و الانقياد له. و قد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه و معرفة وجه دلالته، لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه. و هو يحتاج فى معرفة

ذلک إلی أمور لا یحتاج إلیها من کان من أهل صنعة الفصاحة. فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم، و جری مجراهم، فی توجه الحجة علیه. و کذلک لا یعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن، ما یعرفه العالی فی هذه الصنعة. فربما حل فی ذلک محل الأعجمی فی أن لا یتوجه علیه الحجة. حتی یعرف عجز المتناهی فی الصنعة عنه. و کذلک لا یعرف المتناهی فی معرفة الشعر وحده، أو الغایة فی معرفة الخطب، أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن، ما یعرف من استکمل معرفة جمیع تصاریف الخطاب، و وجوه الکلام و طرق البراعة، فلا تکون الحجة قائمة علی المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها، دون تحققه بعجز البارع فی هذه العلوم کلها عنه. فأما من کان متناهیا فی معرفة وجوه الخطاب، و طرق البلاغة و الفنون التی یمکن فیها إظهار الفصاحة، فهو متی سمع القرآن عرف إعجازه، و إن لم نقل ذلک أدی هذا القول إلی أن یقال إن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لم یعرف إعجاز القرآن حین أوحی إلیه، حتی سبر الحال بعجز أهل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۳ اللسان عنه، و هذا خطأ من القول. فصحّ من هذا الوجه، أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، حین أوحی إلیه القرآن عرف کونه معجزا، و بأن قیل له إنه دلالة و علم علی نبوتک أنه کذلک، من قبل أن یقرأه علی غیره أو یتحدی إلیه سواه. و لذلک قلنا: إن المتناهی فی الفصاحة و العلم، بالأسالیب التی یقع فیها التفاصح، متی سمع القرآن عرف أنه معجز، لأنه یعرف من حال نفسه أنه لا یقدر علیه، و یعرف من حال غیره، مثل ما یعرف من حال نفسه، فیعلم أن عجز غیره کعجزه هو، و إن کان یحتاج بعد هذا إلی استدلال آخر علی أنه علم علی نبوة، و دلالة علی رسالة، بأن یقال له إن هذه آیة لنبیه، و إنما ظهرت علیه و ادعاها معجزة له و برهانا علی صدقه. فإن قیل: فإن من الفصحاء من یعلم عجز نفسه عن قول الشعر، و لا یعلم مع ذلک عجز غیره عنه. فکذلک التبلیغ. و إن علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد یخفی علیه عجز غیره. قیل هو مع مستقر العادة، و إن عجز عن قول الشعر و علم أنه معجز فإنه یعلم أن الناس لا ینفکون من وجود الشعراء فیهم. و متی علم البلیغ المتناهی فی صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غیره لأنه کهو، لأنه یعلم أن حاله و حال غیره فی هذا الباب سواء، إذ لیس فی العادة مثل للقرآن یجوز أو یعلم قدرة أحد من البلغاء علیه. فإذا لم یکن لذلک مثل فی العادة، و عرف هذا الناظر جمیع أسالیب الکلام و أنواع الخطاب، و وجد القرآن مباینا لها، علم خروجه عن العادة، و جری مجری ما یعلم أن إخراج الید البیضاء من الجیب خارج عن العادات، فهو لا یجوزه من نفسه، و کذلک لا- یجوز وقوعه من غیره إلا- علی وجه نقض العادة. بل یری وقوعه موقع المعجزة، و هذا و إن کان یفارق فلق البحر، و إخراج الید البیضاء. و نحو ذلک من وجه. و هو أن یستوی الناس فی معرفة عجزهم عنه، فکونه ناقضا للعادة من غیر تأمل شدید، و لا- نظر بعید. فإن النظر فی معرفة إعجاز القرآن یحتاج إلی تأمل، و یفتقر إلی مراعاة مقدمات، و الکشف عن أمور نحن ذاکروها بعد هذا الموضع. فکل واحد منها یؤول إلی مثل حکم صاحبه فی الجمع الذی قدمنا. و مما یبین ما قلناه من أن البلیغ المتناهی فی وجوه الفصاحة، یعرف إعجاز القرآن. و تکون معرفته حجة علیه إذا تحدی إلیه و عجز عن مثله. و إن لم ینتظر وقوع التحدی فی غیره. و ما الذی یصنع ذلک الغیر، و هو ما روی فی الحدیث: أن جبیر «۱» بن مطعم ورد علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فی معنی حلیف له أراد أن یفادیه فدخل

(۱) جبیر بن مطعم بن عدی القرشی النوفلی المکی ثم المدنی. أسلم یوم الفتح، و قیل قبلها، و حسن إسلامه، و کان سیدا حکیما وقورا. مات بالمدینة سنة (۵۸) أو (۵۹). له ترجمة فی: الریاض- إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۴ و النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، یقرأ سورة: وَ الطُّورِ وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ «۱» فی صلاة الفجر، قال: فلما انتهی إلی قوله: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ «۲» قال: خشیت أن یدرکنی العذاب فأسلم. و فی حدیث آخر أن عمر «۳» بن الخطاب رضی اللّه عنه سمع سورة طه فأسلم. و قد روی أن قوله عز و جل فی أول حم «السجدة» إلی قوله: فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ «۴» نزلت فی شیبة و عتبة ابنی ربیعة و أبی سفیان بن حرب و أبی جهل. و ذکر أنهم بعثوا هم و غیرهم من وجوه قریش بعتبة بن ربیعة إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لیکلمه، و کان حسن الحدیث، عجیب الشأن، بلیغ الکلام، و أرادوا أن یأتیهم بما عنده، فقرأ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم سورة حم السجدة من أولها حتی انتهی إلی قوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ

أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «۵» فوثب مخافة العذاب، فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة، و لا اهتدى لجوابه، و لو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج و الرد. فقال عثمان «۶» بن مظعون لتعلموا أنه من عند اللّه إذ لم يهتد لجوابه. و أبين من ذلك قول اللّه عز و جل: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ «۷» فجعل سماعه حجة عليه بنفسه، فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه. فإن قيل: لو كان ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا فى عصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على طريقة واحدة فى إسلامهم عند سماعه، قيل: لا يجب ذلك، لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يشكّون، منهم من يشك فى إثبات الصانع، و فيهم من يشك فى التوحيد، و فيهم من يشك فى النبوة، أ لا ترى أن أبا سفيان «۸» بن حرب لما جاء إلى رسول

- المستطابة ص (۴۸). (۱) آية (۱) سورة الطور. (۲) آية (۸) سورة الطور. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آية (۴) سورة فصلت. (۵) آية (۱۳) سورة فصلت. (۶) عثمان بن مظعون. قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، و هاجر إلى الحبشة. له ترجمة فى: الإصابة ۲/ ۴۶۴. (۷) آية (۶) سورة التوبة. (۸) أبو سفيان بن حرب بن أمية القرشى الأموى المكى. ولد قبل الفيل بعشر سنين، و كان شيخ مكة، و رئيس قريش. مات بالمدينة سنة (۳۱) أو (۳۲). له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (۱۲۸- ۱۲۹). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۵ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليسلم عام الفتح، قال له النبى عليه السلام: أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا اللّه؟ قال: بلى، فشهد. قال: أما آن لك أن تشهد أنى رسول اللّه؟ قال: أما هذه ففى النفس منها شىء. فكانت وجوه شكوكهم مختلفة. و طرق شبههم متباينة، فمنهم من قلت شبهه، و تأمل الحجة حق تأملها و لم يستكبر فأسلم. و منهم من كبرت شبهه، و أعرض عن تأمل الحجة حق تأملها، أو لم يكن فى البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر و استبصر، و راعى و اعتبر، و احتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله، فلذلك وقف أمره. و لو كانوا فى الفصاحة على مرتبة واحدة، و كانت صوارفهم و أسبابهم متفقة، لتوافقوا إلى القبول جملة واحدة. فإن قيل: فكيف يعرف البليغ الذى وصفتموه: إعجاز القرآن؟ و ما الوجه الذى يتطرق به إليه؟ و المنهاج الذى يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه؟ قيل: هذا سبيله أن يفرد له فصل، فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات و تصرفهم فى أجناس الفصاحات؟ و هلا قلتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، و توجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرا، و إنما يصرفه اللّه عنه ضربا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله، ضربا من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده اللّه من الدلالة، و يحصل ما قصده من إيجاب الحجة. لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها. و إذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، و كذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية و السورة. فالجواب أنه لو صح ذلك، صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد و يقول الأشعار. و صح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة، و الرسائل العجيبة، و معلوم أن ذلك غير سائغ، و لا ممكن. على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، و وضع من مقدار الفصاحة فى نظمه كان أبلغ فى الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، و منعوا عن معارضته و عدلت دواعيهم عنه. فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، و إخراجه فى المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة و البلاغة و حسن النظم و عجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه و لم يلزمهم حجته. فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان. و فيه معنى آخر، و هو: أن أهل الصنعة فى هذا الشأن إذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخف عليهم، و لم يشتبه لديهم. و من كان متناهيا فى فصاحته، لم يجز أن يطمع فى مثل هذا القرآن بحال. فإن قال صاحب السؤال إنه قد يطمع فى ذلك. قيل له: أنت تزيد على هذا، إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۶ فتزعم أن كلام الآدمى قد يضارع القرآن، و قد يزيد عليه فى الفصاحة و لا يتحاشاه. و يحسب أن ما ألفه فى الجزء و الطفرة هو أبدع و أغرب من القرآن لفظا و معنى! و لكن ليس الكلام

على ما يقدره مقدر فى نفسه، و يحسبه ظان من أمره، و المرجوع فى هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد. و نحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، و نميزه فى ذلك عن سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ، بيّن الغلط، و أن هذا التقدير من جنس من حكى اللّه تعالى قوله فى محكم كتابه: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ «۱» فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله، بأن ذلك من قول البشر، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذى يتجاوز إمكان معارضته. و مما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، و إنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا، و إنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه. و ليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن الكلّ قادرون على الإتيان بمثله، و إنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به. و لا بأعجب من قول فريق منهم إنه لا فرق بين كلام البشر و كلام اللّه تعالى فى هذا الباب، و إنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد. فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام اللّه عز و جل معجز كالتوراة و الإنجيل و الصحف، قيل: ليس شىء من ذلك بمعجز فى النظم و التأليف. و إن كان معجزا كالقرآن، فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب. و إنما لم يكن معجزا لأن اللّه تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، و لأنّا قد علمنا أنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن. و لمعنى آخر و هو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز. و لكنه يتقارب، و قد رأيت أصحابنا يذكرون هذا فى سائر الألسنة و يقولون: ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب، و يمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشىء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة. و كذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناول العربية. و كذلك التصرف فى الاستعارات، و الإشارات، و وجوه الاستعمالات البديعة التى يجىء تفصيلها بعد.

(۱) آية (۱۸ : ۲۵) سورة المدثر.

هذا و يشهد لذلك من القرآن أن اللّه تعالى وصفه بأنه بلسان عربى مبين. و كرر ذلك فى مواضع كثيرة، و بين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميا. فلو كان يمكن فى لسان العجم إيراد مثل فصاحته، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة. و أنه و إن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه عربى مبين، أنه مما يفهمونه و لا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، و لا يحتاجون فى تفسيره إلى من سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضا كما أفاد بظاهره ما قدمناه. و يبين ذلك أن كثيرا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة و هم من أهل البراعة فيها، و فى العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل و الفصاحة ما يقع فى العربية. و معنى آخر و هو أنّا لم نجد أهل التوراة و الإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم، و لا ادعى لهم المسلمون. فعلم أنّ الإعجاز مما يختص به القرآن. و يبين هذا أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ما قد اتفق فى العربية. و إن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن و يتأتى فى العربية. و كذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى يتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية. فإن قيل: فإن المجوس تزعم أن كتاب «زرادشت» و كتاب «مانى» معجزان، قيل: الذى يتضمنه كتاب «مانى» من طريق النيرنجات و ضروب من الشعوذة ليس يقع فيها إعجاز. و يزعمون أن فى الكتاب الحكم و هى حكم منقولة متداولة على الألسن لا يختص بها أمة دون أمة. و إن كان بعضهم أكثر اهتماما بها و تحصيلا لها و جمعا لأبوابها. و قد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، و إنما فزعوا إلى الدّرة اليتيمة، و هما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة، توجد عند حكماء كل أمة، مذكورة بالفضل، فليس فيها شىء بديع من لفظ، و لا معنى. و الآخر فى شىء من الديانات و قد تهوس فيه مما لا يخفى على متأمل، و كتابه الذى بيّناه فى الحكم منسوخ من كتاب «بزرجمهر» فى الحكمة. فأى صنع له فى ذلك؟ و أى فضيلة حازها فيما جاء به؟ و بعد، فليس يوجد له كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم مزّق ما جمع و استحيا لنفسه من إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب و أبصر القصد، و لا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده، و يتبين له أمره، و ينكشف له عجزه.

و لو کان بقی علی اشتباه الحال علیه لم یخف علینا موضع غفلته، و لم یشتبه لدینا وجه شبهته. و متی أمکن أن تدعی الفرس فی شیء من کتبهم أنه معجز فی حسن تألیفه و عجیب نظمه! إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۸

فصل: فی جملة وجوه إعجاز القرآن

فصل: فی جملة وجوه إعجاز القرآن ذکر أصحابنا و غیرهم فی ذلک ثلاثة أوجه من الإعجاز: الوجه الأول: یتضمن الإخبار عن الغیوب، و ذلک مما لا یقدر علیه البشر. لا سبیل لهم إلیه: فمن ذلک ما وعد اللّه تعالی نبیه علیه السلام أنه سیظهر دینه علی الأدیان بقوله عز و جل: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ «۱» ففعل ذلک و کان أبو بکر «۲» الصدیق رضی اللّه عنه إذا أغزی جیوشه، عرّفهم ما وعدهم اللّه من إظهار دینه، لیثقوا بالنصر، و یستیقنوا بالنجاح. و کان عمر «۳» بن الخطاب رضی اللّه عنه یفعل کذلک فی أیامه، حتی وقف أصحاب جیوشه علیه، فکان سعد بن أبی وقاص رحمه اللّه، و غیره من أمراء الجیوش من جهته یذکر ذلک لأصحابه، و یحرضهم به، و یوثق لهم. و کانوا یلقون الظفر فی مواجهاتهم، حتی فتح إلی آخر أیام عمر رضی اللّه عنه إلی بلخ، و بلاد الهند و فتح فی أیامه مرو الشاهجان و مرو الروذ و منعهم من العبور بجیحون. و کذلک فتح فی أیامه فارس إلی اصطخر و کرمان، و مکران و سجستان و جمیع ما کان من مملکة کسری، و کل ما کان یملکه ملوک الفرس بین البحرین من الفرات إلی جیحون. و أزال ملک ملوک الفرس فلم یعد إلی الیوم. و لا یعود أبدا إن شاء اللّه تعالی. ثم إلی حدود أرمینیة و إلی باب الأبواب، و فتح أیضا ناحیة الشام، و الأردن، و فلسطین، و فسطاط مصر. و أزال ملک قیصر عنها، و ذلک من الفرات إلی بحر مصر، و هو ملک قیصر. و غزت الخیول فی أیامه إلی عموریة، فأخذ الضواحی کلها و لم یبق دونها إلا ما حجز دونه بحر، أو (_____ ۱) آیة (۳۳) سورة التوبة.

(۲) أبو بکر الصدیق هو: عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو القرشی التیمی. کان أول من أسلم من الرجال، و لم یتردد حین عرض علیه الإسلام، و ثبت له أفضل الفضائل بصحبة الهجرة، و کانت بیعته إجماعا من الصحابة. مات سنة (۱۳). له ترجمة فی: أسد الغابة ۳/ ۳۰۹، و شذرات الذهب ۱/ ۲۷، و مروج الذهب ۲/ ۳۰۵. (۳) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۹ حال عنه جبل منیع، أو أرض خشنة، و أو بادیة غیر مسلوکة. و قال اللّه عز و جل: قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلی جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ «۱» فصدق فیه و قال فی أهل بدر: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ «۲» و وفی لهم بما وعد. و جمیع الآیات التی یتضمنها القرآن، من الإخبار عن الغیوب، یکثر جدّا، و إنما أردنا أن ننبه بالبعض علی الکل. و الوجه الثانی: أنه کان معلوما من حال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، أنه کان أمیا لا یکتب و لا یحسن أن یقرأ. و کذلک کان معروفا من حاله أنه لم یکن یعرف شیئا من کتب المتقدمین، و أقاصیصهم، و أنبائهم، و سیرهم. ثم أتی بجملة ما وقع و حدث من عظیمات الأمور، و مهمات السیر، من حین خلق اللّه آدم علیه السلام، إلی حین مبعثه. فذکر فی الکتاب الذی جاء به معجزة له: قصة آدم علیه السلام، و ابتداء خلقه، و ما صار إلیه أمره من الخروج من الجنة، ثم جملا من أمر ولده و أحواله و توبته. ثم ذکر قصه نوح علیه السلام، و ما کان بینه و بین قومه و ما انتهی إلیه أمره. و کذلک أمر إبراهیم علیه السلام. إلی ذکر سائر الأنبیاء المذکورین فی القرآن، و الملوک و الفراعنة الذین کانوا فی أیام الأنبیاء صلوات اللّه علیهم. و نحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبیل إلیه، إلا عن تعلم، و إذا کان معروفا أنه لم یکن ملابسا لأهل الآثار و حملة الأخبار، و لا مترددا إلی التعلم منهم. و لا کان ممن یقرأ فیجوز أن یقع إلیه کتاب فیأخذ منه علم أنه لا یصل إلی علم ذلک إلا بتأیید من جهة الوحی. و لذلک قال عز و جل: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «۳» و قال: وَ کَذلِکَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَیِّنَهُ لِقَوْمٍ (_____ ۱) آیة (۱۲) سورة آل عمران. (۲) آیة (۷) سورة الأنفال. (۳) آیة (۴۸) سورة العنکبوت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۰ یَعْلَمُونَ «۱» و قد بینا أن من کان یختلف إلی

تعلم علم و یشتغل بملابسة أهل صنعة، لم یخف علی الناس أمره. و لم یختلف عندهم مذهبه، و قد کان یعرف فیهم من یحسن هذا العلم و إن کان نادرا. و کذلک کان یعرف من یختلف إلیه للتعلیم، و لیس یخفی فی العرف عالم کل صنعة و متعلمها فلو کان منهم لم یخف أمره. و الوجه الثالث: أنه بدیع النظم، عجیب التألیف، متناه فی البلاغة، إلی الحد الذی یعلم عجز الخلق عنه. و الذی أطلقه العلماء هو علی هذه الجملة. و نحن نفصل ذلک بعض التفصیل، و نکشف الجملة التی أطلقوها. فالذی یشتمل علیه بدیع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منها: ما یرجع إلی الجملة. و ذلک أن نظم القرآن علی تصرف وجوهه، و اختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جمیع کلامهم و مباین للمألوف من ترتیب خطابهم، و له أسلوب یختص به و یتمیز فی تصرفه عن أسالیب الکلام المعتاد. و ذلک أن الطرق التی یتقید بها الکلام البدیع المنظوم، تنقسم إلی أعاریض الشعر علی اختلاف أنواعه، ثم إلی أنواع الکلام الموزون غیر المقفی، ثم إلی أصناف الکلام المعدل المسجع، ثم إلی معدل موزون غیر مسجع، ثم إلی ما یرسل إرسالا، فتطلب فیه الإصابة و الإفادة و إفهام المعانی المعترضة علی وجه بدیع، و ترتیب لطیف، و إن لم یکن معتدلا فی وزنه. و ذلک شبیه بجملة الکلام الذی لا یتعمل و لا یتصنع له. و قد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، و مباین لهذه الطرق، و یبقی علینا أن نبین أنه لیس من باب السجع، و لا فیه شیء منه. و کذلک لیس من قبیل الشعر لأن من الناس من زعم أنه کلام مسجع، و منهم من یدعی أن فیه شعرا کثیرا، و الکلام علیهم یذکر بعد هذا الموضع، فهذا إذا تأمله المتأمل تبین بخروجه عن أصناف کلامهم، و أسالیب خطابهم، أنه خارج عن العادة، و أنه معجز، و هذه خصوصیة ترجع إلی جملة القرآن. و تمیّز حاصل فی جمیعه. و منها أنه لیس للعرب کلام مشتمل علی هذه الفصاحة، و الغرابة و التصرف البدیع و المعانی اللطیفة، و الفوائد الغزیرة، و الحکم الکثیرة، و التناسب فی البلاغة، و التشابه فی البراعة، علی هذا الطول، و علی هذا القدر. و إنما تنسب إلی حکیمهم کلمات معدودة، و ألفاظ قلیلة، و إلی شاعرهم قصائد محصورة، یقع فیها ما نبینه بعد هذا من الاختلال، و یعترضها ما نکشفه من الاختلاف، و یقع فیها ما نبدیه من التعمل و التکلف و التجوز و التعسف (_____. ۱) آیة (۱۰۵) سورة الأنعام. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۱ و قد حصل القرآن علی کثرته و طوله متناسبا فی الفصاحة علی ما وصفه اللّه تعالی به فقال عز من قائل: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ «۱» وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۲» فأخبر أن کلام الآدمی إن امتد وقع فیه التفاوت، و بان علیه الاختلال. و هذا المعنی هو غیر المعنی الأول الذی بدأنا بذکره، فتأمله تعرف الفضل. و فی ذلک معنی ثابت و هو أن عجیب نظمه، و بدیع تألیفه، لا یتفاوت و لا یتباین علی ما یتصرف إلیه من الوجوه التی یتصرف فیها من ذکر قصص، و مواعظ، و احتجاج و حکم، و أحکام و أعذار، و إنذار، و وعد و وعید و تبشیر، و تخویف و أوصاف، و تعلیم أخلاق کریمة و شیم رفیعة، و سیر مأثورة، و غیر ذلک من الوجوه التی یشتمل علیها. و نجد کلام البلیغ الکامل، و الشاعر المفلق، و الخطیب المصقع، یختلف علی حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من یجود فی المدح دون الهجو. و منهم من یبرز فی الهجو دون المدح. و منهم یسبق فی التقریظ دون التأبین. و منهم من یجود فی التأبین دون التقریظ. و منهم من یغرب فی وصف الإبل و الخیل، أو سیر اللیل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل أو غیر ذلک، مما یشتمل علیه الشعراء و یتداوله الکلام. و لذلک ضرب المثل بامرئ القیس إذا رکب، و النابغة إذا رهب، و بزهیر إذا رغب. و مثل ذلک یختلف فی الخطب و الرسائل و سائر أجناس الکلام. و متی تأملت شعر الشاعر البلیغ رأیت التفاوت فی شعره علی حسب الأحوال التی یتصرف فیها، فیأتی بالغایة فی البراعة فی معنی، فإذا جاء إلی غیره قصر عنه، و وقف دونه، و بان الاختلاف علی شعره، و لذلک ضرب المثل بالذین سمیتهم لأنه لا خلاف فی تقدمهم فی صنعة الشعر، و لا شک فی تبریزهم فی مذهب النظم، فإذا کان الاختلال بیّنا فی شعرهم لاختلاف ما یتصرفون فیه، و استغنینا عن ذکر من هو دونهم. و کذلک یستغنی به عن تفصیل نحو هذا فی الخطب و الرسائل و نحوها. ثم نجد فی الشعراء من یجوّد فی الرجز، و لا یمکنه نظم القصید أصلا. و منهم من ینظم القصید، و لکن یقصّر فیه مهما تکلفه أو عمله. و من الناس من یجوّد فی الکلام المرسل، فإذا أتی

بالموزون قصر و نقص نقصانا عجيبا. و منهم من يوجد بضد ذلك. و قد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها (_____، ۱) آية (۲۳) سورة الزمر. (۲) آية (۸۲) سورة النساء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۲ على حد واحد فى حسن النظم، و بديع التأليف و الرصف، لا تفاوت فيه، و لا انحطاط عن المنزلة العليا، و لا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا. و كذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة و القصيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف. و كذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف و لا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة و غاية البراعة. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر. لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، و عند تباين الوجوه و اختلاف الأسباب التى يتضمن. و معنى الرابع: و هو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا فى الفصل و الوصل، و العلو و النزول، و التقريب و التبعيد، و غير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، و يتصرف فيه القول عند الضم و الجمع، أ لا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، و الخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه و حسن وصفه فى الخروج من النسيب إلى المديح. و أطبقوا على أنه لا- يحسنه و لا يأتى فيه بشىء. و إنما اتفق له فى مواضع معدودة خروج يرتضى و تنقل يستحسن. و كذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شىء إلى شىء، و التحول من باب إلى باب. و نحن نفصل بعد هذا و نفسر هذه الجملة، و نبين على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، و الطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، و المتباين كالمتناسب، و المتنافر فى الإفراد إلى حد الآحاد. و هذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة، و تظهر به البلاغة، و يخرج به الكلام عن حد العادة، و يتجاوز العرف. و معنى خامس: و هو أن نظم القرآن وقع موقعا فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس و الجن. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، و يقصرون دونه كقصورنا. و قد قال اللّه عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا- يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۱» فإن قيل: هذه دعوى منكم، و ذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن مثله، و قد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، و إن كنا عاجزين كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة و أسباب غامضة، دقيقة لا- نقدر نحن عليها، و لا سبيل لنا للطفها إليها، و إذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل. قيل: قد يمكن أن تعرف ذلك بخبر اللّه عز و جل. و قد يمكن أن يقال إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، و ما يروون لهم من الشعر، و يحكون (_____ ۱) آية (۸۸) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۳ عنهم من الكلام. و قد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم، منقول عنهم، و القدر الذى نقلوه قد تأملناه، فهو فى الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، و لعله يقصر عنها، و لا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم، و يقع بينهم و بينهم محاورات فى عهد الأنبياء صلوات اللّه عليهم. و ذلك الزمان مما لا- يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات. على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، و لهم أشعار محفوظة مروية فى دواوينهم قال تأبط شرا «۱»: و أدهم قد حبت جلبابه كما احتابت الكاعب الخيعلا إلى أن حدا الصبح أثناءه و مزّق جلبابه الأليلا على شيم نار تنوّرتها فبتّ لها مدبرا مقبلا فأصبحت و الغول لى جارة فيا جارتا أنت ما أهولا- و طالبتها بضعها فالتوت بوجه تهول و استغولا فمن سأل أين ثوب جارتى فإن لها باللوى منزلا و كنت إذ ما هممت اعتزمت ت و أحر إذا قمت أن أفعلا- و قال آخر: عشوا نارى فقلت منون أنتم؟ فقالوا: الجنّ، قلت: عموا ظلاما فقمت إلى الطعام فقال منهم زعيم يحسد الإنس الطعاما و يذكرون لامرئ القيس «۲» قصيدة مع عمرو الجنى و أشعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها و قال عبيد بن أيوب: فلله درّ الغول أى رفيقة لصاحب قفر خائف متقفر أرنّت بلحن بعد لحن و أوقدت حوالىّ نيرانا تلوح و تزهر و قال ذو الرمة «۳» بعد قوله: قد أعسف النازح المجهول معسفه فى ظل أخضر يدعو هامه البوم (_____ ۱) تأبط شرا هو: ثابت بن جابر، كان أسمع العرب و أبصرهم و أكيدهم، و كان أعدى رجل ينظر إلى الظباء فينتقى أسمنها، ثم يعدو خلفه فلا يفوته. مات سنة (۵۳۰ م). له

ترجمة فی: الأغانی ۱۸/ ۲۰۹، و الشعر و الشعراء (۱۷۴)، و خزانة الأدب ۱/ ۶۶. (۲) سبقت ترجمته. (۳) ذو الرمة هو: غیلان بن عقبة بن نهیس، یعد من الشعراء المتیمین، و صاحبته میة بنت مقاتل المنقری، و کانت جمیلة، و کان هو دمیما أسود، و سمعت تشبیبه بها، و لم تره ثم رأته، فقالت: «وا سوأتاه» فغضب، و هجاها. مات سنة (۱۱۷). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۱/ ۴۰۴، و خزانة الأدب ۱/ ۵۱. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۴ للجنّ باللیل فی حافاتها زجل کما تناوح یوم الرّیح عیثوم دویّة و دجی لیل کأنهما یمّ تراطن فی حافاته الروم و قال أیضا: و کم عرّست بعد النوی من معرّس لها من کلام الجن أصوات سامر و قال: و رمل عزیف الجن فی عقباته هزیز کتضراب المغنّین بالطبل و إذا کان القوم یعتقدون کلام الجن و مخاطباتهم، و یحکون عنهم، و ذلک القدر المحکی لا یزید أمره علی فصاحة العرب، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه، کعجز الإنس. و یبین ذلک من القرآن أن اللّه تعالی حکی عن الجن ما تفاوضوا فیه من القرآن، فقال: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا، فَلَمَّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ «۱» إلی آخر ما حکی عنهم فیما یتلوه. فإذا ثبت أنه وصف کلامهم، و وافق ما یعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن یوصف الشیء المألوف بأنه ینحط عن درجة القرآن فی الفصاحة. و هذان الجوابان أسدّ عندی من جواب بعض المتکلمین عنه؛ بأن عجز الإنس عن القرآن یثبت له حکم الإعجاز، فلا یعتبر غیره. أ لا تری أنه لو عرفنا من طریق المشاهدة عجز الجن عنه، فقال لنا قائل: فدلوا علی أن الملائکة تعجز عن الإتیان بمثله، لم یکن لنا فی الجواب غیر هذه الطریقة التی قد بیناها. و إنما ضعّفنا هذا الجواب؛ لأن الذی حکی و ذکر عجز الجن و الإنس عن الإتیان بمثله، فیجب أن نعلم عجز الجن عنه کما علمنا عجز الإنس عنه. و لو کان وصف عجز الملائکة عنه لوجب أن نعرف ذلک أیضا بطریقه فإن قیل: أنتم قد انتهیتم إلی ذکر الإعجاز فی التفاصیل، و هذا الفصل إنما یدل علی الإعجاز فی الجملة. قیل هذا: کما أنه یدل علی التفصیل أیضا. فصح أن یلحق هذا القبیل، کما کان یصح أن یلحق بباب الجمل. و معنی سادس: و هو أن الذی ینقسم علیه الخطاب، من البسط و الاقتصار، و الجمع، و التفریق «۲»، و الاستعارة و التصریح، و التجوز و التحقیق، و نحو ذلک من الوجوه التی توجد

(_____ ۱) آیة (۲۹) سورة الأحقاف. (۲) قال السیوطی فی «الاتقان» ۱/ ۲۷۵، «هو أن تدخل شیئین فی معنی، و تفرق بین جهتی الإدخال. و جعل منه الطیبی قوله: «اللّه یتوفی الأنفس حین موتها» الآیة. جمع النفسین فی حکم التوفی، ثم فرق بین جهتی التوفی بالحکم بالإمساک و الإرسال. أی: اللّه یتوفی بالإمساک و الإرسال. أی: اللّه یتوفی الأنفس التی تقبض و التی لم تقبض، فیمسک إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۵ فی کلامهم، موجود فی القرآن. و کل ذلک مما یتجاوز حدود کلامهم المعتاد بینهم فی الفصاحة و الإبداع و البلاغة. و قد ضمّنا بیان ذلک بعد؛ لأن الوجه هاهنا ذکر المقدمات دون البسط و التفصیل. و معنی سابع: و هو أن المعانی التی تتضمن فی أصل وضع الشریعة و الأحکام و الاحتجاجات فی أصل الدین، و الرد علی الملحدین علی تلک الألفاظ البدیعة، و موافقة بعضها بعضا فی اللطف و البراعة، مما یتعذر علی البشر، و یمنع ذلک أنه قد علم أن تخیر الألفاظ للمعانی المتداولة المألوفة، و الأسباب الدائرة بین الناس، أسهل و أقرب من تخیّر الألفاظ لمعان مبتکرة، و أسباب مؤسسة مستحدثة. فلو أبرع اللفظ فی المعنی البارع، کان ألطف و أعجب من أن یوجد اللفظ البارع فی المعنی المتداول المتکرر، و الأمر المتقرر المتصور. ثم إن أضیف ذلک التصرف البدیع فی الوجوه التی تتضمن تأیید ما یبتدأ تأسیسه، و یراد تحقیقه، بان التفاضل فی البراعة و الفصاحة. ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنی، و المعانی وفقها، لا یفضل أحدهما علی الآخر، فالبراعة أظهر، و الفصاحة أتم. و معنی ثامن: و هو أن الکلام یبین فضله و رجحان فصاحته؛ بأن نذکر منه الکلمة فی تضاعیف کلام، أو نقذف ما بین شعر فتأخذه الأسماع، و تتشوف إلیه النفوس و یری وجه رونقه بادیا غامرا سائر ما یقرن به، کالدرّة التی تری فی سلک من خرز، و کالیاقوتة فی واسطة العقد. و أنت تری الکلمة من القرآن یتمثل بها فی تضاعیف کلام کثیر. و هی غرة جمیعه، و واسطة عقده، و المنادی علی نفسه بتمییزه و تخصصه برونقه، و جماله و اعتراضه فی جنسه و مائه. و هذا الفصل أیضا مما یحتاج فیه إلی تفصیل و شرح و نص لیتحقق ما ادعیناه منه. و لو لا هذه الوجوه التی بیّناها لم یتحیر فیه أهل الفصاحة، و

لکانوا یفزعون إلی التعمل للمقابلة، و التصنع للمعارضة، و کانوا ینظرون فی أمرهم، و یراجعون أنفسهم. أو کان یراجع بعضهم بعضا فی معارضته، و یتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلک، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة، إنما عدلوا عن هذه الأمور لعلمهم بعجزهم عنه، و قصور فصاحتهم دونه. و لا یمتنع أن یلتبس علی من لم یکن بارعا فیهم و لا متقدما فی الفصاحة منهم هذه الحال، حتی لا یعلم إلا بعد نظر و تأمل، و حتی یعرف حال عجز غیره. إلا أنا رأینا صنادیدهم و أعیانهم و وجوههم سلموا و لم یشتغلوا بذلک تحققا بظهور العجز و تبینا له

الأولی و یرسل الأخری». إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۶ و أما قوله تعالی حکایة عنهم: قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «۱» فقد یمکن أن یکونوا کاذبین فیما أخبروا به عن أنفسهم، و قد یمکن أن یکون هذا الکلام إنما خرج منهم و هو یدل علی عجزهم. و لذلک أورده اللّه مورد تقریعهم، لأنه لو کانوا علی ما وصفوا به أنفسهم لکانوا یتجاوزون الوعد إلی الإنجاز، و الضمان إلی الوفاء. فلما لم یستعملوا ذلک مع استمرار التحدی، و تطاول زمان الفسحة فی إقامة الحجة علیهم بعجزهم. إذ لو کانوا قادرین علی ذلک، لم یقتصروا علی الدعوی فقط. و معلوم من حالهم و حمیتهم أن الواحد منهم یقول فی الحشرات، و الهوام، و الحیات. و فی وصف الأزمة و الاتساع و الأمور التی لا یؤبه لها، و لا یحتاج إلیها، و یتنافسون فی ذلک أشد التنافس، و یتبجحون به أشد التبجح، فکیف یجوز أن تمکنهم معارضته فی هذه المعانی الفسیحة، و العبارات الفصیحة، مع تضمن المعارضة تکذیبه و الذب عن أدیانهم القدیمة، و إخراجهم أنفسهم من تسفیهه رأیهم، و تضلیله إیاهم، و التخلص من منازعته، ثم من محاربته و مقارعته، ثم لا یفعلون شیئا من ذلک، و إنما یحیلون أنفسهم علی التعالیل و یعللونها بالأباطیل. و معنی تاسع: و هو أن الحروف التی بنی علیها کلام العرب تسعة و عشرون حرفا، و عدد السور التی افتتح فیها بذکر الحروف ثمان و عشرون سورة، و جملة ما ذکر من هذه الحروف فی أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، و هو أربعة عشر حرفا لیدل بالمذکور علی غیره، و لیعرفوا أن هذا الکلام منتظم من الحروف التی ینظمون بها کلامهم، و الذی ینقسم إلیه هذه الحروف علی ما قسمه أهل العربیة و بنوا علیها وجوهها أقسام نحن ذاکروها. فمن ذلک أنهم قسموها إلی حروف مهموسة و أخری مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، و هی الحاء، و الهاء، و الخاء، و الکاف، و الشین، و الثاء، و الفاء، و التاء، و الصاد، و السین. و ما سوی ذلک من الحروف فهی مجهورة. و قد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذکورة فی جملة الحروف المذکورة فی أوائل السور، و کذلک نصف الحروف المجهورة علی السواء، لا زیادة و لا نقصان. و المجهور معناه: أنه حرف أشبع الاعتماد فی موضعه، و منع أن یجری معه، حتی ینقضی الاعتماد. و یجری الصوت و المهموس کل حرف ضعف الاعتماد فی موضعه، حتی جری معه النفس. و ذلک مما یحتاج إلی معرفته لتبتنی علیه أصول العربیة. و کذلک مما یقسمون إلیه الحروف. یقولون إنها علی ضربین: أحدهما حروف

(۱) آیة (۳۱) سورة الأنفال. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۷ الحلق، و هی ستة أحرف: العین، و الحاء، و الهمزة، و الهاء، و الخاء، و الغین. و النصف من هذه الحروف مذکور فی جملة الحروف التی تشتمل علیها الحروف المبینة فی أوائل السور. و کذلک النصف من الحروف التی لیست بحروف الحلق. و کذلک تنقسم هذه الحروف إلی قسمین آخرین: أحدهما حروف غیر شدیدة، و إلی الحروف الشدیدة، و هی التی تمنع الصوت أن یجری فیه و هی: الهمزة، و القاف، و الکاف، و الجیم، و الظاء، و الذال، و الطاء، و الباء. و قد علمنا أن نصف هذه الحروف أیضا هی مذکورة فی جملة تلک الحروف التی بنی علیها تلک السور، و من ذلک الحروف المطبقة، و هی أربعة أحرف، و ما سواها منفتحة فالمطبقة: الطاء، و الظاء، و الضاد، و الصاد. و قد علمنا أن نصف هذه فی جملة الحروف المبدوء بها فی أوائل السور. و إذا کان القوم الذین قسموا فی الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم فی ترتیب العربیة و تنزیلها بعد الزمان الطویل من عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و رأوا مبانی اللسان علی هذه الجهة. و قد نبه بما ذکر فی أوائل السور علی ما لم یذکر علی حد التصنیف الذی وصفنا، دل علی أن وقوعها الموقع الذی یقع التواضع علیه بعد العهد الطویل لا یجوز أن یقع إلا من اللّه عز و جل. لأن ذلک یجری

مجری علم الغیوب. و إن کان إنما نبهوا علی ما بنی علیه اللسان فی أصله، و لم یکن لهم فی التقسیم شیء، و إنما التأثیر لمن وضع أصل اللسان. فذلک أیضا من البدیع الذی یدل علی أن أصل وضعه وقع موقع الحکمة التی یقصر عنها اللسان. فإن کان أصل اللغة توقیفا فالأمر فی ذلک أبین. و إن کان علی سبیل التواضع، فهو عجیب أیضا؛ لأنه لا یصح أن تجتمع هممهم المختلفة علی نحو هذا إلا بأمر من عند اللّه تعالی. و کل ذلک یوجب إثبات الحکمة فی ذکر هذه الحروف علی حد یتعلق به الإعجاز من وجه، و قد یمکن أن تعاد فاتحة کل سورة لفائدة تخصها فی النظم إذا کانت حروفا کنحو (الم) لأن الألف المبدوء بها هی أقصاها مطلعا، و اللام متوسطة، و المیم متطرفة. لأنها تأخذ فی الشفة، فنبه بذکرها علی غیرها من الحروف. و بین أنه إنما أتاهم بکلام منظوم، بما یتعارفون من الحروف التی تردد بین هذین الطرفین. و یشبه أن یکون التصنیف وقع فی هذه الحروف دون الألف لأن الألف قد تلغی، و قد تقع الهمزة و هی موقعا واحدا. و معنی عاشر: و هو أنه سهّل سبیله، فهو خارج عن الوحشیّ المستکره، و الغریب المستنکر، و عن الصنعة المتکلّفة. و جعله قریبا إلی الأفهام، یبادر معناه لفظه إلی القلب، و یسابق المغزی منه عبارته إلی النفس، و هو مع ذلک ممتنع المطلب، عسیر المتناول، غیر مطمع مع قربه فی نفسه، و لا- موهم مع دنوّه فی موقعه، أن یقدر علیه، أو یظفر به. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۸ فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلی رتبة الکلام المبتذل، و القول المسفسف، فلیس یصحّ أن تقع فیه فصاحة أو بلاغة، فیطلب فیه التمنع، أو یوضع فیه الإعجاز. و لکن لو وضع فی وحشی مستکره، أو غمر بوجوه الصنعة، و أطبق بأبواب التعسف و التکلف، لکان لقائل أن یقول فیه: و یعتذر و یعیب و یقرع. و لکنه أوضح مناره، و قرب منهاجه، و سهل سبیله، و جعله فی ذلک متشابها متماثلا. و بین مع ذلک إعجازهم فیه. و قد علمت أن کلام فصحائهم، و شعر بلغائهم، لا ینفک من تصرف فی غریب مستنکر، أو وحشی مستکره، و معان مستبعدة. ثم عدولهم إلی کلام مبتذل وضیع، لا یوجد دونه فی الرتبة. ثم تحولهم إلی کلام معتدل بین الأمرین، متصرف بین المنزلتین، فمن شاء أن یتحقق هذا نظر فی قصیدة امرئ القیس «۱»: «قفا نبک من ذکری حبیب و منزل» «۲». و نحن نذکر بعد هذا علی التفصیل، ما یتصرف إلیه هذه القصیدة و نظائرها و منزلتها من البلاغة، و نذکر وجه فوت نظم القرآن محلها، علی وجه یؤخذ بالید و یتناول من کتب، و یتصور فی النفس کتصور الأشکال، لیبین ما ادعیناه من الفصاحة العجیبة للقرآن. و اعلم أن من قال من أصحابنا إن الأحکام معللة بعلل موافقة مقتضی العقل، جعل هذا وجها من وجوه الإعجاز، و جعل هذه الطریقة دلالة فیه کنحو ما یعللون به الصلاة، و معظم الفروض و أصولها. و لهم فی کثیر من تلک العلل طرق قریبة، و وجوه تستحسن. و أصحابنا من أهل خراسان یولعون بذلک. و لکن الأصل الذی یبنون علیه عندنا غیر مستقیم، و فی ذلک کلام یأتی فی کتابنا فی الأصول. و قد یمکن فی تفاصیل ما أوردنا من المعانی الزیادة و الإفراد، فإنا جمعنا بین أمور و ذکرنا المزیة المتعلقة بها، و کل واحد من تلک الأمور مما قد یمکن اعتقاده فی إظهار الإعجاز فیه. فإن قیل: فهل تزعمون أنه معجز لأنه حکایة لکلام القدیم سبحانه، أو لأنه عبارة عنه، أو لأنه قدیم فی نفسه، قیل: لسنا نقول بأن الحروف قدیمة، فکیف یصح الترکیب علی الفاسد؟ و لا- نقول أیضا إن وجه الإعجاز فی نظم القرآن أنه حکایة عن الکلام القدیم. لأنه لو

(_____ ۱) سبقت ترجمته. (۲) صدر البیت الأول من معلقته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۹ کان کذلک لکانت التوراة و الإنجیل، و غیرهما من کتب اللّه عز و جل، معجزات فی النظم و التألیف. و قد بینا أن إعجازها فی غیر ذلک. و کذلک کان یجب أن تکون کل کلمة مفردة معجزة بنفسها، و متفردها، و قد ثبت خلاف ذلک. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۰

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن فأما الفصل الذی بدأنا بذکره من الإخبار عن الغیوب، و الصدق، و الإصابة فی ذلک کله، فهو کقوله تعالی: قُلْ لِلْمُخَلَّفِینَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلی قَوْمٍ أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ «۱» فأغزاهم أبو بکر «۲»، و

عمر «۳» رضی اللّه عنهما، إلی قتال العرب و الفرس و الروم. و کقوله: الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ فِی بِضْعِ سِنِینَ «۴»، و راهن أبو بکر الصدیق رضی اللّه عنه فی ذلک، و صدق اللّه وعده. و کقوله فی قصة أهل بدر: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ «۵» و کقوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ «۶». و کقوله: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ «۷» فی قصة أهل بدر و کقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً «۸» و صدق اللّه تعالی وعده فی کل ذلک، و قال فی قصة المتخلفین عنه فی غزوته: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ

(_____ ۱) آیة (۱۶) سورة الفتح. (۲) سبقت ترجمته. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آیة (۱: ۴) سورة الروم. (۵) آیة (۴۵) سورة القمر. (۶) آیة (۲۷) سورة الفتح. (۷) آیة (۵) سورة الأنفال. (۸) آیة (۵۵) سورة النور. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۱ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِیَ عَدُوًّا «۱» فحق ذلک کله و صدق و لم یخرج من المخالفین الذین خوطبوا بذلک معه أحد. و کقوله: لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ «۲» و کقوله: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ «۳» فامتنعوا من المباهلة و لو أجابوا إلیها اضطرمت علیهم الأودیة نارا، علی ما ذکر فی الخبر. و کقوله: قُلْ إِنْ کانَتْ لَکُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ. وَ لَنْ یَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ «۴» و لو تمنوه لوقع بهم هذا و ما أشبهه. و أما الوجه الثانی: الذی ذکرناه من إخباره عن قصص الأولین، و سیر المتقدمین، فمن العجیب الممتنع علی من لم یقف علی الأخبار، و لم یشتغل بدرس الآثار، و قد حکی فی القرآن تلک الأمور حکایة من شهدها، و حضرها. و لذلک قال اللّه تعالی: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «۵» و قال: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ وَ ما کُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِینَ «۶» و قال: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَیْنا وَ لکِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ «۷» فبین وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة. و قال: تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هذا «۸» الآیة. فأما الکلام فی الوجه الثالث: و هو الذی بیناه من الإعجاز الواقع فی النظم و التألیف و الرصف، فقد ذکرنا من هذا الوجه وجوها منها أنا قلنا: إنه نظم خارج عن جمیع وجوه النظم المعتاد فی کلامهم، و مباین لأسالیب خطابهم. و من ادعی ذلک لم یکن له بد من أن یصحح أنه لیس من قبیل الشعر، و لا السجع، و لا الکلام الموزون غیر المقفی، لأن قوما

(_____ ۱) آیة (۸۳) سورة التوبة. (۲) آیة (۲۳) سورة التوبة. (۳) آیة (۶۱) سورة آل عمران. (۴) آیة (۹۴، ۹۵) سورة البقرة. (۵) آیة (۶) سورة العنکبوت. (۶) آیة (۴۴) سورة القصص. (۷) آیة (۴۶) سورة القصص. (۸) آیة (۴۹) سورة هود. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۲ من کفار قریش ادعوا أنه شعر، و من الملحدة من یزعم أن فیه شعرا، و من أهل الملة من یقول: إنه کلام مسجّع، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، و منهم من یدعی أنه کلام موزون، فلا یخرج بذلک عن أصناف ما یتعارفونه من الخطاب. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۳

فصل: فی نفی الشعر من القرآن

فصل: فی نفی الشعر من القرآن قد علمنا أن اللّه تعالی نفی الشعر من القرآن، و عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ «۱» و قال فی ذم الشعراء: وَ الشُّعَراءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وادٍ یَهِیمُونَ «۲» إلی آخر ما وصفهم به فی هذه الآیات فقال: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ «۳» و هذا یدل علی أن ما حکاه عن الکفار، من قولهم إنه شاعر، و إن هذا شعر، لا بد من أن یکون محمولا- علی أنهم نسبوه فی القرآن إلی أن الذی أتاهم به هو من قبیل الشعر الذی یتعارفونه علی الأعاریض المحصورة المألوفة؛ أو یکون محمولا- علی ما کان یطلق الفلاسفة علی حکمائهم و أهل الفطنة منهم فی وصفهم إیاهم

بالشعر، لدقة نظرهم فى وجوه الكلام، و طرق لهم فى المنطق. و إن كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة، أو يكون محمولا على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم فى معرفة أوزان الشعر، و هذا أبعد الاحتمالات. فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا؛ و ذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره. و إذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه فى رأيهم و عندهم أقدر فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب. فإن زعم زاعم أنه قد وجد فى القرآن شعرا كثيرا، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام، أو أبيات تامة، و منه ما يزعمون أنه مصراع كقول القائل: «قد قلت لما حاولوا سلوتى هيهات هيهات لما توعدون» و مما يزعمون أنه بيت قوله سبحانه: وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ «۴». قالوا هو من الرمل من البحر الذى قيل فيه: «ساكن الريح نطوف ال مزن منحلّ العزالى (_____» ۱) آية (۶۹) سورة يس. (۲) آية (۲۲۴- ۲۲۵) سورة الشعراء. (۳) آية (۴۱) سورة الحاقة. (۴) آية (۱۳) سورة سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۴ و كقوله: وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ «۱» كقوله الشاعر من بحر الخفيف: «كل يوم بشمسه و غد مثل أمسه» و كقوله عز و جل: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «۲». و كقوله: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا «۳» و يشبعون حركة الميم فيزعمون أنه من الرجز، و ذكر عن أبى نواس «۴» أنه ضمن ذلك شعرا و هو قوله: و فتية فى مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا- «دانية عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلا» و قوله عز و جل: وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ «۵». زعموا أنه من الوافر كقوله الشاعر: لنا غنم نسوّقها غزار كأنّ قرون جلّتها عصىّ و كقوله عز و جل: أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ «۶» ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل و قال: فذاك الذى. و شعره: و قرا معلنا ليصدع قلبى و الهوى يصدع الفؤاد السقيما أ رأيت الذى يكذب بالدى ن فذاك الذى يدعّ اليتيما و هذا من الخفيف كقول الشاعر: و فؤادى كعهده بسليمى يهوى لم يحل و لم يتغيّر و كما ضمنه فى شعره من قوله: «سبحان من سخر هذا لنا «حقا» و ما كنا له مقرنين» فزاد فيه حتى انتظم له الشعر، و كما يقولونه فى قوله عز و جل: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً* فَالْمُورِياتِ قَدْحاً «۷» و نحو ذلك فى القرآن كثير كقوله: وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً فَالْحامِلاتِ (_____ ۱) آية (۱۸) سورة فاطر. (۲) آية (۲، ۳) سورة الطلاق. (۳) آية (۱۴) سورة الإنسان. (۴) أبو نواس هو: الحسن بن هانئ، ولد فى «الأهواز» سنة (۱۴۵) فى خلافة أبى جعفر المنصور، و قبل أن يتجاوز السنة الثانية من عمره انتقل والداه إلى البصرة فنشأ فيها. مات سنة (۱۹۸). له ترجمة فى: الأغانى ۲/ ۱۸، و وفيات الأعيان ۱/ ۱۳۵، و الفهرست (۱۶۰). (۵) آية (۱۴) سورة التوبة. (۶) آية (۱۴، ۱۵) سورة الماعون. (۷) آية (۱، ۲) سورة العاديات. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۵ وِقْراً. فَالْجارِياتِ يُسْراً «۱» و هو عندهم شعر من بحر البسيط. و الجواب عن هذه الدعوى التى ادعوها من وجوه أولها أنّ الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرا، و لم يروه خارجا عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخر لهم، سهل عليهم، فيه ما قد علمت من التصرف العجيب و الاقتدار اللطيف. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك و لا عولوا عليه، علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدره الضعفاء فى الصنعة، و المرملون فى هذا الشأن. و إن استدراك من يجىء الآن على فصحاء قريش، و شعراء العرب قاطبة فى ذلك الزمان، و بلغائهم و خطبائهم و زعمه أنه قد ظفر بشعر فى القرآن ذهب أولئك النفر عنه، و خفى عليهم شدة حاجاتهم إلى الطعن فى القرآن و الغض عنه و التوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه. فلن يجوز أن يخفى على أولئك و أن يجهلوه و يعرفه من جاء الآن و هو بالجهل حقيق. و إذا كان كذلك علم أن الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال شديد، و هو أنهم قالوا: إن البيت الواحد و ما كان على وزنه لا يكون شعرا، و أقل الشعر بيتان فصاعدا. و إلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام. و قالوا أيضا: إن ما كان وزن بيتين، إلا أنه يختلف رويهما و قافيتهما، فليس بشعر. ثم منهم من قال: إن الرجز ليس بشعر أصلا، لا سيما إذا كان مشطورا، أو منهوكا. و كذلك ما كان يقارنه فى قلة الأجزاء. و على هذا يسقط السؤال. ثم يقولون: إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه على الطريق الذى يتعمد و يسلك، و لا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوى فيه العامىّ و الجاهل، و العالم بالشعر و اللسان و تصرفه. و ما يتفق من كل واحد،

فليس يكتسب اسم الشعر، و لا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء. لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر، و ينتظم انتظامه، أ لا ترى أن العامى قد يقول لصاحبه: أغلق الباب و ائتنى بالطعام، و يقول الرجل لأصحابه: أكرموا من لقيتم من تميم. و متى تتبع الإنسان هذا، عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله، و أكثر منه. و هذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة، إذ لم تعلم فيه حقيقة

(۱) آية (۱: ۳) سورة الذاريات. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۶ الأخذ، كقول امرئ القيس «۱»: وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجلد «۲» و مثل هذا كثير. فإذا صح مثل ذلك فى بعض البيت، و لم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقا غير مقصود إليه. فإذا اتفق، لم يكن شعرا. و كذلك يمتنع التوارد على بيتين، و كذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين و نحوهما، فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرا، و إنما يعد شعرا ما إذا قصده صاحبه، تأتى له و لم يمتنع عليه. فإذا كان هو مع قصده، لا يتأتى له، و إنما يعرض فى كلامه عن غير قصد إليه، لم يصح أن يقال إنه شعر، و لا أن صاحبه شاعر، و لا يصح أن يقال: إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر، فيجب أن يكون شعرا؛ لأنه لو قصده لكان يتأتى منه. و إنما لم يصح ذلك؛ لأن ما ليس بشعر، فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد. و ما كان شعرا من أحد من الناس، كان شعرا من كل أحد. أ لا ترى أن السوقىّ قد يقول أسقنى الماء يا غلام سريعا؟ قد يتفق ذلك مع الساهى، و من لا يقصد النظم. فأما الشعر إذا بلغ الحد الذى بيّنا، فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه. فأما الرجز فإنه يعرض فى كلام العوام كثيرا. فإذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر. و قد قيل إنّ أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها. و لم يتفق ذلك فى القرآن بحال. فأما دون أربعة أبيات منه، أو ما يجرى مجراه فى قلة الكلمات، فليس بشعر. و ما اتفق فى ذلك من القرآن مختلف الروى. و يقولون إنه متى اختلف الروى خرج من أن يكون شعرا. و هذه الطرق التى سلكوها فى الجواب معتمدة، أو أكثرها. و لو كان ذلك شعرا، لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، و أهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم. فإن قيل: فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر، و إن كان غير مقفى، بل هو مزاوج، متساوى الضروب، و ذلك آخر أقسام كلام العرب. قيل: من سبيل الموزون من كلام، أن يتساوى أجزاءه فى الطول و القصر و السواكن و الحركات. فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونا

(۱) سبقت ترجمته. (۲) بيت من معلقته الشهيرة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۷ كقوله: «رب أخ كنت به مغتبطا أشدّ كفّى بعرى صحبته تمسكا منى بالود و لا أحسبه يزهد فى ذى أمل تمسكا منى بالود و لا أحسبه بغير العهد و لا يحول عنه أبدا فخاب فيه أملى» و قد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل، بل هذا قبيل غير ممدوح، و لا مقصود من جملة الفصيح. و ربما كان عندهم مستنكرا، بل أكثره على ذلك. و كذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا، و هو الذى شرطنا فيه التعادل و التساوى فى الأجزاء، غير الاختلاف الواقع فى التقفية، و يبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذى بيّنا، و تتم فائدته بالخروج منه. و أما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۸

فصل: فى نفى السجع من القرآن

فصل: فى نفى السجع من القرآن ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع من القرآن. و ذكره أبو الحسن «۱» الأشعرى فى غير موضع من كتبه. و ذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن، و زعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام. و أنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان، و الفصاحة كالتجنيس، و الالتفات و ما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة. و أقوى ما يستدلون

به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، و لمكان السجع قيل فى موضع هارُونَ وَ مُوسى «۲» و لما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو و النون قبل مُوسى وَ هارُونَ «۳» قالوا: هذا لا يفارق أمر الشعر؛ لأنه لا يجوز أن يقع فى الخطاب إلا مقصودا إليه. و إذا وقع غير مقصود إليه، كان دون القدر الذى يسمى شعرا. و ذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم، كما يتفق وجوده من الشاعر. و أما ما فى القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه. و يبنون الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع. قال أهل اللغة «هو موالاة الكلام على وزن واحد». قال ابن دريد «۴»: «سجعت الحمامة معناها رددت صوتها». و أنشد:

طربت فأبكتك الحمام السواجع تميل بها ضحوا غصون نوائع النوائع الموائل، من قولهم جائع نائع أى متمايل ضعفا. و هذا الذى

يزعمونه غير (_____ ۱) أبو الحسن الأشعرى

هو: على بن إسماعيل بن إسحاق الأشعرى، من ولد أبى موسى الأشعرى، صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. مات سنة (۳۲۴). له ترجمة فى: تاريخ بغداد ۱۱/ ۳۴۶، و وفيات الأعيان ۳/ ۲۸۴، و شذرات الذهب ۲/ ۳۰۳. (۲) آية (۷۰) سورة طه. (۳) آية (۱۲۲) سورة الأعراف. (۴) ابن دريد هو: أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى، ولد بالبصرة، و نشأ و تعلم فيها، و قد نبغ فى اللغة، و كان من أكابرها، مقدما فيها. مات سنة (۳۲۱). له ترجمة فى: تاريخ بغداد ۲/ ۱۹۵، و شذرات الذهب ۲/ ۲۸۹، و وفيات الأعيان ۱/ ۴۹۷. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۹ صحيح. و لو كان القرآن سجعا، لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، و لو كان داخلا فيها، لم يقع بذلك إعجازا. و لو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز. و كيف و السجع مما كان يألفه الكهان من العرب، و نفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تنافى النبوات، و ليس كذلك الشعر. و قد روى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال للذين جاءوا و كلموه فى شأن الجنين: كيف ندى من لا أكل و لا شرب و لا صاح. فاستهل: أ ليس دمه قد يطل؟ فقال: «أ سجاعة كسجاعة الجاهلية؟ و فى بعضها أ سجعا كسجع الكهان» «۱»؟ فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون فى دلالته، و الذى يقدرونه أنه سجع فهو و هم، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع، و إن لم يكن سجعا، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع، و ليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن. لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى. و فصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه، و بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ. و متى ارتبط المعنى بالسجع، كانت إفادة السجع كإفادة غيره. و متى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى. فإن قيل: فقد يتفق فى القرآن ما يكون من القبيلين جميعا، فيجب أن تمسّوا أحدهما سجعا. قيل: الكلام فى تفصيل هذا خارج عن عرض كتابنا، و إلا كنا نأتى على فصل فصل من أول القرآن إلى آخره، و نبين فى الموضع الذى يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى. و لكنه خارج عن غرض كتابنا، و هذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين. ثم إن سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدودة، و زعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة فى الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، و هى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام. و زعم أن الوجه فى ذلك أنه من باب الفواصل. أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، و أن ذلك إذا اعترض فى الخطاب لم يعد سجعا، على ما قد بينا من القليل من الشعر كالبيت الواحد، و المصراع، و البيتين من الرجز. و نحو ذلك يعرض فيه فلا يقال إنه شعر؛ لأنه لا يقع مقصودا إليه، و إنما يقع مغمورا فى الخطاب. فكذلك حال السجع، الذى يزعمونه و يقدرونه. و يقال لهم: لو كان الذى فى القرآن

(_____ ۱) النسائى ۸/ ۵۲، و الطبرانى ۱۷/ ۱۴۲، و المجمع ۶/ ۳۰۰، و عزاه إلى الأخير من طريق محمد بن سليمان بن مسمول، و هو ضعيف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۰

على ما تقدرونه سجعا، لكان مذموما مرذولا؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، و اختلفت طرقه، كان قبيحا من الكلام. و للسجع منهج مرتب، محفوظ، و طريق مضبوط، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه، و نسب إلى الخروج عن الفصاحة. كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود، كان مخطئا، و كان شعره مرذولا، و ربما أخرجه عن كونه شعرا. و قد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا،

متقارب الفواصل، متدانی المقاطع، و بعضها مما یمتد حتی یتضاعف طوله علیه. و ترد الفاصلة علی ذلک الوزن الأول بعد کلام کثیر. و هذا فی السجع غیر مرضی، و لا محمود. فإن قیل: متی خرج السجع المعتدل إلی نحو ما ذکرتموه، خرج من أن یکون سجعا. و لیس علی المتکلم أن یلتزم بأن یکون کلامه کله سجعا. بل یأتی به طورا، ثم یعدل عنه إلی غیره، ثم قد یرجع إلیه. قیل: متی وقع أحد مصراعی البیت مخالفا للآخر، کان تخلیطا و خبطا. و کذلک متی اضطرب أحد مصراعی الکلام المسجع و تفاوت کان خبطا. و علم أن فصاحة القرآن غیر مذمومة فی الأصل، فلا یجوز أن یقع فیها نحو هذا الوجه من الاضطراب. و لو کان الکلام الذی هو فی صورة السجع منه، لما تحیروا فیه، و کانت الطباع تدعو إلی المعارضة؛ لأن السجع غیر ممتنع علیهم، بل هو عادتهم. فکیف تنقص العادة بما هو نفس العادة. و هو غیر خارج عنها، و لا ممیز منها. و قد یتفق فی الشعر کلام علی منهاج السجع و لیس بسجع عندهم. و ذلک نحو قول البحتری «۱»: تشکّی الوجی و اللیل ملتبس الدّجی عزیزیة الأنساب مرت نقیعها و قوله: قریب المدی حتی یکون إلی النّدی عدو البنا حتی یکون معالی و رأیت بعضهم یرتکب هذا، فیزعم أنه سجع مداخل، و نظیره من القرآن قوله تعالی: ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ یُخْزِیهِمْ وَ یَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِیهِمْ «۲» و قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِیها فَفَسَقُوا فِیها «۳» و قوله: أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِی

(_____ ۱) البحتری هو: أبو عبادة الولید بن عبید الطائی، ولد بمنبج من أعمال الشام، و تخرج بها، و انتقل إلی العراق فی خدمة المتوکل و وزیره الفتح بن خاقان، و له الحرمة التامة حتی قتلا، فرجع إلی منبج. مات سنة (۲۸۴). له ترجمة فی: شذرات الذهب ۲/ ۱۸۶، و وفیات الأعیان ۲/ ۱۷۵، و الفهرست (۱۶۵). (۲) آیة (۲۷) سورة النحل. (۳) آیة (۱۶) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۱ سَبِیلِهِ «۱» و قوله: وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ رَسُولًا إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ «۲» و قوله: إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی «۳» و لو کان ذلک عندهم سجعا لم یتحیروا فیه ذلک التحیر، حتی سماه بعضهم سحرا، و تصرفوا فیما کانوا یسمونه به، و یصرفونه إلیه، و یتوهمونه فیه. و هم فی الجملة عارفون بعجزهم عن طریقه، و لیس القوم بعاجزین عن تلک الأسالیب المعتادة عندهم، المألوفة لدیهم، و الذی تکلمنا به فی هذا الفصل کلام علی جملة دون التفصیل. و نحن نذکر بعد هذا فی التفصیل، ما یکشف عن مباینة ذلک وجوه السجع. و من جنس السجع المعتاد عندهم قول أبی طالب، لسیف بن ذی یزن «۴»: «انبتک منبتا طابت أرومته، و عزت جرثومته، و ثبت أصله، و بسق فرعه، و نبت زرعه، فی أکرم موطن و أطیب معدن» و ما یجری هذا المجری من الکلام. و القرآن مخالف لنحو هذه الطریقة، مخالفته للشعر، و سائر أصناف کلامهم الدائر بینهم. و لا معنی لقولهم إن ذلک مشتق من ترجید الحمامة صوتها علی نسق واحد، و روی غیر مختلف. لأن ما جری هذا المجری لا یبنی علی الاشتقاق وحده، و لو بنی علیه لکان الشعر سجعا، لأن رویّه یتفق و لا یختلف، و تتردد القوافی علی طریقة واحدة. و أما الأمور التی یستریح إلیها الکلام، فإنها تختلف. فربما کان ذلک یسمی قافیة، و ذلک إنما یکون فی الشعر. و ربما کان ما ینفصل عنده الکلامان یسمی مقاطع السجع. و ربما سمی ذلک فواصل. و فواصل القرآن مما هو مختص بها، لا شرکة بینه و بین سائر الکلام فیها، و لا تناسب. و أما ما ذکروه من تقدیم موسی علی هارون علیهما السلام فی موضع، و تأخیره عنه فی موضع لمکان السجع، و لتساوی مقاطع الکلام، فلیس بصحیح. لأن الفائدة عندنا غیر ما ذکروه. و هی أن إعادة ذکر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدی معنی واحدا من الأمر الصعب الذی تظهر فیه الفصاحة، و تتبین فیه البلاغة. و أعید کثیر من القصص فی مواضع مختلفة علی ترتیبات متفاوتة، و نبهوا بذلک علی عجزهم عن الإتیان بمثله مبتدأ به و مکررا. و لو کان فیهم تمکن من المعارضة لقصدوا تلک القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدی معناها، و تحویها، و جعلوها بإزاء ما جاء به، و توصلوا بذلک إلی تکذیبه و إلی مساواته فیما جاء به (_____ ۱) آیة (۲۴) سورة التوبة. (۲) آیة (۴۸، ۴۹) سورة آل عمران. (۳) آیة (۴) سورة مریم. (۴) ابن ذی أصبح بن مالک بن زید بن سهل بن عمرو بن قیس بن معاویة بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عریب بن زهیر بن أیمن بن الهمیسع ابن العرنجج، و هو: حمیر بن سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۲ کیف و قد قال لهم: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ «۱» فعلی هذا یکون المقصد بتقدیم بعض

الكلمات، و تأخيرها إظهارا للإعجاز على الطريقين جميعا، دون التسجيع الذى توهموه. فإن قال قائل: القرآن مختلط من أول أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم و رسائلهم و سجعهم و موزون كلامهم الذى هو غير مقفى. و لكنه أبدع فيه ضربا من الإبداع لبراعته و فصاحته، قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم، و نثر، و كلام مقفى غير موزون، و نظم موزون، ليس بمقفى، كالخطب و السجع، و نظم مقفى موزون له روىّ، و من هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوله أقرب، و سلوكه لا يتعذر، و منه ما هو أصعب تناولا، كالموزون عند بعضهم، أو الشعر عند الآخرين، و كل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين: إما بتعمل، أو بتكلف و تعلم و تصنع، أو باتفاق من الطبع و قذف من النفس على اللسان للحاجة إليه. و لو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم و يتعرض على ألسنتهم، و تجيش به خواطرهم. و لا ينصرف عند الكل مع شدة الدواعى إليه. و لو كان طريقه التعلم لتصنعوه و لتعلموه فالمهلة لهم فسيحة، و الأمد واسع. و قد اختلفوا فى الشعر كيف اتفق لهم؟ فقد قيل: إنه اتفاق فى الأصل غير مقصود إليه على ما يعرض من أصناف النظام فى تضاعيف الكلام، ثم لما استحسنوه و استطابوه و رأوا أنه تألفه الأسماع و تقبله النفوس، تتبعوه من بعد و تعلموه. و حكى لى بعضهم عن أبى عمر «۲» و غلام ثعلب، عن ثعلب «۳»: أن العرب تعلّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن: «قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل» و يسمون ذلك الوضع الميتر، و اشتقاقه من المتر، و هو الجذب أو القطع، يقال مترت الحبل، بمعنى قطعته أو جذبته. و لم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله، و أما ما وقع السبق إليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولا. و قد يحتمل على قول من قال: بأن اللغة اصطلاح، أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم. و قد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، و أنهم وقفوا على ما ينصرف إليه (

---

۱) آية (۳۴) سورة الطور. (۲) اختلف فى اسمه على أحد و عشرين قولا- أصحها زبان. (۳) ثعلب هو: أبو العباس ثعلب إمام الكوفيين فى النحو و اللغة. و من مصنفاته: معانى القرآن، و معانى الشعر، و القراءات، و غريب القرآن. مات سنة (۲۹۱). له ترجمة فى: بغية الوعاة ۱/ ۳۹۶، و وفيات الأعيان ۱/ ۳۰، و معجم الأدباء ۲/ ۱۳۳، و الفهرست (۷۴). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۳ القول من وجوه التفاصح، أو توافقوا هم بينهم على ذلك، و يمكن أن يقال: إن التواضع وقع على أصل الباب، و كذلك التوقيف، و لم يقع على فنون تصرف الخطاب، و إن اللّه تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، و فطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد و بنوا عليه و طلبوه و رتبوا فيه المحاسن التى يقع الاضطراب بوزنها، و تهش النفوس إليها، و جمع دواعيهم و خواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، و اختيار طرق من تنزيلها. و عرفهم محاسن الكلام و دلهم على كل طريقة عجيبة، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بالقرآن، و القدر الذى يتناهى إليه قدرهم، هو ما لم يخرج عن لغتهم، و لم يشذ من جميع كلامهم. بل قد عرض فى خطابهم و وجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدى و التقريع الشديد، و الحاجة الماسة إليه مع علمهم بطريق وضع النظم و النثر. و تكامل أحوالهم فيه دل على أنه اختص به ليكون دلالة على النبوة و معجزة على الرسالة، و لو لا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا فى الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التى يتصرف إليها الخطاب على براعته و حسن انتظامه، فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه، و التحدى إليه أولى أن يبادروا إليه لو كان لهم إليه سبيل، فلو كان الأمر على ما ذكره السائل، لوجب أن لا- يتحيروا فى أمرهم، و لا- تدخل عليهم شبهة فيما نابهم، و لكانوا يسرعون إلى الجواب، و يبادرون إلى المعارضة. و معلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم و الأسباب التى لا يحتاج إليها، فيكثر فيها من شعر و رجز، و نجد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الإبل و نتاجها. و كثير من أمرها لا فائدة فى الاشتغال به فى دين و لا دنيا. ثم كانوا يتفاخرون باللسن و الذلاقة و الفصاحة و الذرابة، و يتنافرون فيه. و تجرى بينهم فيه الأسباب المنقولة فى الآثار على ما لا- يخفى على أهله. فاستدللنا بتحيّرهم فى أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم، و وقوعه موقعا يخرق العادات، و هذه سبيل المعجزات، فبان بما قلنا إن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الإسجاع، لا يخرجها عن حدها و لا يدخلها فى باب السجع. و قد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، و بعضها تبلغ

کلمات، و لا یرون فی ذلک فصاحة؛ بل یرونه عجزا. فلو رأوا أن ما تلی علیهم من القرآن سجعا، لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزید فی الفصاحة علی طریقة القرآن، و نتجاوز حده فی البراعة و الحسن، و لا- معنی لقول من قدر أنه ترک السجع إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۴ تارة إلی غیره ثم رجع إلیه؛ لأن ما تخلل بین الأمرین یؤذن بأن وضع الکلام غیر ما قدروه من التسجیع لأنه لو کان من باب السجع، لکان أرفع نهایاته و أبعد غایاته، و لا بد لمن جوز السجع فیه و سلک ما سلکوه من أن یسلم ما ذهب إلیه النظام، و عباد بن سلمان، و هشام القرظی، و یذهب مذهبهم فی أنه لیس فی نظم القرآن و تألیفه إعجاز، و أنه یمکن معارضته، و إنما صرفوا عنه ضربا من الصرف، و یتضمن کلامه تسلیم الخبط فی طریقة النظم، و أنه منتظم من فرق شتی، و من أنواع مختلفة ینقسم إلیها خطابهم و لا یخرج عنها، و یستهین ببدیع نظمه و عجیب تألیفه الذی وقع التحدی إلیه، و کیف یعجزهم الخروج عن السجع و الرجوع إلیه. و قد علمنا عادتهم فی خطبهم و کلامهم، أنهم کانوا لا یلزمون أبدا طریقة السجع و الوزن، بل کانوا یتصرفون فی أنواع مختلفة، فإذا ادّعوا علی القرآن مثل ذلک، لم یجدوا فاصلة بین نظمی الکلامین. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۵

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام إن سأل سائل فقال: «هل یمکن أن یعرف إعجاز القرآن من جهة ما یتضمنه من البدیع؟». و قیل: ذکر أهل الصنعة و من صنّف فی هذا المعنی من صفة البدیع ألفاظا نحن نذکرها، ثم نبین ما سألوا عنه، لیکون الکلام واردا علی أمر مبیّن مقرر، و باب مصور. ذکروا أن من البدیع فی القرآن قوله عز ذکره: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ «۱» و قوله: وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۲» و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً «۳» و قوله: وَ آیَةٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ «۴» و قوله: أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ «۵» و قوله: نُورٌ عَلی نُورٍ «۶». و قد یکون البدیع من الکلمات الجامعة الحکیمة کقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصاصِ حَیاةٌ «۷» و فی الألفاظ الفصیحة کقوله: فَلَمَّا اسْتَیْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِیًّا «۸» و فی الألفاظ الإلهیة کقوله: وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ «۹» و قوله: وَ ما بِکُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ «۱۰» و قوله: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «۱۱». و یذکرون من البدیع قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: (خیر الناس رجل ممسک عنان فرسه فی سبیل

(_____ ۱) آیة (۲۴) سورة الإسراء. (۲) آیة (۴) سورة الزخرف. (۳) آیة (۴) سورة مریم. (۴) آیة (۳۷) سورة یس. (۵) آیة (۵۵) سورة الحج. (۶) آیة (۳۵) سورة النور. (۷) آیة (۱۷۹) سورة البقرة. (۸) آیة (۸۰) سورة یوسف. (۹) آیة (۹۱) سورة النمل. (۱۰) آیة (۵۳) سورة النحل. (۱۱) آیة (۱۶) سورة غافر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۶ اللّه، کلما سمع هیعة «۱» طار إلیها) «۲». و قوله: (ربنا تقبل توبتی و اغسل حوبتی) «۳» و قوله: (غلب علیکم داء الأمم قبلکم؛ الحسد و البغضاء، و هی الحالقة، حالقة الدین لا حالقة الشّعر) «۴». و کقوله: (الناس کإبل مائة لا تجد فیها راحلة) «۵». و کقوله: (و هل یکب الناس علی مناخرهم فی نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) «۶». و کقوله: (إن مما ینبت الربیع ما یقتل حبطا أو یلمّ) «۷». و کقول أبی بکر الصدیق «۸» رضی اللّه عنه فی کلام له قد نقلناه بعد هذا علی وجهه، و قوله لخالد بن الولید «۹»: «احرص علی الموت توهب لک الحیاة». و قوله: (فر من الشرف یتبعک الشرف) و کقول علی بن أبی طالب «۱۰» رضی اللّه عنه و کرم اللّه وجهه فی کتابه إلی ابن عباس «۱۱» و هو عامله علی البصرة: «أرغب راغبهم،

(_____ ۱) قوله: «هیعة». قال ابن الأثیر فی «النهایة» ۵/ ۲۸۸: «الهیعة: الصوت الذی تفزع منه و تخافه من عدو، و قد هاع یهیع هیوعا: إذا جبن». (۲) أورده ابن الأثیر فی «النهایة» ۵/ ۲۸۸. (۳) أبو داود فی: الوتر (۲۵)، و الترمذی فی: الدعوات (۱۰۳) و قال: حسن صحیح، و ابن ماجة فی: الدعاء (۲) و أحمد ۱/ ۲۲۷. (۴) الترمذی ۲/ ۸۳، و أحمد ۱/ ۱۶۵ و ۱۶۷، و البیهقی ۱۰/ ۲۳۲، و شرح السنة ۱۲/ ۲۵۹، و الإرواء ۳/ ۲۳۸ و عزاه إلی «البزار» بسند جید. (۵) البخاری فی: الرقاق (۳۵)، و مسلم فی: فضائل الصحابة (۲۳۲)، و الترمذی فی: الأدب (۸۲)، و ابن ماجة فی: الفتن

(۱۶)، و أحمد ۲/ ۷ و ۵۵ و ۷۰ و ۸۸ و ۱۰۹ و ۱۲۱- ۱۲۳ و ۱۳۹. (۶) الترمذی فی: الإیمان (۸)، و ابن ماجة فی: الفتن (۱۲)، و أحمد ۵/ ۲۳۱ و ۲۳۶ و ۲۳۷. (۷) البخاری فی: الجهاد (۳۷) و الرقاق (۷)، و مسلم فی: الزکاة (۱۲۱)، و ابن ماجة فی: الفتن (۱۸)، و أحمد ۳/ ۷ و ۲۱ و ۹۱. (۸) سبقت ترجمته. (۹) خالد بن الولید بن المغیرة أبو سلیمان القرشی المخزومی. أسلم قبل غزوة مؤتة بشهرین، و کان له الأثر العظیم فی قتال أهل الرّدة، و فتوح الشام و العراق. مات سنة (۲۱) بحمص. له ترجمة فی: الریاض المستطابة ص (۶۲- ۶۴). (۱۰) علی بن أبی طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشی الهاشمی المکی ثم المدنی الکوفی. ابن عم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و أقرب العشرة نسبا إلیه. کان أول من أسلم من الصبیان، و أول من هاجر بعد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أبی بکر، و أول من صلی من المسلمین. مات سنة (۴۰). له ترجمة فی: أسد الغابة ۴/ ۹۱. و الإصابة ۲/ ۱۰۵، و تاریخ بغداد ۱/ ۱۳۳. (۱۱) ابن عباس هو: عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب القرشی الهاشمی المکی، و هو حبر الأمة، و ترجمان القرآن. توفی بالطائف سنة (۷۰). له ترجمة فی: أسد الغابة ۳/ ۲۹۰، و الإصابة ۱/ ۳۲۲،- إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۷ و احلل عقدة الخوف عنهم» و قوله حین سئل عن قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: «إنما قال ذلک و الدین فی قلّ، فأما و قد اتسع نطاق الإسلام فکل امرئ و ما اختار». و سأل علی رضی اللّه عنه بعض کبراء فارس عن أحمد ملوکهم عندهم، فقال: «لأردشیر فضیلة السبق، غیر أن أحمدهم أنو شروان» قال: «فأی أخلاقه کان أغلب علیه؟» قال: «الحلم و الإناءة». فقال علی رضی اللّه عنه: «هما توأمان ینتجهما علوّ الهمة». و قال: «قیل کل امرئ ما یحسن» و قال: «العلم قفل و مفتاحه المسألة». و کتب خالد بن الولید إلی مرازبة فارس: «أما بعد، فالحمد للّه الذی فض خدمتکم، و فرق کلمتکم». و الخدمة الحلقة المستدیرة؛ و لذلک قیل للخلاخیل خدام. و قال الحجاج «دلونی علی رجل سمین الأمانة» و لما عقدت الرئاسة لعبد اللّه بن وهب الراسبی علی الخوارج أرادوه علی الکلام فقال: «لا خیر فی الرأی الفطیر» و قال: «دعوا الرأی یغب». و قال أعرابی فی شکر نعمة: «ذاک عنوان نعمة اللّه عز و جل». و وصف أعرابی قوما فقال: «إذا اصطفوا سفرت بینهم السهام، و إذا تصافحوا بالسیوف قعد الحمام» و سئل أعرابی عن رجل فقال: «صفرت عیاب الود بینی و بینه بعد امتلائها و اکفهرت وجوه کانت بمائها». و قال آخر: «من رکب ظهر الباطل نزل دار الندامة». و قیل لرؤبة: «کیف خلفت ما وراءک»؟ فقال: «التراب یابس، و المال عابس». و من البدیع فی الشعر طرق کثیرة قد نقلنا منها جملة لنستدل بها علی ما بعدها، فمن ذلک قول امرئ القیس «۱»: و قد أغتدی و الطیر فی وکناتها بمنجرد قید الأوابد هیکل قوله: «قید الأوابد» عندهم من البدیع، و من الاستعارة. و یرونه من الألفاظ الشریفة. و عنی بذلک أنه إذا أرسل هذا الفرس علی الصید، صار قیدا لها، و کانت بحالة المقید من جهة سرعة إحضاره. و اقتدی به الناس و اتبعه الشعراء، فقیل: قید النواظر، و قید الألحاظ، و قید الکلام، و قید الحدیث، و قید الرهان. و قال الأسود بن یعفر: بمقلص عنز جهیر شدة قید الأوابد و الرهان جواد - _____ و شذرات الذهب ۱/

۷۵. (۱) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۸ و قال أبو تمام «۱»: لها منظر قید الأوابد لم یزل یروح و یغدو فی خفارته الحب و قال آخر: ألحاظه قید عیون الوری فلیس طرف یتعداه و قال آخر: «قید الحسن علیه الحدقا». و ذکر الأصمعی «۲» و أبو عبیدة «۳» و حماد و قبلهم أبو عمرو أنه أحسن فی هذه اللفظة، و أنه أتبع فیها فلم یلحق، و ذکروه فی باب الاستعارة البلیغة، و سماها بعض أهل الصنعة باسم آخر، و جعلوها من باب الإرداف، و هو أن یرید الشاعر دلالة علی معنی فلا یأتی باللفظ الدال علی ذلک المعنی، بل بلفظ هو تابع له و ردف، قالوا و مثله قوله: «نئوم الضحی لم تنتطق عن تفضل» و إنما أراد و ترفهها بقوله: «نئوم الضحی» و من هذا الباب قول الشاعر: بعیدة مهوی القرط إما لنوفل أبوها و إما عبد شمس و هاشم و إنما أراد أن یصف طول جیدها فأتی بردفه، و من ذلک قول امرئ القیس «۴»: «و لیل کموج البحر أرخی سدوله»، و ذلک من الاستعارة الملیحة، و یجعلون من هذا القبیل ما قدمنا ذکره من القرآن وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً «۵» وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ «۶» و مما یعدونه من البدیع التشبیه الحسن کقول امرئ القیس: کأن عیون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذی لم یثقب

(_____ ۱) أبو تمام هو: حبیب بن أوس

الطائی، ولد فی منبج فی بلاد الشام، و جاء مصر صغیرا، و کان یسقی الماء فی الجامع بالفسطاط، ثم جالس الأدباء، و أخذ عنهم و تعلم. مات سنة (۲۳۲). له ترجمة فی: تاریخ بغداد ۸/ ۲۴۸، و مروج الذهب ۷/ ۱۴۷، و وفیات الأعیان ۱/ ۱۲۱. (۲) الأصمعی هو: عبد الملک بن قریب من قیس، و قد اشتهر بکنیته «الأصمعی»، و کان أتقن القوم و أعلمهم بالشعر، و أحضرهم حفظا. مات سنة (۲۱۴). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۱/ ۲۸۸، و الفهرست (۵۵)، و تاریخ بغداد ۱۰/ ۴۱۰. (۳) أبو عبیدة هو: معمر بن المثنی التیمی، کان أجمع سائر الرواة لعلوم العرب و أخبارهم و أنسابهم. مات سنة (۲۰۹). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۲/ ۱۰۵، و الفهرست (۵۳)، و تاریخ بغداد ۱۳/ ۲۵۲. (۴) سبقت ترجمته. (۵) آیة (۴) سورة مریم. (۶) آیة (۲۴) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۹ و قوله: کأن قلوب الطیر رطبا و یابسا لدی و کرها العناب و الحشف البالی و استبدعوا تشبیهه شیئین بشیئین علی حسن تقسیم، و یزعمون أن أحسن ما وجد فی هذا للمحدثین قول بشار «۱»: کأن مثار النقع فوق رءوسنا و أسیافنا لیل تهاوی کواکبه و قد سبق امرؤ القیس إلی صحة التقسیم فی التشبیه، و لم یتمکن بشار إلا من تشبیه إحدی الجملتین بالأخری دون صحة التقسیم و التفصیل. و کذلک عدّوا من البدیع قول امرئ القیس فی أذنی الفرس: و سامعتان یعرف العنق فیهما کسامعتی مذعورة وسط دیرب و اتبعه طرفة «۲» فقال فیه: و سامعتان یعرف العنق فیهما کسامعتی شاة بحومل مفرد و مثله قول امرئ القیس فی وصف الفرس: و عینان کالماویتین و محجر إلی سند مثل الصفیح المنصب و قال طرفة فی وصف عینی ناقته: و عینان کالماویتین استکنتا بکهفی حجابی صخرة قلت مورد و من البدیع فی التشبیه قول امرئ القیس: له أیطلا ظبی و ساقا نعامة و إرخاء سرحان و تقریب تتفل و ذلک فی تشبیه أربعة أشیاء بأربعة أشیاء أحسن فیها. و من التشبیه الحسن فی القرآن قوله تعالی: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ «۳» و قوله تعالی: کَأَنَّهُنَّ بَیْضٌ مَکْنُونٌ «۴» و مواضع نذکرها بعد هذا. و من البدیع فی الاستعارة قول امرئ القیس: و لیل کموج البحر أرخی سدوله علیّ بأنواع الهموم لیبتلی فقلت له لما تمطی بصلبه و أردف إعجازا و ناء بکلکل

(_____ ۱) بشار هو: ابن برد الفارسی، نشأ فی البصرة، ثم قدم بغداد بعد أن بناها المنصور، و ولد أعمی، و کان ضخما طویلا عظیم الخلق و الوجه مجدرا. و کان أطبع الشعراء علی الشعر. مات سنة (۱۱۷) له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۱/ ۸۸ و الفهرست (۱۵۹)، و تاریخ بغداد ۷/ ۱۱۲. (۲) طرفة هو: ابن العبد أبو عمرو. نبغ فی الشعر منذ حداثته، حتی صار یعد من الطبقة الأولی، و توفی صغیر السن سنة (۵۰۰). له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۴۱۴. (۳) آیة (۲۴) سورة الرحمن. (۴) آیة (۴۹) سورة الصافات. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۰ و هذه کلها استعارات أتی بها فی ذکر طول اللیل، و من ذلک قول النابغة «۱»: و صدر أراح اللیل عازب همه تضاعف فیه الحزن من کل جانب فاستعاره من إراحة الراعی إبله إلی مواضعها التی تأوی إلیها باللیل و أخذ منه ابن الدمینة فقال: أقضی نهاری بالحدیث و بالمنی و یجمعنی و الهم و اللیل جامع و من ذلک قول زهیر «۲»: صحا القلب عن لیلی و أقصر باطله و عری أفراس الصبا و رواحله و من ذلک قول امرئ القیس: سموت إلیها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا علی حال و أخذه أبو تمام فقال: «سمو عباب الماء جاشت غواربه»، و إنما أراد امرؤ القیس إخفاء شخصه، و من ذلک قوله: «کأنی و أصحابی علی قرن أعفرا» یرید أنهم غیر مطمئنین. و من ذلک ما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه بن سعید قال: أخبرنی أبی، قال أخبرنا عسل بن ذکوان، أخبرنا أبو عثمان المازنی، قال سمعت الأصمعی یقول: أجمع أصحابنا أنه لم یقل أحسن و لا أجمع من قول النابغة: فإنک کاللیل الذی هو مدرکی و إن خلت أن المنتأی عنک واسع قال الحسن بن عبد اللّه: و أخبرنا محمد بن یحیی، أخبرنا عون بن محمد الکندری، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سمعت الأصمعی یقول: سمعت أبا عمرو یقول: کان زهیر یمدح السوق، و لو ضرب علی أسفل قدمیه مائتا دقل، علی أن یقول کقول النابغة: فإنک کاللیل الذی هو مدرکی و إن خلت أن المنتأی عنک واسع لما قال یرید أنه سلطانه کاللیل یصل إلی کل مکان، و اتبعه الفرزدق «۳» فقال: لو حملتنی الریح ثم طلبتنی لکنت کشیء أدرکتنی مقادره

(_____ ۱) النابغة هو: زیاد بن معاویة

الـذبیانی، أحـد الثلاثـة المقـدمین علی سائر الشـعراء، کان یفـد هو و حسان بن ثابت علی صاحب الحیرة فیمـدحانه، لکن النابغـة کان مقدما علی الجمیع. مات سـنة (۶۰۴ م). له ترجمـة فی: تاریـخ ابن عساکر ۵/ ۴۲۴، و الأغانی ۹/ ۱۶۲. (۲) زهیر بن أبی سـلمی، أحد الثلاثة المقدمین علی سائر الشعراء. مات سنة (۶۱۵ م). له ترجمة فی الأغانی ۹/ ۴۸ و ۱۴۶، و خزانة الأدب ۱/ ۳۷۵، و الشعر و الشعراء (۵۷). (۳) الفرزدق هو: همام بن غالب بن صعصعة. ولد بالبصرة، و أقام فی بادیتها مع أبیه، و ظهرت فیه ملکة الشعر و هو غلام، و لم یکن من مداح بنی أمیة لأنه کان یتشیع لعلی. مات سنة (۱۱۰). له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۱۰۵، و وفیات الأعیان ۲/ ۱۹۶. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۱ فلم یأت بالمعنی و لا اللفظ علی ما سبق إلیه النابغة، ثم أخذه الأخطل «۱» فقال: و إن أمیر المؤمنین و فعله لکالدهر لا عار بما فعل الدهر و قد روی نحو هذا عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: (نصرت بالرعب، و جعل رزقی تحت ظل رمحی، و لیدخلن هذا الدین علی ما دخل علیه اللیل) «۲». و أخذه علی بن ... فقال: و ما لامرئ حاولته عنک مهرب و لو کان فی جوف السماء المطالع بل هارب لا یهتدی لمکانه ظلام و لا ضوء من الصبح طالع و مثله قول سلم الخاسر «۳»: فأنت کالدهر مبثوثا حبائله و الدهر لا ملجأ منه و لا هرب و لو ملکت عنان الریح أصرفه فی کل ناحیة ما فاتک الطلب فأخذه البحتری «۴» فقال: و لو أنهم رکبوا الکواکب لـم یکن ینجیهم من خـوف بأسـک مهرب و من بـدیع الاسـتعارة قـول زهیر «۵»: فلما وردن الماء زرقا حمامه وضـعن عصـی الحاضـر المتخیم و قول الأعشـی: و إن عناق العیس سوف یزورکم ثناء علی إعجازهن معلق و منه أخـذ نصـیب فقال: فعاجوا فاثنوا بالذی أنت أهله و لو سـکتوا أثنت علیک الحقائب و من ذلک قول تأبط شرا «۶»: فخالط سهل الأرض لم یکدح الصفا به کدحة و الموت خزیان ینظر (_____ ۱) الأخطـل هو: غیاث بن غوث بن الصـلت، و الأخطل لقب له. ظهرت الشاعریة فی الأخطل منذ حداثته و کان یشـرب الخمر، و لا یجید النظم إلّا إذا شرب. مات سنة (۹۵). له ترجمـة فی: الأغانی ۷/ ۱۶۹، و خزانة الأدب ۱/ ۲۲۰. (۲) البخاری ۴/ ۴۹، و أحمد ۲/ ۵۰ و ۹۲، و ابن أبی شـیبة ۵/ ۳۱۳ و ۳۲۲. (۳) سـلم الخاسـر هو: سـلم بن عمرو، أحد موالی أبی بکر الصدیق، نشأ بالبصرة، و کان شاعرا مطبوعا متصرفا فی فنون الشعر، و کـان متظاهرا بالخلاعـة و الفسوق و المجون. مات سـنة (۱۸۶). له ترجمـة فی: الأغانی ۲۱/ ۱۱۰، و وفیـات الأعیان ۱/ ۱۹۸، و تاریخ بغداد ۹/ ۱۳۶. (۴) سـبقت ترجمته. (۵) سـبقت ترجمته. (۶) تقـدمت ترجمته. إعجـاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۲ و من الاسـتعارة فی القرآن کثیر کقوله: وَ إِنَّهُ لَـذِکْرٌ لَـکَ وَ لِقَوْمِکَ «۱» یرید ما یکون الذکر عنه شـرفا. و قوله: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً «۲» قیـل دین اللّه أراد و قوله: اشْـتَرَوُا الضَّلالَـةَ بِالْهُـدی فَمـا رَبِحَتْ تِجـارَتُهُمْ «۳» و من البـدیع عنـدهم الغلـو کقـول النمر بن تـولب: أبقی الحوادث و الأیام من نمر إسـناد سـیف قـدیم أثره بادی تظل تحفر عنه إن ضـربت به بعد الذراعین و القدین و الهادی و کقول النابغة «۴»: تقدّ السّـلوقیّ المضاعف نسـجه و یوقدن بالصّـفاح نار الحباحب و کقول عنترة «۵»: فـازورّ من وقع القنا بلبانه و شـکا إلیّ بعبرة و تحمحم و کقول أبی تمام «۶»: لو یعلم الرکن من قد جاء یلثمه لخرّ یلثم منه موطئ القدم و کقول البحتری «۷»: و لو أن مشتاقا تکلف فوق ما فی وسـعه لمشـی إلیک المنبر و من هـذا الجنس فی القرآن: یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیـدٍ «۸» و قوله: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَـمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً «۹» و قوله: تَکادُ تَمَیَّزُ مِنَ الْغَیْظِ «۱۰». و مما یعدونه من البدیع المماثلة و هو ضـرب من الاسـتعارة، و ذلـک أن یقصـد الإشارة إلی معنی فیضع ألفاظا تـدل علیه. و ذلک المعنی بألفاظه مثال للمعنی الـذی قصـد الإشارة إلیه (_____ ۱) آیة (۴۴) سورة الزخرف. (۲) آیة (۸۸) سورة البقرة. (۳) آیة (۱۶) سورة البقرة. (۴) سبقت ترجمته. (۵) عنترة هو: ابن شـداد من قبیلة عبس، و هو من الشـعراء الفرسان الشجعان، و عشق فهاجت شاعریته، و اتسع خیاله. مات سنة (۶۱۵ م). له ترجمة فی: الأغانی ۷/ ۱۴۸، و خزانة الأدب ۱/ ۶۲. (۶) سبقت ترجمته. (۷) سـبقت ترجمتـه. (۸) آیـة (۳۰) سـورة ق. (۹) آیـة (۱۲) سـورة الفرقـان. (۱۰) آیـة (۸) سـورة الملـک. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۳ نظیره من المنثور: أن یزیـد «۱» بن الولیـد: بلغه أن مروان بن محمـد یتلکـأ عن بیعته فکتب إلیه: «أما بعـد، فإنی أراک تقدم رجلا و تؤخر أخری، فاعتمد علی أیتهما شئت» و کنحو ما کتب به الحجاج إلی المهلّب: «فإن أنت فعلت ذاک و إلا

أشرعت إليك الرمح»، فأجابه المهلّب: (فإن أشرع الأمير الرمح قلبت إليه ظهر المجنّ) و كقول زهير: و من يعص أطراف الزّجاج فإنه يطيع العوالى ركّبت كلّ لهذم و كقول امرئ القيس: و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتّل و كقول عمر «۲» بن معديكرب: فلو أنّ قومى أنطقتنى رماحهم نطقت و لكنّ الرماح أجرّت و كقول القائل: بنى عمّنا لا تذكروا الشعر بعد ما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا و كقول الآخر: أقول و قد شدوا لسانى بنسعة أ معشر تيم أطلقوا عن لسانيا و من هذا الباب فى القرآن كقوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ «۳» و كقوله وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ «۴» قال الأصمعى «۵»: «أراد البدن». قال: و تقول العرب: «فدى لك ثوباى يريد نفسه». و أنشد: ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدا لك من أخى ثقة إزارى و يرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة، و أكثرهم على أن معناها أن يذكر الشىء و ضده، كالليل و النهار، و السواد و البياض، و إليه ذهب الخليل «۶» بن أحمد و الأصمعى،

(_____ ۱) له ترجمة فى: تاريخ الخلفاء ص (۲۵۰). (۲) عمرو بن معدى كرب، أدرك الإسلام و أسلم، و جاهد حتى مات فى آخر خلافة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. مات سنة (۶۴۳ م). له ترجمة فى: الأغانى ۱۴/ ۲۵، و خزانة الأدب ۱/ ۴۲۵. (۳) آية (۱۷۵) سورة البقرة. (۴) آية (۴) سورة المدثر. (۵) سبقت ترجمته. (۶) الخليل بن أحمد أبو عبيد الرحمن البصرى الفراهيدى الأزدى، كان من تلامذة أبى عمرو العلاء، و عنه أخذ سيبويه، و هو أول من استخرج علم العروض. مات سنة (۱۸۰ ه). له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۱۷۲، و تاريخ ابن خلدون ۱/ ۴۸۲. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۴ و من المتأخرين؛ عبد اللّه بن المعتز. و ذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور، ما قاله بعضهم: «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا فى ضيق الضمان» و نظيره من القرآن: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ «۱» و قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ «۲» و قوله: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ «۳» و مثله كثير جدا. و كقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للأنصار: «إنكم تكثرون عند الفزع، و تقلون عند الطمع» و قال آخرون: بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، و إليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب، فمن ذلك قول الأفوه «۴» الأودى: و أقطع الهواجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس عنى بالهوجل الأول الأرض و بالثانى الناقة. و مثله قول زياد «۵» الأعجم: و نبّئتهم يستنصرون بكاهل و للّؤم فيهم كاهل و سنام و مثله قول أبى داود: عهدت لها منزلا دائرا و آلا على الماء يحملن آلا فالآل الأول: أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقى، و الآل الثانى: السراب. و ليس عنده قول من قال المطابقة، إنما تكون باجتماع الشىء و ضده بشىء. و من المعنى الأول قول الشاعر: أهين لهم نفسى لأكرمها بهم و لن تكرم النّفس التى لا تهينها و مثله قول امرئ القيس: و تردى على صمّ صلاب ملاطس شديدات عقد لبّنات متان و كقول النابغة: و لا يحسبون الخير لا شرّ بعده و لا يحسبون الشرّ ضربة لازب

(_____ ۱) آية (۱۷۹) سورة البقرة. (۲) آية (۱۹) سورة الروم. (۳) آية (۶۱) سورة الحج. (۴) الأفوه الأودى هو: صلاءة بن عمرو من أود و ينتهى نسبه إلى مذحج من قبائل اليمن، و كان سيد قومه و قائدهم، و كانوا يصدرون عن رأيه، و العرب تعده من حكمائها. مات سنة (۵۷۰ م). له ترجمة فى: الأغانى ۱۱/ ۴۴، و الشعر و الشعراء (۱۱۰). (۵) زياد الأعجم، كان ينزل اصطخر، فغلبت العجمة على لسانه، فسمى الأعجم، و كان شاعرا جزل الشعر، فصيح الألفاظ. مات سنة (۱۰۰ ه). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۴/ ۱۹۳، و فوات الوفيات ۱/ ۱۶۴. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۵ و كقول زهير و قد جمع فيه طباقين: بعزمة مأمور مطيع و آمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل و كقول الفرزدق: و الشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار و مما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير: و باسط خير فيكم بيمينه و قابض شر عنكم بشمالیا و كقول رجل من بلعنبر: يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة و من إساءة أهل السوء إحسانا و روى عن الحسن «۱» بن على رضى اللّه عنهما أنه تمثل بقول القائل: فلا الجود يفنى المال و الجدّ مقبل و لا البخل يبقى المال و الجدّ مدبر و كقول الآخر: فسرّى كإعلانى و تلك سجيّتى و ظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا و كقول قيس «۲» بن الخطيم: إذا أنت لم تنفع فضرّ؛ فإنما يرجّى الفتى كيما يضرّ و ينفعا و كقول السموأل: و ما ضرنا أنا قليل و جارنا عزيز و جار الأكثرين ذليل فهذا باب يرونه من البديع. و باب آخر و هو «التجنيس»؛ و معنى

ذلك: أن تأتى بكلمتين متجانستين، فمنه ما تكون الكلمة فى تجانس الأخرى فى تأليف حروفها، و إليه ذهب الخليل. و منهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق كقوله عز و جل: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّم «۳» و كقوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ «۴» و كقوله: يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ «۵» و كقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ

(۱) الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى سبط رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ريحانته فى الدنيا، و أحد سيدى شباب أهل الجنة. روى عن جده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كان أشبه الناس به. له ترجمة فى: تهذيب التهذيب ۲۰/ ۲۵۷- ۲۶۱/ ۵۲۸. (۲) قيس بن الخطيم، كان شاعرا فارسا من الأوس. مات سنة (۶۱۲ م). له ترجمة فى: الأغانى ۲/ ۱۵۹، و الجمهرة (۱۲۳)، و خزانة الأدب ۳/ ۱۶۸. (۳) آية (۴۲) سورة الروم. (۴) آية (۴۴) سورة النمل. (۵) آية (۸۴) سورة يوسف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۶ الْأَمْنُ «۱» و كقوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ «۲». و كقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: (أسلم سالمها اللّه، و غفار غفر اللّه لها، و عصيّة عصت اللّه. و رسوله) «۳». و كقوله: (الظلم ظلمات يوم القيامة) «۴» و قوله: (لا يكون ذو الوجهين وجيها عند اللّه). * و كتب بعض الكتاب: (العذر مع التعذر واجب، فرأيك فيه) و قال معاوية «۵» لابن عباس «۶»: «ما لكم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم؟» فقال: «كما تصابون فى بصائركم». و قال عمر «۷» بن الخطاب رضى اللّه عنه: «هاجروا و لا تهجروا» و من ذلك قول قيس ابن عاصم: و نحن حفرنا الحوفزان بطعنة كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا و قال آخر: «أمل عليها بالبلى الملوان» «۸». و قال الآخر: و ذاكم أن ذل الجار حالفكم و إن أنفكم لا تعرف الأنفا و كتب إلى بعض مشايخنا قال: أنشدنا الأخفش عن المبرد «۹» عن التوزى:

(۱) آية (۸۲) سورة الأنعام. (۲) آية (۲۶) سورة الأنعام. (۳) البخارى ۲/ ۳۳ و ۴/ ۲۲۰، و مسلم فى: فضائل الصحابة (۱۳۲، ۱۸۴، ۱۸۵، ۱۸۶، ۱۸۷)، و الترمذى (۳۹۴۱ و ۳۹۴۹)، و أحمد ۲/ ۲۰ و ۵۰ و ۱۰۷ و ۱۱۷. (۴) البخارى ۳/ ۱۶۹، و الترمذى (۲۰۳۰)، و أحمد ۲/ ۱۳۷ و ۱۵۶ و ۱۵۹، و البيهقى ۶/ ۹۳ و ۱۰/ ۱۳۴. (۵) معاوية هو: ابن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى، أسلم يوم الفتح، و كتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك، و كان من الموصوفين بالدهاء و الحلم. مات بدمشق سنة (۶۰). له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (۲۵۴- ۲۵۶). (۶) سبقت ترجمته. (۷) سبقت ترجمته. (۸) الملوان: الليل و النهار. (۹) المبرد هو: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى، نسبة إلى ثمالة قبيلة من الأزد. كان شيخ أهل النحو و العربية، و إليه انتهى علمهما، و كان قوى الذاكرة، كثير الحفظ، و له مؤلفات منها: الكامل فى الأدب و غير ذلك. مات سنة (۲۸۵ ه). له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۴۹۵، و الفهرست (۵۹)، و انباه الرواة ۳/ ۲۴۱. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۷ و قالوا: حمامات فحمّ لقاؤها و طلح فزيرت و المطىّ طلوح عقاب بأعقاب من النأى بعد ما جرت نية تنسى المحبّ طروح و قال صحابى: هدهد فوق بانة هدى و بيان بالنجاح يلوح و قالوا: دم دامت مواثيق عهده و دام لنا حسن الصفاء صريح و قال آخر: «أقبلن من مصر يبارين البرى». و قال القطامى: و لما ردّها فى الشّول شالت بذيّال يكون لها لفاعا و قد يكون التجنيس بزيادة حرف؛ أو ما يقارب ذلك، كقول البحترى: هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاك من الصبابة شاف؟ و قال ابن مقبل: يمشين هيل النّقا مالت جوانبه ينهال حينا و ينهاه الثّرى حينا و قال زهير: هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينكلون إذا ما استلحموا و حموا و من ذلك قول أبى تمام: يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب و أبو نواس يقصد فى مصراعى مقدمات شعره هذا الباب كقوله: ألا دارها بالماء حتى تلينها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها و كذلك قوله: ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا هنّ منه عوار و كقول ابن المعتز «۱»: سأثنى على عهد المطيرة و القصر و أدعو لها بالساكنين و بالقطر و كقوله أيضا: هى الدار إلا أنها منهم قفر و أنّى بها شاو و أنهم سفر و كقوله: للأمانىّ حديث [قد] يقر و يسوء الدهر من قد يسر

(۱) ابن المعتز هو: أبو العباس عبد اللّه بن المعتز بن المتوكل من أبناء الخلفاء العباسيين، كان شاعرا مطبوعا مقتدرا على الشعر، جيد القريحة. مات سنة (۲۹۶ ه). له ترجمة

فی: وفیات الأعیان ۱/ ۲۵۸، و الأغانی ۹/ ۱۴۰، و شذرات الذهب ۲/ ۲۲۱. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۸ و کقول المتنبی: و قد أرانی الشباب الرّوح فی بدنی و قد أرانی المشیب الرّوح فی بدلی و قد قیل إن من هذا القبیل قوله عز و جل: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِیکُمْ آیاتِی فَلا تَسْتَعْجِلُونِ «۱» و قوله تعالی: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی. فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ «۲». و یعدون من البدیع المقابلة، و هی أن یوفق بین معان و نظائرها، و المضاد بضده، و ذلک مثل قول النابغة «۳» الجعدی: فتی تم فیه ما یسرّ صدیقه علی أنّ فیه ما یسوء الأعادیا و قال تأبط شرا: أهزّ به فی ندوة الحی عطفه کما هزّ عطفی بالهجان الأوارک و کقول الآخر: و إذا حدیث ساءنی لم أکتئب و إذا حدیث سرّنی لم أشرز و کقول الآخر: و ذی إخوة قطّعت أرحام بینهم کما ترکونی واحدا لا أخالیا و نظیره من القرآن ثُمَّ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ. ثُمَّ إِذا کَشَفَ الضُّرَّ عَنْکُمْ إِذا فَرِیقٌ مِنْکُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ «۴». و یعدون من البدیع «الموازنة»، و ذلک کقول بعضهم: «اصبر علی حرّ اللقا و مضض النزال و شدة المصاع». و کقول امرئ القیس: سلیم الشّطا عبل الشّوی شنج النّسا له حجبات مشرفات علی الفال و نظیره من القرآن: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ. وَ الْیَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ «۵». و یعدون من البدیع المساواة، و هی أن یکون اللفظ مساویا للمعنی، لا یزید علیه و لا

(_____ ۱) آیة (۳۷) سورة الأنبیاء. (۲) آیة (۱۴، ۱۵) سورة الزمر. (۳) النابغة الجعدی من «جعدة» قیس، مخضرم، قال الشعر فی الجاهلیة، و سکت دهرا، ثم نبغ فی الإسلام. له ترجمة فی: الأغانی ۴/ ۱۲۸، و خزانة الأدب ۱/ ۵۱۲. (۴) آیة (۵۳، ۵۴) سورة النحل. (۵) آیة (۱: ۳) سورة البروج. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۹ ینقص عنه، و ذلک یعد من البلاغة، و ذلک کقول زهیر: و مهما تکن عند امرئ من خلیقة و إن خالها تخفی علی الناس تعلم و کقول جریر «۱»: فلو شاء قومی کان حلمی فیهم و کان علی جهّال أعدائهم جهلی و کقول الآخر: إذا أنت لم تقصر عن الجهل و الخنا أصبت حلیما أو أصابک جاهل و کقول الهزلی: فلا تجزعن من سنّة أنت سرتها و أوّل راض سنة من یسیرها و کقول الآخر: فإن هم طاوعوک فطاوعیهم و إن عاصوک فاعصی من عصاک و نظیر ذلک فی القرآن کثیر .. و مما یعدّونه من البدیع «الإشارة»؛ و هو اشتمال اللفظ القلیل علی المعانی الکثیرة. و قال بعضهم فی وصف البلاغة: لمحة دالة. و من ذلک قول طرفة «۲»: فظل لنا یوم لذیذ بنعمة فقل فی مقیل نحسه متغیّب و کقول زید الخیل «۳»: فخیبة من یخیب علی غنیّ و باهلة بن أعصر و الرّباب و نظیره من القرآن وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی «۴» و مواضع کثیرة. و یعدون من البدیع المبالغة و الغلو، و المبالغة تأکید معانی القول و ذلک کقول الشاعر: و نکرم جارنا ما کان فینا و نتبعه الکرامة حیث مالا

(_____ ۱) جریر هو: ابن عطیة بن الخطفی، نشأ فی البادیة أیام معاویة، و کان واسع الخیال، قوی الشاعریة مع میل إلی الهجاء. مات سنة (۱۱۱ ه). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۱/ ۱۰۲، و الشعر و الشعراء (۲۸۳). و خزانة الأدب ۳/ ۳۹۷. (۲) سبقت ترجمته. (۳) زید الخیل هو: ابن مهلهل من طی، و کان فارسا شجاعا بعید الصیت فی الجاهلیة، و أدرک الإسلام و وفد علی النبی، فسر به و لقبه، و سماه زید الخیل. له ترجمة فی: الأغانی ۱۶/ ۴۷، و خزانة الأدب ۲/ ۴۸۸. (۴) آیة (۳۱) سورة الرعد. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۰ و من ذلک قول الآخر: و هم ترکوکم أسلح من حباری رأت صقرا و أشرد من نعام فقوله: رأت صقرا مبالغة، و من الغلو قول أبی نواس: توهّمتها فی کأسها فکأنما توهمت شیئا لیس یدرکه العقل فما یرتقی التکییف فیها إلی مدی یحدّ به إلا و من قبله قبل و قول زهیر: لو کان یقعد فوق الشمس من کرم قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا و کقول النابغة: بلغنا السماء مجدنا و سناؤنا و إنا لنرجو فوق ذلک مظهرا و کقول الخنساء «۱»: و ما بلغت کفّ امرئ متناول بها المجد إلا حیثما نلت أطول و ما بلغ المهدون فی القول مدحة و إن أطنبوا إلا الذی فیک أفضل و قول الآخر: له همم لا منتهی لکبارها و همته الصغری أجلّ من الدّهر له راحة لو أن معشار جودها علی البرّ صار البرّ أندی من البحر و یرون من البدیع «الإیغال» فی الشعر خاصة، فلا یطلب مثله فی القرآن إلا فی الفواصل. کقول امرئ القیس «۲»: کأن عیون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذی لم یثقّب و قد أوغل بالقافیة فی الوصف فأکد التشبیه بها. و المعنی قد یستقبل دونها. و من البدیع عندهم «التوشیح» و هو

أن یشید أول البیت بقافیته، و أول الکلام بآخره، کقول البحتری «۳»: فلیس الذی حلّلته بمحلل و لیس الذی حرّمته بحرام و مثله فی القرآن: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ «۴» و من ذلک

(۱) الخنساء هی: تماضر بنت عمرو بن الشرید، و قد أجمع رواة الشعر علی أنه لم تقم امرأة فی العرب قبلها و لا بعدها أشعر منها. ماتت سنة (۶۴۶ م). لها ترجمة فی: خزانة الأدب ۱ / ۲۰۸، و الشعر و الشعراء (۱۹۷). (۲) سبقت ترجمته. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آیة (۳۹) سورة المائدة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۱ رد عجز الکلام علی صدره، کقول اللّه عز و جل: انْظُرْ کَیْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَکْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَکْبَرُ تَفْضِیلًا «۱» و کقوله: لا تَفْتَرُوا عَلَی اللَّهِ کَذِباً فَیُسْحِتَکُمْ بِعَذابٍ، وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَری «۲» و من هذا الباب قول القائل: و إن لم یکن إلّا تعلّل ساعة قلیلا- فإنی نافع لی قلیلها و کقول جریر «۳»: سقی الرّمل جون مستهل غمامه و ما ذاک إلا حبّ من حلّ بالرمل و کقول الآخر: یود الفتی طول السلامة و الغنی فکیف یری طول السّلامة یفعل و کقول أبی صخر «۴» الهذلی: عجبت لسعی الدهر بینی و بینها فلما انقضی ما بیننا سکن الدهر و کقول الآخر: أصد بأیدی العیس عن قصد أرضها و قلبی إلیها بالمودّة قاصد و کقول عمرو بن معدی کرب: إذا لم تستطع شیئا فدعه و جاوزه إلی ما تستطیع و من البدیع «صحة التقسیم»، و من ذلک قول نصیب: فقال فریق القوم: لا- و فریقهم نعم، و فریق قال: ویحک ما ندری و لیس فی أقسام الجواب أکثر من هذا. و کقول الآخر: فکأنما فیه نهار ساطع و کأنه لیل علیها مظلم و قول المقفع الکندی: و إن یأکلوا لحمی وفرت لحومهم و إن یهدموا مجدی بنیت لهم مجدا و إن ضیّعوا غیبی حفظت غیوبهم و إن هم هووا غیّی هویت لهم رشدا و إن زجروا طیرا بنحس تمرّ بی زجرت لهم طیرا تمر بهم سعدا و کقول عروة بن حزام: بمن لو رآه غائبا لفدیته و من لو رآنی غائبا لفدانی

(۱) آیة (۲۱) سورة الإسراء. (۲) آیة (۶۱) سورة طه. (۳) سبقت ترجمته. (۴) أبو صخر الهذلی هو: عبد اللّه بن سلم، کان متعصبا لآل مروان، هجا ابن الزبیر فحبسه حتی مات. له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۵۵۵، و الأغانی ۲۱/ ۹۴. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۲ و نحوه قول اللّه عز و جل: اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا، یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَی الظُّلُماتِ «۱» و نحوه صحة التفسیر کقول القائل: ولی فرس للحلم بالحلم ملجم ولی فرس للجهل بالجهل مسرج و من البدیع التکمیل و التتمیم کقول نافع بن خلیفة: رجال إذا لم یقبلوا الحق منهم و یعطوه عادوا بالسیوف القواطع و إنما تم جودة المعنی بقوله: و یعطوه، و ذلک کقول اللّه عز و جل إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «۲» إلی آخر الآیة ثم قال إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ «۳». و من البدیع «الترصیع» و ذلک من ألوان منها: قول امرئ القیس: مخشّ مجشّ مقبل مدبر معا کتیس ظباء الحلّب فی العدوان و من ذلک کثیر من مقدمات أبی نواس: یا منّة امتنّها السّکر ما ینقضی منّی لها الشکر و کقوله، و قد ذکرناه قبل هذا: دیار نوار ما دیار نوار کسونک شجوا هنّ منه عوار و من ذلک: «الترصیع» مع التجنیس کقول ابن المعتز: أ لم نجزع علی الربع المحیل و أطلال و آثار محول و نظیره من القرآن کقوله: إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّیْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَ إِخْوانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الْغَیِّ ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ «۴» و قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ. وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ «۵» و کقوله: وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ. وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ «۶» و کقوله: وَ الطُّورِ. وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ «۷» و قوله: وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً. فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً «۸» و قد أولع الشعراء بنحو هذا فأکثروا فیه، و منهم من اقتنع بالترصیع فی

(۱) آیة (۲۵۷) سورة البقرة. (۲) آیة (۳۴) سورة لقمان. (۳) آیة (۱۳) سورة الحجرات. (۴) آیة (۱، ۲) سورة الأعراف. (۵) آیة (۲، ۳) سورة القلم. (۶) آیة (۷، ۸) سورة العادیات. (۷) آیة (۱، ۲) سورة الطور. (۸) آیة (۳، ۴) سورة النازعات. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۳ بعض أطراف الکلام، و منهم من بنی کلامه علیه کقول ابن الرومی: أبدانهن و ما لبس ن من الحریر معا حریر أردانهنّ و ما مس ن من العبیر معا عبیر و کقوله: فلراهب أن لا- یریب أمانه و لراغب أن لا- یریث نجاحه و مما یقارب الترصیع، ضرب یسمی «المضارعة» و ذلک کقول

الخنساء: حامی الحقیقة محمود الخلیقة مه دیّ الطریقة نفّاع و ضرّار جواب قاصیة جزّاز ناصیة عقّاد ألویة للخیل جرّار و من البدیع باب: «التکافؤ» و ذلک قریب من «المطابقة» کقول المنصور: «لا تخرجوا من عز الطاعة إلی ذل المعصیة» و قول عمر بن ذر: «إنا لم نجد لک إذا عصیت اللّه فینا خیرا من أن نطیع اللّه فیک». و منه قول بشار: إذا أیقظتک حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم و من البدیع باب «التعطف» کقول امرئ القیس: «عود علی عود علی عود خلق»، و قد تقدم مثاله. و من البدیع «السلب» و الإیجاب کقول القائل: و ننکر إن شئنا علی الناس قولهم و لا ینکرون القول حین نقول و من البدیع: «الکنایة و التعریض» کقول القائل: و أحمر کالدیباج أما سماؤه فریّا، و أما أرضه فمحول و من هذا الباب «لحن القول»: و من ذلک «العکس و التبدیل» کقول الحسن: «إن من خوّفک لتأمن، خیر ممن أمنک لتخاف»، و کقوله: «اللهم أغننی بالفقر إلیک و لا تفقرنی بالاستغناء عنک». و کقوله: «بع دنیاک بآخرتک تربحهما جمیعا و لا- تبع آخرتک بدنیاک فتخسرهما جمیعا» و کقول القائل: و إذا الدّر زان حسن وجوه کان للدرّ حسن وجهک زینه و قد یدخل فی هذا الباب قوله تعالی: یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ. و من البدیع «الالتفات» فمن ذلک ما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه العسکری، أخبرنا محمد بن عبد اللّه الصولی، حدثنی یحیی بن علی المنجم عن أبیه عن إسحاق بن إبراهیم إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۴ قال: قال لی الأصمعی أ تعرف التفاتات جریر؟ قلت: لا. فما هی؟ قال: أ تنسی إذ تودعنا سلیمی بفرع بشامة سقی البشام و مثل ذلک لجریر «۱»: متی کان الخیام بذی طلوح سقیت الغیث أیتها الخیام و معنی الالتفاتات أنه اعترض فی الکلام قوله: (سقیت الغیث) و لو لم یعترض لم یکن ذلک التفاتا، و کان الکلام منتظما، و کان یقول: متی کان الخیام بذی طلوح أیتها الخیام، متی خرج عن الکلام الأول ثم رجع إلیه علی وجه یلطف، کان ذلک التفاتا. و مثله قول النابغة «۲» الجعدی: أ لا زعمت بنی سعد بأنی ألا کذبوا کبیر السن فانی و مثله قول کثیر «۳»: لو أن الباذلین و أنت منهم رأوک تعلّموا منک المطالا و مثله قول أبی تمام: و أنجدتم من بعد اتهام داترکم فیا دمع أنجدنی علی ساکنی نجد و کقول جریر: طرب الحمام بذی الأراک فشاقنی لا زلت فی غلل و أیک ناضر التفت إلی الحمام فدعا لها. و مثله قول حسان «۴»: إن التی ناولتنی فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل و منه قول عبد اللّه بن معاویة بن عبد اللّه بن جعفر: و أجمل إذا ما کنت لا بدّ مانعا و قد یمنع الشیء الفتی و هو مجمل و کقول ابن میادة: فلا صرمه یبدو و فی الیأس راحة و لا وصله یصفو لنا فنکارمه

(_____ ۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. (۳) کثیر هو: ابن عبد الرحمن، و یعرف بکثیر عزة نسبة إلی حبیبته التی کان یشبب بها، و کان شیعیا، شدید التعصب لآل أبی طالب. مات سنة (۱۰۵ ه). له ترجمة فی: الأغانی ۱۱/ ۴۶، و خزانة الأدب ۲/ ۳۸۱. (۴) حسان هو: ابن ثابت، عاصر الجاهلیة و الإسلام فهو من المخضرمین، و اشتهر فی الجاهلیة بمدح ملوک غسان و ملوک الحیرة، و اختص بعد الإسلام بمدح النبی و الدفاع عنه. مات سنة (۵۴ ه). له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۱۱۱، و الشعر و الشعراء (۱۷۰). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۵ و نظیر ذلک من القرآن ما حکی اللّه تعالی عن إبراهیم الخلیل من قوله: اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً «۱» إلی قوله: فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ «۲» و قوله عز و جل إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ. وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ. وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً «۳» و مثله قوله: حَتَّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَةٍ «۴» إلی آخر الآیة. و مثله قوله: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها إلی قوله: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ «۵» و مثله قوله تعالی: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما جَزاءً بِما کَسَبا نَکالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ. فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ «۶» و منهم من لا یعد الاعتراض و الرجوع من هذا الباب، و منهم من یفرده عنه کقول زهیر: قف بالدیار التی لم یعفها القدم نعم و غیرها الأرواح و الدّیم و کقول الأعرابی: أ لیس قلیلا- نظرة إن نظرتها إلیک و کلّما لیس منک قلیل و کقول ابن هرمة: لیت حظی کلحظة العین منها و کثیر منها القلیل المهنّا و من الرجوع قول القائل: بکلّ تداوینا فلم یشف ما بنا علی أنّ قرب الدار خیر من البعد و قال الأعشی: صرمت و لم أصرمکم و کصارم أخ قد طوی کشحا و آب لیذهبا و کقول بشار: لی حیلة فیمن ینم م و لیس فی الکذّاب حیلة من کان یخلق ما یقو ل فحیلتی فیه قلیله و

قال آخر: و ما بی انتصار إن عدا الدهر ظالما علیّ، بلی إن کان من عندک النصر

(_____ ۱) آیة (۱۶، ۱۷) سورة العنکبوت.

(۲) آیة (۲۴) سورة العنکبوت. (۳) آیة (۱۹: ۲۱) سورة إبراهیم. (۴) آیة (۲۲) سورة یونس. (۵) آیة (۱۷۵، ۱۷۶) سورة الأعراف. (۶) آیة (۳۸، ۳۹) سورة المائدة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۶ و باب آخر من البدیع، یسمی «التذییل»، و هو ضرب من «التأکید» و هو ضد ما قدمنا ذکره من الإشارة کقول أبی داود: إذا ما عقدنا له ذمّة شددنا العناج و عقد الکرب و أخذه الحطیئة «۱» فقال: فدعوا نزال فکنت أول نازل و علام أرکبه إذا لم أنزل و کقول جریر: لقد کنت فیها یا فرزدق تابعا و ریش الذّنابی تابع للقوادم و مثله قوله عز و جل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً إلی قوله: إِنَّهُ کانَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ. وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ. إلی قوله: خاطِئِینَ «۲». و باب من البدیع یسمی الاستطراد، فمن ذلک ما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه قال: أنشدنی أبو بکر بن درید قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبی عبیدة، لحسان بن ثابت رضی اللّه تعالی عنه: إن کنت کاذبة التی حدّثتنی فنجوت منجی الحرث بن هشام ترک الأحبّة أن یقاتل دونهم و رمی برأس طمرّة و لجام و کقول السموأل: و إنا لقوم لا نری القتل سبّة إذا ما رأته عامر و سلول و کقول الآخر: خلیلیّ من کعب أعینا أخاکما علی دهره، إن الکریم معین و لا تبخلا بخل ابن قزعة إنه مخافة أن یرجی تراه حزین و کقول الآخر: فما ذرّ قرن الشّمس حتّی کأننا من العیّ نحکی أحمد بن هشام و کقول زهیر: إن البخیل ملوم حیث کان و لکنّ الجواد علی علّاته هرم

(_____ ۱) الحطیئة هو: جرول بن أوس من بنی عبس، و من فحول الشعراء و مقدمیهم و فصحائهم، متین الشعر، و کان إذا نزل فی مدینة أو نجع دب الخوف فی أهله، و أرصدوا له العطایا خوفا من لسانه. له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۴۰۹، و الجمهرة (۱۵۳)، و الشعر و الشعراء (۱۸۰). (۲) آیة (۴: ۸) سورة القصص. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۷ و فیما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه قال: أخبرنی محمد بن یحیی، حدثنی محمد بن علی الأنباری قال: سمعت البحتری یقول: أنشدنی أبو تمام لنفسه: و سابح هطل التّعداء هتّان علی الجراء أمین غیر خوّان أظمئ الفصوص و لم تظمأ قوائمه فجل عینک فی ریان ظمئان و لو تراه مشیحا و الحصی قلق بین السنابک من مثنی و وحدان أیقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان و قال لی: ما هذا من الشعر؟ قلت: لا أدری. قال: هذا المستطرد، أو قال: الاستطراد قلت: و ما معنی ذلک، قال: یری أنه یصف الفرس، و یرید هجاء عثمان، فقال: و قال البحتری: ما إن یعاف قذی و لو أوردته یوما خلائق حمدویه الأحول قال: فقیل للبحتری: إنک أخذت هذا من أبی تمام، فقال: ما یعاب علیّ أن آخذ منه و اتبعه فیما یقول. و من هذا الباب قول أبی تمام: صبّ الفراق علینا صبّ من کثب علیه إسحاق یوم الرّوع منتقما و منه قول السری الرفاء: نزع الوشاة لنا بسهم قطیعة یرمی بسهم الحین من یرمی به لیت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد اللّه أو بحرابه و نظیره من القرآن: أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلی ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ. وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِکَةُ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ «۱» کأنه کان المراد أن یجری بالقول الأول إلی الإخبار عن أن کل شیء یسجد للّه عز و جل، و إن کان ابتداء الکلام فی أمر خاص. و من البدیع عندهم التکرار کقول الشاعر: هلّا سألت جموع کن دة یوم ولّوا أین أینا و کقول الآخر: و کانت فزارة تصلی بنا فأولی فزارة أولی لها و نظیره من القرآن کثیر کقوله: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ

(_____ ۱) آیة (۴۸، ۴۹) سورة النحل. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۸ یُسْراً «۱»، و کالتکرار فی قوله: قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ «۲» و هذا فیه معنی زائد علی التکرار؛ لأنه یفید الإخبار عن الغیب. و من البدیع عندهم ضرب من الاستثناء کقول النابغة «۳»: و لا عیب فیهم غیر أن سیوفهم بهن فلول من قراع الکتائب و کقول النابغة الجعدی «۴»: فتی کملت أخلاقه غیر أنه جواد فلا یبقی من المال باقیا فتی تم فیه ما یسر صدیقه علی أن فیه ما یسوء الأعادیا و کقول الآخر: حلیم إذا ما الحلم زیّن أهله مع الحلم فی عین العدو مهیب کقول أبی تمام «۵»: تنصّل ربّها من غیر جرم إلیک

سوى النصيحة و الوداد و وجوه البديع كثيرة جدا، فاقتصرنا على ذكر بعضها، و نبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع. و قد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها، و إن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، و ليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرب و التعود و التصنع لها، و ذلك كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له، و أمكنه نظمه. و الوجوه التى تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له و التوصل إليه بحال. و يبين ما قلنا: أن كثيرا من المحدثين قد تصنّع لأبواب الصنعة، حتى حشى جميع شعره منها، و اجتهد أن لا يفوته بيت إلا و هو يملؤه من الصنعة، كما صنع أبو تمام فى لاميته: متى أنت عن ذهليّة الحى ذاهل و صدرك منها مدة الدهر آهل

(_____ ۱) آية (۵، ۶) سورة الانشراح. (۲)

آية (۱) سورة الكافرون. (۳) سبقت ترجمته. (۴) سبقت ترجمته. (۵) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۹ تطل طلول الدمع فى كلّ موقف و تمثل بالصبر الديار المواثل دوارس لم يحف الربيع ربوعها و لا مرّ فى أغفالها و هو غافل فقد سحبت فيها السحاب ذيولها و قد اخملت بالنور تلك الخمائل تعفين من زاد العفاة إذا انتحى على الحىّ صرف الأزمة المتماحل لهم سلف سمر العوالى و سامر و فهم جمال لا يعيض و جامل ليالى أضللت العزاء و خزّلت بعقلك آرام الخدور العقائل من الهيف لو أن الخلاخيل صيّرت لها و شحا جالت عليه الخلاخل مها الوحش إلاـ أن هاتا أو أنس قنا الخطّ إلا أن تلك ذوابل هوى كان خلسا إن من أطيب الهوى هوى جلت فى أفيائه و هو خامل و من الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات و نحوها على ما قد تكلف فيها البديع و تعمل من الصنعة، فقال: قد أذهب ماء هذا الشعر و رونقه و فائدته اشتغالا بطلب التطبيق و سائر ما جمع فيه. و قد تعصب عليه أحمد بن عبد اللّه بن عمار، و أسرف حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه، و لما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع فى الحسن كقوله فى قصيدة له أولها: سرت تستجير الدمع خوف نوى غد و عاد قتادا عندها كلّ مرقد فقال لها: لعمرى لقد حرّرت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرّد و كقوله: لو لم تدارك من المجد مذ زمن بالجود و البأس كان المجد قد خرفا فهذا من الاستعارات القبيحة، و البديع المقيت كقوله: تسعون ألفا كآساد الشّرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين و العنب و كقوله: لو لم يمت بين أطراف الرماح إذا لمات إذ لم يمت من شدة الحزن و كقوله: «خشنت عليه أخت بنى خشين». و كقوله: ألا لا يمد الدهر كفا بسيّئ إلى مجتدى نصر فتقطع من الزند و قال فى وصف المطايا: لو كان كلّفها عبيد حاجة يوما لزنّى شدقما و جديلا و كقوله: فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۰ فهذا و ما أشبه إنما يحدث من غلوّه فى محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، و ربما أسرف فى المطابق و المجانس و وجوه البديع من الاستعارة و غيرها، حتى استقلّ نظمه، و استوخم رصعه، و كان التكلف باردا، و التصرف جامدا، و ربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح. فأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام، و يقل التصنع له. فإذا وقع فى كلامه، كان فى الأكثر حسنا رشيقا، و ظريفا جميلا، و تصنعه للمطابق كثير حسن، و تعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة و الرغبة فى السلاسة، فلذلك يخرج سليما من العيب فى الأكثر. و أما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى، و قعود العبارات عن الغاية القصوى، فشىء لا بد منه، و أمر لا محيص عنه، و كيف و قد وقف على من هو أجل منه و أعظم قدرا فى هذه الصنعة، و أكبر فى الطبقة، كامرئ القيس، و زهير، و النابغة، و إلى يومه و نحن نبين تميز، كلامه و انحطاط درجة قولهم، و نزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن فى باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، و يتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة اللّه و عونه. ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر و وصفوه فيه. و ذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، و يخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم و التدرب به و التصنع له، كقول الشعر، و وصف الخطب، و صناعة الرسالة، و الحذق فى البلاغة. و له طريق يسلك، و وجه يقصد، و سلّم يرتقى فيه إليه، و مثال قد يقع طالبه عليه. فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعرا، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا، أو صنعة متصلة،

لا یسقط من کلامه حرف، و قد یبادئ به ما قد تعوده، و أنت تری أدباء زماننا یضیفون المحاسن فی جزء، و کذلک یؤلفون أنواع البارع، ثم ینظرون فیه إذا أرادوا إنشاء قصیدة، أو رسالة، أو خطبة، فیحشون به کلامهم. و من کان قد تدرب و تقدم فی حفظ ذلک، اشتغل عن هذا التصنیف و لم یحتج إلی تکلف هذا التألیف، و کان ما أشرف علیه من هذا الشأن باسطا من باع کلامه، و موشحا بأنواع البدیع ما یحاوله من قوله، و هذا طریق لا یتعذر، و باب لا یمتنع، و کل یأخذ فیه مأخذا، و یقف فیه موقفا علی قدر ما معه من المعرفة، و بحسب ما یمده من الطبع. فأما شأو نظم القرآن، فلیس له مثال یحتذی إلیه، و لا إمام یقتدی به، و لا یصح وقوع مثله اتفاقا؛ کما یتفق للشاعر البیت النادر، و الکلمة الشاردة، و المعنی الفذ الغریب، إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۱ و الشیء القلیل العجیب. و کما یلحق بکلامه بالوحشیات، و یضاف من قوله إلی الأوابد؛ لأن ما جری هذا المجری، و وقع هذا الموقع، فإنما یتفق للشاعر فی لمع من شعره، و للکاتب فی قلیل من رسائله، و للخطیب فی یسیر من خطبه، و لو کان کل شعره نادرا و مثلا سائرا، و معنی بدیعا، و لفظا رشیقا، و کل کلامه مملوءا من رونقه، و مائه و مملأ ببهجته و حسن روائه، و لم یقع فیه المتوسط بین الکلامین، و المتردد بین الطرفین، و لا البارد المستثقل، و الغث المستنکر، لم یبن الإعجاز فی الکلام، و لم یبن التفاوت العجیب بین النظام و النظام. و هذه جملة تحتاج إلی تفصیل، و مبهم قد یحتاج فی بعض إلی تفسیر، و سنذکر ذلک بمشیئة اللّه و عونه، و لکن قد یمکن أن یقال فی البدیع الذی حکیناه، و أضفناه إلیهم، أن ذلک باب من أبواب البراعة، و جنس من أجناس البلاغة، و أنه لا ینفک القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، و لا وجه من وجوه فصاحاتهم. و إذا أورد هذا المورد، و وضع هذا الموضع، کان جدیرا. و إنما لم نطلق القول إطلاقا، لأنّا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة، و وقفا علیها. و مضافا إلیها، و إن صح أن تکون هذه الوجوه مؤثرة فی الجملة، آخذة بخطها من الحسن و البهجة متی وقعت فی الکلام علی غیر وجه التکلف المستبشع، و التعمل المستبشع. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۲

فصل: فی کیفیة الوقوف علی إعجاز القرآن

اشارة

فصل: فی کیفیة الوقوف علی إعجاز القرآن قد بینا أنه لا یتهیأ لمن کان لسانه غیر العربیة، من العجم و الترک و غیرهم، أن یعرفوا إعجاز القرآن إلا أن یعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلک. فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدّوا علی أن یأتوا بمثله، و قرّعوا علی ترک الإتیان بمثله، و لم یأتوا به، تبینوا أنهم عاجزون عنه. و إذا عجز أهل ذلک اللسان، فهم عنه أعجز. و کذلک نقول إن من کان أهل اللسان العربی إلّا أنه لیس یبلغ فی الفصاحة الحد الذی یتناهی إلی معرفة أسالیب الکلام، و وجوه تصرّف اللغة، و ما یعدّونه فصیحا بلیغا بارعا من غیره، فهو کالأعجمی، فی أنه لا یمکنه أن یعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بینا أن یعرف به الفارسی الذی بدأنا بذکره، و هو و من لیس من أهل اللسان سواء. فأما من کان قد تناهی فی معرفة اللسان العربی، و وقف علی طرقها و مذاهبها، فهو یعرف القدر الذی ینتهی إلیه وسع المتکلم من الفصاحة، و یعرف ما یخرج عن الوسع، و یتجاوز حدود القدرة، فلیس یخفی علیه إعجاز القرآن، کما یمیز بین جنس الخطب و الرسائل و الشعر، و کما یمیز بین الشعر الجید و الردیء، و الفصیح و البدیع، و النادر و البارع و الغریب. و هذا کما یمیز أهل کل صناعة صنعتهم، فیعرف الصّیرفیّ من النقد ما یخفی علی غیره، و یعرف البزاز من قیمة الثوب و جودته و رداءته ما یخفی علی غیره، و إن کان یبقی مع معرفة هذا الشأن أمر آخر. و ربما اختلفوا فیه؛ لأن من أهل الصنعة من یختار الکلام المتین و القول الرصین. و منهم من یختار الکلام الذی یروق ماؤه، و تروع بهجته و رواؤه، و یسلس مأخذه، و یسلم وجهه و منفذه، و یکون قریب المتناول، غیر عویص اللفظ و لا غامض المعنی. کما یختار قوم ما یغمض معناه و یغرب لفظه، و لا یختار ما سهل علی اللسان و سبق إلی البیان. و روی أن عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه وصف زهیرا فقال: «کان لا یمدح الرجل

إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۳ إلا بما فیه» و قال لعبد بنی الحسحاس حین أنشده: «کفی الشیب و الإسلام للمرء ناهیا» أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتک علیه. و روی أن جریرا سأل عن أحسن الشعر، فقال قوله: إن الشقی الذی فی النار منزله و الفوز فوز الذی ینجو من النار کأنه فضله لصدق معناه. و منهم من یختار الغلو فی قول الشعر و الإفراط فیه حتی ربما قالوا «أحسن الشعر أکذبه» کقول النابغة: یقدّ السلوقیّ المضاعف نسجه و یوقدن بالصّفاح نار الحباحب و أکثرهم علی مدح المتوسط بین المذهبین فی الغلو و الاقتصاد، و فی المتانة و السلامة، و منهم من رأی أن أحسن الشعر ما کان أکثر صنعة، و ألطف تعملا، و أن یتخیر الألفاظ الرشیقة للمعانی البدیعة و القوافی الواقعة، کمذهب البحتری، و علی ما وصفه عن بعض الکتاب: فی نظام من البلاغة ما شک ک امرؤ أنه نظام فرید و بدیع کأنه الزهر الضا حک فی رونق الربیع الجدید حزن مستعمل الکلام اختیارا و تجنبن ظلمة التعقید و رکبن اللفظ القریب فأدرکن به غایة المراد البعید و یرون أن من تعدی هذا کان سالکا مسلکا عامیا و لم یروه شاعرا و لا مصیبا. و فیما کتب الحسن بن عبد اللّه أبو أحمد العسکری قال: أخبرنی محمد بن یحیی، قال: أخبرنی عبد اللّه بن الحسن، قال: قال لی البحتری: دعانی علی بن الجهم فمضیت إلیه، فأفضنا فی أشعار المحدثین إلی أن ذکرنا شعر أشجع، فقال لی: إنه یخلی، و أعادها مرات، و لم أفهمها؛ و أنفت أن أسأله عن معناها، فلما انصرفت فکرت فی الکلمة، و نظرت فی شعره، فإذا هو ربما مرت له الأبیات مغسولة لیس فیها بیت رائع؛ و إذا هو یرید هذا بعینه، أن یعمل الأبیات، فلا یصیب فیها ببیت نادر، کما أن الرامی إذا رمی برشقة فلم یصب بشیء قیل قد أخلی. قال: و کان علی بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر. و قوم من أهل اللغة یمیلون إلی الرصین من الکلام، الذی یجمع الغریب و المعانی، مثل أبی عمرو بن العلاء، و خلف الأحمر، و الأصمعی. و منهم من یختار الوحشی من الشعر، کما اختار المفضل للمنصور من المفضلیات. و قیل: إنه اختار ذلک لمیله إلی ذلک الفن. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۴ و ذکر الحسن بن عبد اللّه أنه أخبره بعض الکتاب عن علی بن العباس قال: «حضرت مع البحتری مجلس عبید اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، و قد سئل البحتری عن أبی نواس و مسلم بن الولید، أیهما أشعر؟ فقال البحتری: أبو نواس أشعر، فقال عبید اللّه: إن أبا العباس ثعلبا لا یطابقک علی قولک، و یفضل مسلما، فقال البحتری: لیس هذا من عمل ثعلب و ذویه من المتعاطین لعلم الشعر دون عملهن، إنما یعلم ذلک من وقع فی سلک الشعر إلی مضایقه، و انتهی إلی ضروراته. فقال له عبید اللّه: وریت بک زنادی یا أبا عبادة، و قد وافق حکمک حکم أخیک بشار ابن برد فی جریر و الفرزدق أیهما أشعر؟ فقال: جریر أشعرهما، فقیل له: بما ذا؟ فقال: لأن جریرا یشتد إذا شاء، و لیس کذلک الفرزدق؛ لأنه یشتد أبدا. فقیل له: فإن یونس و أبا عبیدة یفضلان الفرزدق علی جریر. فقال: لیس هذا من عمل أولئک القوم. إنما یعرف الشعر من یضطر إلی أن یقول مثله. و فی الشعر ضروب لم یحسنها الفرزدق، و لقد ماتت النّوار امرأته فناح علیها بقول جریر: لو لا الحیاء لعادنی استعبار و لزرت قبرک و الحبیب یزار و روی عن أبی عبیدة أنه قال للفرزدق: ما لک لا تنسب کما ینسب جریر؟ فغاب حولا ثم جاء فأنشد: یا أخت ناجیة بن سامة إننی أخشی علیک بنیّ إن طلبوا دمی و الأعدل فی الاختیار ما سلکه أبو تمام من الجنس الذی جمعه فی کتاب «الحماسة» و ما اختاره من «الوحشیات» و ذلک أنه تنکر المستنکر الوحشی، و المبتذل العامی، و أتی بالواسطة. و هذه الطریقة من ینصف فی الاختیار، و لا یعدل به غرض یخص؛ لأن الذین اختاروا الغریب فإنما اختاروه لغرض لهم فی تفسیر ما یشتبه علی غیرهم، و إظهار التقدم فی معرفته و عجز غیرهم عنه، و لم یکن قصدهم جید الأشعار لشیء یرجع إلیها فی أنفسها، و یبین هذا أن الکلام موضوع للإبانة عن الأغراض التی فی النفوس. و إذا کان کذلک وجب أن یتخیر من اللفظ ما کان أقرب إلی الدلالة علی المراد، و أوضح فی الإبانة عن المعنی المطلوب، و لم یکن مستکره المطلع علی الأذن، و مستنکر المورد علی النفس، حتی یتأبی بغرابته فی اللفظ عن الإفهام، أو یمتنع بتعویض معناه عن الإبانة. و یجب أن یتنکب ما کان علیه اللفظ، مبتذل العبارة، رکیک المعنی، سفسافی إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۵ الوضع، مجتنب التأسیس علی غیر أصل ممهد، و لا طریق موطد، و إنما فضلت العربیة علی غیرها لاعتدالها فی الوضع. و لذلک وضع أصلها علی أکثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستکرهة فی نظمها، و أسقطوها من کلامهم، فجری لسانهم علی الأعدل، و لذلک صار أکثر کلامهم من الثلاثی لأنهم بدءوا بحرف و سکتوا علی آخر، و

جعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء و الانتهاء على ذلك. و الثنائى أقل، و كذلك الرباعى و الخماسى أقل. و لو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف، و لو كان كله رباعيا أو خماسيا لكثرت الكلمات. و كذلك بنى أمر الحروف التى ابتدئ بها السور التى ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف، و ما هو أربعة أحرف سورتان، و ما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان، فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه، فمنهم من لم يجعل ذلك حرفا، و إنما جعله فعلا و اسما لشىء خاص. و من جعل ذلك حرفا قال: أراد أن يحقق الحروف مفردها و منظومها. و لضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر فى بعض الألسنة الحرف الواحد فى الكلمة الواحدة. و الكلمات المختلفة كثيرا، كنحو تكرر الطاء و السين فى لسان يونان، و كنحو الحروف الكثيرة التى هى اسم لشىء واحد فى لسان الترك. و لذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر فى تلك الألسنة على الأعاريض التى تمكن فى اللغة العربية. و العربية أشدها تمكنا و أشرفها تصرفا و أعدلها، و لذلك جعلت حلية لنظم القرآن، و علق بها الإعجاز، و صارت دلالة فى النبوة. و إذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة فى النفوس التى لا يمكن التوصل إليها بأنفسها، و هى محتاجة إلى ما يعبر عنها. فما كان أقرب فى تصويرها و أظهر فى كشفها للفهم الغائب عنها، و كان مع ذلك أحكم فى الإبانة عن المراد، و أشد تحقيقا فى الإيضاح عن الطلب، و أعجب فى وضعه، و أرشق فى تصرفه، و أبرع فى نظمه، كان أولى و أحق بأن يكون شريفا. و قد شبهوا النطق بالخط، و الخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة و صحة و لطف، حتى يجوز الفضيلة و يجمع الكمال. و شبهوا الخط و النطق بالتصوير. و قد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صوّر لك الباكى المتضاحك، و الباكى الحزين، و الضاحك المتباكى، و الضاحك المستبشر. و كما أنه يحتاج إلى لطف يد فى تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج إلى لطف فى اللسان و الطبع فى تصوير ما فى النفس للغير، و فى جملة الكلام إلى ما تقصر إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۶ عبارته و تفضل معانيه. و فى ما تقصر المعانى و تفضل العبارات، و فيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر، ثم ينقسم ما يقع وفقا إلى أنه قد يفيدها على تفصيل. و كل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شريفا و غريبا لطيفا. و قد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا و مصنوعا متعسفا، و قد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقا، و بهيجا نضيرا، و قد يتفق أحد الأمرين دون الآخر، و قد يتفق أن يسلم الكلام و المعنى من غير رشاقة و لا نضارة فى واحد منهما. إنما يميز من يميز، و يعرف من يعرف، و الحكم فى ذلك صعب شديد، و الفضل فيه شأو بعيد. و قد قل من يميز أصناف الكلام؛ فقد حكى عن طبقة أبى عبيدة، و خلف الأحمر و غيرهم، فى زمانهم أنهم قالوا: ذهب من يعرف نقد الشعر. و قد بينا قبل هذا اختلاف القوم فى الاختيار، و ما يجب أن يجمعوا عليه و يرجعوا عند التحقيق إليه. و كلام المقتدر نمط، و كلام المتوسع باب، و كلام المطبوع له طريق، و كلام المتكلف له منهاج، و الكلام المصنوع المطبوع له باب. و متى تقدم الإنسان فى هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، و لم تشتبه عنده هذه الطرق. فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه، و قدر كل كلام فى نفسه، و يحله محله، و يعتقد فيه ما هو عليه، و يحكم فيه بما يستحق من الحكم، و إن كان المتكلم يجود فى شىء دون شىء عرف ذلك منه، و إن كان يعم إحسانه عرف، أ لا ترى أن منهم من يجود فى المدح دون الهجو، و منهم من يجود فى الهجو وحده، و منهم من يجود فى المدح و السخف، و منهم من يجود فى الأوصاف. و العالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء، و لا يذهب عليه أقدارهم، حتى أنه إذا عرف له طريقة شاعر فى قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعر لم يشك أن ذلك من نسجه، و لم يرتب فى أنه من نظمه. كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه، حيث رآه من بين الخطوط المختلفة، و حتى يميز بين رسائل كاتب و بين رسائل غيره. و كذلك أمر الخطب فإن اشتبه البعض، فهو لاشتباه الطريقين و تماثل الصورتين. كما قد يشتبه شعر أبى تمام بشعر البحترى فى القليل الذى يترك أبو تمام فيه التصنع، و يقصد فيه التسهل و يسلك الطريقة الكتابية، و يتوجه فى تقريب الألفاظ و ترك تعويض المعانى، و يتفق له مثل بهجة أشعار البحترى و ألفاظه. و لا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة، سبك أبى نواس، و لا نسج ابن الرومى، من نسج البحترى، و ينبهه ديباجة شعر البحترى، و كثرة مائه، و بديع رونقه، و بهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه، فيشتبه بشعر ابن الرومى، و يحركه ما لشعر أبى نواس من الحلاوة و الرقة إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۷ و الرشاقة و السلاسة، حتى يفرق بينه و بين شعر مسلم. و

کذلک یمیز بین شعر الأعشی، فی التصرّف و بین شعر امرئ القیس، و بین شعر النابغة و زهیر، و بین شعر جریر و الأخطل، و البعیث و الفرزدق. و کل له منهج معروف، و طریق مألوف. و لا یخفی علیه فی زماننا الفضل بین رسائل عبد الحمید و طبقته، و بین طبقة من بعده، حتی أنه لا یشتبه علیه ما بین رسائل ابن العمید و بین رسائل أهل عصره، و من بعده ممن برع فی صنعة الرسائل، و تقدم فی شأوها حتی جمع فیها بین طرق المتقدمین، و طریقة المتأخرین، حتی خلص لنفسه طریقة، و أنشأ لنفسه منهاجا، فسلک تارة طریقة الجاحظ، و تارة طریقة السجع، و تارة طریقة الأصل، و برع فی ذلک باقتداره، و تقدم بحذقه، و لکنه لا یخفی مع ذلک علی أهل الصنعة طریقه من طریق غیره. و إن کان قد یشتبه البعض و یدق القلیل و تغمض الأطراف و تشذ النواحی. و قد یتقارب سبک نفر من شعراء عصره، و تتدانی رسائل کتاب دهر، حتی تشتبه اشتباها شدیدا، و تتماثل تماثلا قریبا، فیغمض الفصل. و قد یتشاکل الفرع و الأصل و ذلک فیما لا یتعذر إدراک أمده، و لا یتصعب طلاب شأوه، و لا یتمنع بلوغ غایته، و الوصول إلی نهایته، لأن الذی یتفق مع الفضل بین أهل الزمان إذا تفاضلوا و تفاوتوا فی مضمار فصل قریب و أمر یسیر. و کذلک لا یخفی علیهم معرفة سارق الألفاظ، و سارق المعانی، و لا من یخترعها، و لا من یسلم بها، و لا من یجاهر بالأخذ ممن یکاتم به، و لا من یخترع الکلام اختراعا، و یبتدهه ابتداها، ممن یروّی فیه، و یجیل الفکر فی تنقیحه، و یصیر علیه حتی یتخلص له ما یرید، و حتی یتکرر نظره فیه. قال أبو عبیدة: سمعت أبا عمرو یقول: زهیر و الحطیئة و اشباههما عبید الشعر، لأنهم نقحوه و لم یذهبوا فیه مذهب المطبوعین؛ و کان زهیر یسمّی کبر شعره «الحولیات المنقحة». و قال عدی بن الرقاع: و قصیدة قد بت أجمع بینها حتی أقوّم میلها و سنادها نظر المثقّف فی کعوب قناته حتی یقیم ثقافة منادها و کقول سوید بن کراع: أبیت بأبواب القوافی کأنما أصادی بها سربا من الوحش نزّعا و منهم من یعرف بالبدیهة وحدة الخاطر، و نفاد الطبع و سرعة النظم، یرتجل القول ارتجالا، و یطبعه عفوا صفوا. فلا یقعد به عن قوم قد تعبوا و کدوا أنفسهم، و جاهدوا خواطرهم. و کذلک لا- یخفی علیهم الکلام العلوی و اللفظ الملوکی، کما لا یخفی علیهم الکلام إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۸ العامی و اللفظ السوقی ثم تراهم ینزلون الکلام تنزیلا، و یعطونه کیف تصرف حقوقه، و یعرفون مراتبه فلا یخفی علیهم ما یختص به کل فاضل تقدم فی وجه من وجوه النظم، من الوجه الذی لا یشارکه فیه غیره، و لا یساهمه سواه. أ لا تراهم وصفوا زهیرا بأنه أمدحهم، و أشدهم أثر شعر. قاله أبو عبیدة، و روی أن الفرزدق انتحل بیتا من شعر جریر، و قال: هذا یشبه شعری. فکان هؤلاء لا یخفی علیهم ما قد نسبناه إلیهم من المعرفة بهذا الشأن، و هذا کما یعلم البزازون هذا الدیباج عمل بتستر، و هذا لم یعمل بتستر، و أن هذا من صنعة فلان دون فلان، و من نسج فلان دون فلان، حتی لا یخفی علیه و إن کان قد یخفی علی غیره. ثم إنهم یعلمون أیضا من له سمت بنفسه، و رفت برأسه، و من یقتدی فی الألفاظ أو فی المعانی أو فیهما بغیره، و یجعل سواه قدوة له. و من یلم فی الأحوال بمذهب غیره و یأتی فی الأحیان بمخترعه. و هذه أمور ممهدة عند العلماء، و أسباب معروفة عند الأدباء. و کما یقولون إن البحتری یغیر علی أبی تمام إغارة. و یأخذ منه صریحا و إشارة، و یستأنس بالأخذ منه، بخلاف ما یستأنس بالأخذ من غیره، و یألف اتباعه کما لا یألف اتباع سواه. و کما کان أبو تمام یلم بأبی نواس و مسلم، و کما یعلم أن بعض الشعراء یأخذ من کل أحد لا یتحاشی، و یؤلف ما یقوله من فرق شتی. و ما الذی نفع المتنبی جحوده الأخذ، و إنکاره معرفة الطائیین. و أهل الصنعة یدلون علی کل حرف أخذه منهما جهارا، أو ألم بهما فیه سرارا؟! و أما ما لم یأخذ عن الغیر، و لکن سلک النمط، و راعی النهج، فهم یعرفونه، و یقولون هذا أشبه به من التمرة بالتمرة، و أقرب إلیه من الماء إلی الماء، و لیس بینهما إلا- کما بین اللیلة و اللیلة. فإذا تباینا و ذهب أحدهما فی غیر مذهب صاحبه، و سلک فی غیر جانبه، قیل بینهما ما بین السماء و الأرض، و ما بین النجم و النون، و ما بین المشرق و المغرب. و إنما أطلت علیک و وضعت جمیعه بین یدیک، لتعلم أن أهل الصنعة یعرفون دقیق هذا الشأن و جلیله، و غامضه و قریبه، و بعیده و معوجه و مستقیمه. فکیف یخفی علیهم الجنس الذی هو بین الناس متداول، و هو قریب متناول، من أمر یخرج عن أجناس کلامهم، و یبعد عما هو فی عرفهم، و یفوت مواقع قدرهم؟ و إذا اشتبه ذلک، فإنما یشتبه علی ناقص فی الصنعة، أو قاصر عن معرفة طرق الکلام الذی یتصرفون فیه، و یدیرونه بینهم، و لا یتجاوزنه، فکلامهم سبل مضبوطة، و طرق إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۹ معروفة محصورة. و

هذا كما يشتبه على من يدّعى الشعر من أهل زماننا، و العلم بهذا الشأن، فيدّعى أنه أشعر من البحترى، و يتوهم أنه أدق مسلكا من أبى نواس و أحسن طريقا من مسلم. و أنت تعلم أنهما متباعدان، و تتحقق أنهما لا يجتمعان، و لعل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه، و يطالع ضياء نجمه، و يراعى حقوق جناحه، و هو راكد فى موضعه، و لا يضر البحترى ظنه، و لا يلحقه بشأوه و همه. فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن، و موقع بلاغته، و عجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه و يدل على عجزه، و يبين عن جهله، و يصرح بسخافة فهمه، و ركاكة عقله. و إنما قدمنا ما قدمناه فى هذا الفصل لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن، و عجيب نظمه، و بديع تأليفه أمر لا يجوز غيره و لا يحتمل سواه، و لا يشتبه على ذى بصيرة و لا يخيل عند أخى معرفة كما يعرف الفضل بين طباع الشعراء من أهل الجاهلية، و بين المخضرمين و بين المحدثين و يميز بين من يجرى على شاكلة طبعه و غريزة نفسه، و بين من يشتغل بالتكلف و التصنع، و بين ما يصير التكلف له كالمطبوع، و بين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع. هيهات هيهات، هذا أمر و إن دق فله قوم يقبلونه علما، و أهل يحيطون به فهما، و يعرفونه إليك إن شئت، و يصورونه لديك إن أردت، و يجلونه على خواطرك إن أحببت، و يعرضونه لفطنتك إن حاولت، و قد قال القائل: للحرب و الضرب أقوام لها خلقوا و للدّواوين كتّاب و حسّاب و لكل عمل رجال، و لكل صنعة ناس، و فى كل فرقة الجاهل و العالم و المتوسط. و لكن قد قلّ من يميز فى هذا الفن خاصة، و ذهب من يحصل فى هذا الشأن إلا قليلا، فإن كنت ممن هو بالصفة التى وصفناها من التناهى فى معرفة الفصاحات، و التحقيق بمجارى البلاغات، فإنما يكفيك التأمل و يغنيك التصور، و إن كنت فى الصنعة مرمدا، و فى المعرفة بها متوسطا، فلا بد لك من التقليد، و لا غنى بك عن التسليم. إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها، و الشادى فيها كالبائن منها. فإن أراد أن يقرب عليه أمرا، و يفسح له طريقا، و يفتح له بابا، ليعرف به إعجاز القرآن. فإنا نضع بين يديه الأمثلة، و نعرض عليه الأساليب، و نصور له صورة كل قبيل من النظم و النثر، و نحضر له من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله و يراعيه حق مراعاته، فيستدل استدلال العالم، و يستدرك استدراك الناقد، و يقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلهية، الجامع بين الحكم و الحكم. و الإخبار عن الغيوب و الغائبات، و المتضمن لمصالح الدنيا و الدين. و المستوعب لجلية اليقين و المعانى المخترعة فى تأسيس أصل الشريعة و فروعها بالألفاظ الشريفة، على تفننها و تصرفها. و تعمد إلى شىء من الشعر المجمع عليه فتبين وجه النقص فيه، و تدل على إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۰ انحطاط رتبته، و وقوع أبواب الخلل فيه حتى إذا تأمل ذلك و تأمل ما نذكره من تفصيل إعجاز القرآن و فصاحته و عجيب براعته، انكشف له و اتضح، و ثبت ما وصفناه لديه و وضح. و ليعرف حدود البلاغة، و موقع البيان و البراعة، و وجه التقدم فى الفصاحة و ذكر الجاحظ فى كتاب البيان و التبيين أن الفارسى سئل فقيل له: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل. و سئل اليونانى عنها فقال: تصحيح الأقسام و اختيار الكلام. و سئل الرومى عنها فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة و الغزارة يوم الإطالة. و سئل الهندى عنها فقال: وضوح الدلالة و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة، و قال مرة: التماس حسن الموقع و المعرفة بساحات القول، و قلة الخرق بما التبس من المعانى، أو غمض و شرد من اللفظ و تعذر. و زينته أن تكون الشمائل موزونة، و الألفاظ معدلة، و اللهجة نقية، و أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، و يكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة، و لا يدقق المعانى كل التدقيق، و لا ينقح الألفاظ كل التنقيح، و يصفيها كل التصفية، و يهذبها بغاية التهذيب. و أما «البراعة» ففيما يذكر أهل اللغة، الحذق بطريقة الكلام و تجويده. و قد يوصف بذلك كل متقدم فى قول أو صناعة. و أما «الفصاحة» فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، و قد قيل معناها الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس، على عبارات جلية، و معان نقية بهية. و الذى يصور عندك ما ضمنا تصويره، و يحصل عندك معرفته إذ كنت فى صنعة الأدب متوسطا، و فى علم العربية متبينا، أن تنظر أولا فى نظم القرآن، ثم فى شىء من كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فتعرف الفصل بين النظمين، و الفرق بين الكلامين، فإن تبين لك الفصل و وقفت على جلية الأمور و حقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، و صادفت المقصد. و إن لم تفهم الفرق و لم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد، و علمت أنك من جملة العامة، و أن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

خطبة للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم: روی طلحة بن عبید اللّه، قال سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یخطب علی منبره یقول: «ألا أیها الناس توبوا إلی ربکم قبل أن تموتوا، و بادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، و صلوا الذی بینکم و بین ربکم بکثرة ذکرکم له، و کثرة الصدقة فی السّر و العلانیة ترزقوا و تؤجروا و تنصروا. و اعلموا أن اللّه عز و جل قد افترض علیکم الجمعة فی إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۱ مقامی هذا، فی عامی هذا، فی شهری هذا، إلی یوم القیامة، حیاتی و من بعد موتی. فمن ترکها و له إمام، فلا- جمع اللّه له شمله، و لا بارک اللّه فی أمره، ألا و لا حجّ له. ألا و لا صوم له. ألا و لا صدقة له. ألا و لا برّ له. ألا و لا یؤم أعرابی مهاجرا. ألا و لا یؤم فاجر مؤمنا. إلا أن یقهره سلطان یخاف سیفه أو سوطه» «۱». خطبة له صلّی اللّه علیه و سلّم: «أیها الناس، إن لکم معالم فانتهوا إلی معالمکم. و إن لکم نهایة فانتهوا إلی نهایتکم. إن المؤمن بین مخافتین؛ بین أجل قد مضی لا یدری ما اللّه صانع فیه، و بین أجل قد بقی لا یدری ما اللّه تعالی قاض علیه فیه. فلیأخذ العبد لنفسه من نفسه، و من دنیاه لآخرته، و من الشبیبة قبل الکبر، و من الحیاة قبل الموت، و الذی نفس محمد بیده ما بعد الموت من مستعتب، و لا بعد الدنیا دار إلا الجنة أو النار» «۲». خطبة له صلّی اللّه علیه و سلّم: «إن الحمد للّه أحمد و أستعینه. نعوذ باللّه من شرور أنفسنا، و سیئات أعمالنا. من یهد اللّه فلا مضل له. و من یضلل فلا هادی له. و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له. إن أحسن الحدیث کتاب اللّه، قد أفلح من زینه اللّه فی قلبه، و أدخله فی الإسلام بعد الکفر، و اختاره علی ما سواه من أحادیث الناس إنه أصدق الحدیث و أبلغه. أحبوا من أحب اللّه و أحبّوا اللّه من کل قلوبکم. و لا تملوا کلام اللّه و ذکره. و لا تقسوا علیه قلوبکم. اعبدوا اللّه و لا تشرکوا به شیئا، اتقوا اللّه حق تقاته و صدقوا صالح ما تعملون بأفواهکم، و تحابوا بروح اللّه بینکم. و السلام علیکم و رحمة اللّه» «۳».

لیبلّغ الشاهد الغائب ..

لیبلّغ الشاهد الغائب .. خطبة له صلّی اللّه علیه و سلّم فی أیام التشریق: قال بعد حمد اللّه: «أیها الناس، هل تدرون فی أی شهر أنتم، و فی أی یوم أنتم، و فی أی بلد أنتم، قالوا: فی یوم حرام، و شهر حرام، و بلد حرام «۴». قال: ألا فإن دماءکم و أموالکم و أعراضکم علیکم حرام، کحرمة یومکم هذا، فی شهرکم هذا، فی بلدکم هذا، إلی یوم تلقونه» «۵».

(۱) الطبرانی ۱ / ۲۷۹، و الجوامع (۹۵۸۹)، و الکنز (۱۰۱۷۰). (۲) القرطبی ۱۸/ ۱۱۶. (۳) مسلم فی: الجمعة (۴۶)، و القرطبی ۱۱/ ۲۱۸، و دلائل النبوة ۲/ ۲۴۷ و ۵۲۴. (۴) الدرّ ۳/ ۲۳۴. (۵) أحمد ۴/ ۳۳۷ و ۵/ ۳۷، و ۷۲ و الطبرانی ۱۸/ ۳۱۲، و إرواء الغلیل ۱/ ۴۳، و قال حفظه اللّه: صحیح. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۲ ثم قال: «اسمعوا منی تعیشوا «۱». ألا- لا- تظالموا ثلاثا. ألا إنه لا یحل مال امرئ مسلم إلا بطیب نفس منه «۲». ألا إن کل دم و مال و مأثرة کانت فی الجاهلیة تحت قدمی هذه «۳». ألا و إن أول دم وضع دم ربیعة بن الحرث بن عبد المطلب کان مسترضعا فی بنی لیث فقتلته هذیل «۴». ألا- و إن کل ربا کان فی الجاهلیة موضوع «۵». ألا- و إن اللّه تعالی قضی أن أول ربا یوضع ربا عمی العباس «۶». فَلَکُمْ رُؤُسُ أَمْوالِکُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ «۷». ألا و إن الزمان قد استدار کهیئته یوم خلق اللّه السموات و الأرض «۸»، منها أربعة حرم. ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ، فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ «۹»، ألا لا ترجعوا بعدی کفارا، یضرب بعضکم رقاب بعض «۱۰». ألا و إن الشیطان قد یئس أن یعبده المصلّون .. و لکن فی التحریش بینکم «۱۱». اتقوا اللّه فی النساء فإنهن عندکم عوان لا یملکن لأنفسهن شیئا، و إن لهن علیکم حقا. و لکم علیهن حق «۱۲». ألا لا یوطئن فرشکم أحد غیرکم. فإن خفتم نشوزهن فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ «۱۳»، و اضربوهن ضربا غیر مبرح. و لهن رزقهن و کسوتهن بالمعروف. فإنما أخذتموهن بأمانة اللّه تعالی. و استحللتم فروجهن بکلمة اللّه «۱۴». ألا و من

(۱) أحمد ۵/ ۷۲، و الدرّ ۳/ ۲۳۴، و البدایة ۵/ ۲۰۱. (۲) أحمد ۵/ ۷۲. (۳) أحمد ۵/ ۷۳. (۴) الدر المنثور ۳/ ۲۳۴. (۵) أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ ۳/ ۲۳۴، و الطبری ۳/ ۷۲. (۶)

أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ ۳/ ۲۳۵. (۷) آیة (۲۷۹) سورة البقرة. (۸) البخاری ۶/ ۸۳ و ۷/ ۱۲۹، و مسلم فی: القیامة (۱۲۹) و أبو داود (۱۹۴۷)، و أحمد ۵/ ۳۷ و ۷۳. (۹) آیة (۳۶) سورة التوبة. (۱۰) البخاری ۱/ ۴۱، و ۲/ ۲۱۶ و ۵/ ۲۲۳ و ۲۲۴ و ۷/ ۱۳۰ و ۸/ ۴۸ و ۱۹۸ و ۹/ ۳ و ۶۳ و ۶۴ و ۱۶۳، و مسلم فی: الإیمان (۱۱۹ و ۱۲۰)، و أبو داود (۴۶۸۶)، و الترمذی (۲۱۹۳)، و النسائی ۷/ ۱۲۶ و ۱۲۷، و ابن ماجة (۳۹۴۲ و ۳۹۴۳)، و أحمد ۱/ ۲۳۰ و ۴۰۲ و ۲/ ۱۰۴. (۱۱) أحمد ۳/ ۳۵۴، و الاتحاف ۷/ ۲۸۲. (۱۲) مشکل الآثار ۳/ ۲۱۲. (۱۳) آیة (۳۴) سورة النساء. (۱۴) مسلم فی: الحج (۱۴۷)، و الترمذی (۱۱۶۳)، و أبو داود (۱۹۰۵)، و ابن ماجة (۳۰۷۴)، و أحمد ۵/ ۷۳، و الدارمی ۲/ ۴۸، و الأرواء ۷/ ۲۲۷. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۳ کانت عنده أمانة فلیؤدها إلی من ائتمنه علیها» «۱». ثم بسط یده فقال: «ألا هل بلغت. ألا هل بلغت. لیبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أبلغ من سامع» «۲». خطبته صلّی اللّه علیه و سلّم یوم فتح مکة: وقف علی باب الکعبة ثم قال: «لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له. صدق اللّه وعده. و نصر عبده. و هزم الأحزاب وحده «۳». ألا کل مأثرة أو دم أو مال یدعی فهو تحت قدمی هاتین، إلا سدانة البیت، و سقایة الحاج «۴». ألا و قتل الخطأ العمد بالسوط و العصا فیه الدیة مغلظة. منها أربعة خلفة فی بطونها أولادها. یا معشر قریش، إن اللّه قد أذهب عنکم نخوة الجاهلیة و تعظمها بالآباء «۵». الناس من آدم، و آدم خلق من تراب. ثم تلا هذه الآیة یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی «۶» الآیة. یا معشر قریش. أو یا أهل مکة. ما ترون أنی فاعل بکم؟ قالوا: خیرا، أخ کریم و ابن أخ کریم. قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء».

من کان همه الآخرة جمع اللّه له شمله ..

من کان همه الآخرة جمع اللّه له شمله .. خطبته صلّی اللّه علیه و سلّم بالخیف: روی زید بن ثابت أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم خطب بالخیف من منی، فقال: «نضّر اللّه عبدا سمع مقالتی فوعاها. ثم أداها إلی من لم یسمعها. فرب حامل فقه لا فقه له. و رب حامل فقه إلی من هو أفقه منه «۷». ثلاث لا یغل علیهن قلب المؤمن؛ إخلاص العمل للّه، و النصیحة لأولی الأمر، و لزوم الجماعة. إن دعوتهم تکون من ورائه «۸». و من کان همه الآخرة، جمع اللّه له شمله، و جعل غناه فی قلبه. و أتته الدنیا و هی راغمة «۹». و من کان همه الدنیا فرق اللّه أمره، و جعل فقره بین عینیه، و لم یأته من الدنیا إلا ما کتب له». خطبة له صلّی اللّه علیه و سلّم: رواها أبو سعید الخدری، رضی اللّه عنه. خطب بعد العصر فقال: «ألا إن الدنیا خضرة حلوة. إلا و إن اللّه مستخلفکم فیها، فناظر کیف تعملون، فاتقوا الدنیا (_____ ۱) أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ المنثور ۳/ ۲۳۵. (۲) البخاری ۱/ ۲۶ و ۳۷، و مسلم فی الحج (۴۴۶)، و الترمذی (۸۰۹)، و النسائی فی: الحج (۱۱۰)، و ابن ماجة (۲۳۳ و ۲۳۴)، و أحمد ۵/ ۴۵، و الدارمی ۲/ ۶۸. (۳) أحمد ۳/ ۴۱۰. (۴) سبق تخریجه. (۵) الاتحاف ۸/ ۴۱۹، و الدرّ المنثور ۶/ ۹۸. (۶) آیة (۱۳) سورة الحجرات. (۷) ابن ماجة (۲۳۰، ۲۳۱)، و أحمد ۴/ ۸۰. (۸) أحمد ۳/ ۲۲۵ و ۴/ ۸۰ و ۸۲، و الدارمی ۱/ ۷۵. (۹) الترمذی (۲۴۶۵)، و الصحیحة (۹۴۹). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۴ و اتقوا النساء «۱». ألا لا یمنعن رجلا مخافة الناس أن یقول الحق إذ علمه» «۲». قال: و لم یزل یخطب حتی لم تبق من الشمس إلا حمرة علی أطراف السعف، فقال: «إنه لم یبق من الدنیا فیما مضی إلا کما بقی من یومکم هذا». کتاب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلی ملک فارس: «من محمد رسول اللّه إلی کسری عظیم فارس. سلام علی من اتبع الهدی، و آمن باللّه و رسوله، و شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له، و أن محمدا عبده و رسوله. و أدعوک بدعاء اللّه، فإنی أنا رسول اللّه إلی الناس کافة، لأنذر من کان حیا، و یحق القول علی الکافرین فأسلم تسلم». کتاب له صلّی اللّه علیه و سلّم إلی النجاشی: «من محمد رسول اللّه إلی النجاشی ملک الحبشة؛ سلم أنت. فإنی أحمد إلیک اللّه الملک القدوس السلام المؤمن المهیمن. و أشهد أن عیسی ابن مریم روح اللّه و کلمته ألقاها إلی مریم البتول الطیبة. فحملت بعیسی فحملته من روحه، و نفخه کما خلق آدم من طین بیده و نفخه. و إنی أدعوک إلی اللّه وحده لا شریک له، و الموالاة علی طاعته. و أن تتبعنی و تؤمن بالذی جاءنی: و إنی أدعوکم و جنودک إلی اللّه تعالی. فقد بلغت و نصحت، فاقبلوا نصحی، و السلام علی من اتبع الهدی» «۳». ** فلا تدخلها بغیر

هذا.! نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، سهيل بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، و يكفّ بعضهم عن بعض. على أنه من أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بغير إذن وليّه ردّه عليهم. و من جاء قريشا ممن مع رسول اللّه لم يردّوه عليه. و أن بيننا عيبة مكفوفة و أنه لا إسلال و لا إغلال. و أنه من أحبّ أن يدخل فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عقده دخل فيه. و من أحب أن يدخل فى عهد قريش و عقدهم دخل فيه. و أنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عاما قابلا، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا. و أنّ معك سلاح الراكب، و السيوف فى الركب، فلا تدخلها بغير هذا». و لا أطوّل عليك. و أقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك فى الصنعة حظ، أو كان لك فى هذا المعنى حس. أو كنت تضرب فى الأدب بسهم، أو فى العربية بقسط، و إن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن،

(_____ ۱) مسلم ص (۲۰۹۸)، و الترمذى (۲۱۹۱)، و ابن ماجة (۴۰۰۰)، و أحمد ۶/ ۳۶۴. (۲) أحمد ۳/ ۴۷، و البيهقى ۱۰/ ۹۰، و ابن حبان (۱۸۴۲)، و ابن عساكر ۶/ ۱۱۱. (۳) سيرة ابن هشام ۱/ ۳۱۷. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۵ و بين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى خطبه و رسائله، و ما عساك تسمعه من كلامه، و يتساقط إليك من ألفاظه. و أقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا، أو أمدا مديدا، و ميدانا واسعا، و مكانا شاسعا، فإن قلت: لعله أن يكون تعمل للقرآن، و تصنع لنظمه، و شبه عليه الشيطان ذلك من خبثه، فتثبت فى نفسك، و ارجع إلى عقلك، و اجمع لبك، و تيقن أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام، و المحافل الكبار، و المواسم الضخام، و لا يتجوز فيها و لا يستهان بها. و الرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه، و يشمر لها عن جد و اجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال، و كيف يتعرض للتفريط، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى، و أن كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الأمر النبوى. فإذا أردت زيادة فى التبيّن، و تقدما فى التعرف، و إشرافا على الجلية، و فوزا بمحكم القضية، فتأمل- هداك اللّه- ما ننسخه لك من خطب الصحابة و البلغاء، لتعلم أن نسجها و نسج ما نقلنا من خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم واحد، و سبكها سبك غير مختلف. و إنما يقع بين كلامه و كلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، و بين شعر الشاعرين. و ذلك أمر له مقدار معروف، و حدّ ينتهى إليه مضبوط. فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج، و لجملته طريق، و تبينت ما يمكن فيه التفاوت، نظرت أخرى، و تأملته مرة ثانية، فتراعى بعد موقعه، و عالى محله و موضعه، و حكمت بواجب من اليقين، و ثلج الصدر بأصل الدين. خطبة لأبى بكر الصديق رضى اللّه عنه: قام خطيبا فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإنى وليت أمركم، و لست بخيركم. و لكن نزل القرآن و سن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و علّمنا فعلمنا. و اعلموا أن أكيس الكيس التقى. و أن أحمق الحمق الفجور. و أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه. و أن أضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق «۱». إيها الناس، إنما أنا متبع، و لست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينونى. و إن زغت فقومونى». عهد أبى بكر الصديق إلى عمر رضى اللّه عنه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر، خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، آخر عهده بالدنيا، و أول عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر، و يتّقى فيها الفاجر «۲». إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ و عدل، فذاك ظنى به، و رأيى فيه.

(_____ ۱) تاريخ الخلفاء ص (۶۹). (۲) تاريخ الخلفاء ص (۸۲). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۶ و إن جار و بدّل، فلا علم لى بالغيب. و الخير أردت لكم، و لكل امرئ ما اكتسب من الإثم وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «۱». و فى حديث عبد الرحمن بن عوف- رحمة اللّه عليه- قال: دخلت على أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه، فى علته التى مات فيها، فقلت: أراك بارئا يا خليفة رسول اللّه، فقال: أما إنى على ذلك لشديد الوجع، و ما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى. إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه. و اللّه لتتخذن نضائد الديباج، و ستور الحرير. و لتألمنّ النوم على الصوف الأذربى، كما يألم أحدكم النوم على حسك

السعدان. و الذی نفسی بیده لأن یقدّم أحدکم فتضرب رقبته فی غیر حد، خیر له من أن یخوض غمرات الدنیا. یا هادی الطریق جرت إنما هو و اللّه الفجر أو البحر. قال: فقلت: خفّض علیک یا خلیفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فإن هذا یهیضک إلی ما بک. فو اللّه ما زلت صالحا مصلحا، لا- تأسی علی شیء فاتک من أمر الدنیا؛ و لقد تخلیت بالأمر وحدک، فما رأیت إلا خیرا. و له خطب و مقامات مشهورة اقتصرنا منها علی ما نقلنا منها قصة السقیفة: نسخة کتاب: کتب أبو عبیدة بن الجراح. و معاذ بن جبل إلی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنهم؛ سلام علیک فإنا نحمد إلیک اللّه الذی لا- إله إلا هو. أما بعد: فإنا عهدناک و أمر نفسک لک مهم، فأصبحت و قد ولیت أمر هذه الأمة، أحمرها و أسودها. یجلس بین یدیک الصدیق و العدو، و الشریف و الوضیع، و لکل حصته من العدل. فانظر کیف أنت یا عمر عند ذلک، فإنا نحذرک یوما تعنو فیه الوجوه، و تحب فیه القلوب، و إنا کنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع فی آخر زمانها أن یکون إخوان العلانیة أعداء السریرة و إنا نعوذ باللّه أن تنزل کتابنا سوی المنزل الذی نزل من قلوبنا. فإنا إنما کتبنا إلیک نصیحة و السلام. فکتب إلیهما: «من عمر بن الخطاب إلی عبیدة بن الجراح، و معاذ بن جبل. سلام علیکما، فإنی أحمد إلیکما اللّه الذی لا إله إلا هو. أما بعد: فقد جاءنی کتابکما تزعمان أنه بلغکما أنی ولیت أمر هذه الأمة، أحمرها و أسودها، یجلس بین یدی الصدیق و العدو، و الشریف و الوضیع. و کتبتما أن انظر کیف أنت یا عمر عند ذلک و أنه لا- حول و لا- قوة لعمر

(_____ ۱) آیة (۲۲۷) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۷

عند ذلک إلا باللّه. و کتبتما تحذرانی ما حذرت به الأمم قبلنا. و قدیما کان اختلاف اللیل و النهار بآجال الناس، یقربان کل بعید، و یبلیان کل جدید، و یأتیان بکل موعود، حتی یصیر الناس إلی منازلهم من الجنة أو النار. ثم توفّی کل نفس بما کسبت. إن اللّه سریع الحساب. و کتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة یرجع فی آخر زمانها، أن یکون إخوان العلانیة أعداء السریرة، و لستم بذاک. و لیس هذا ذلک الزمان، و لکن زمان ذلک حین تظهر الرغبة و الرهبة، فتکون رغبة بعض الناس إلی إصلاح دینهم، و رهبة بعض الناس إصلاح دنیاهم!! و کتبتما تعوذانی باللّه أن أنزل کتابکما منی سوی المنزل الذی نزل من قلوبکما. و إنما کتبتما نصیحة لی، و قد صدقتکما فتعهدانی منکما بکتاب و لا غنی بی عنکما». عهد من عهود عمر رضی اللّه عنه: «بسم اللّه الرحمن الرحیم: من عبد اللّه، عمر بن الخطاب أمیر المؤمنین إلی عبد اللّه بن قیس. سلام علیک. أما بعد: فإن القضاء فریضة محکمة، و سنة متبعة، فافهم إذا أدلی إلیک، فإنه لا ینفع تکلّم بحق لا نفاذ له. آس بین الناس فی وجهک و عدلک و مجلسک، حتی لا یطمع شریف فی حیفک، و لا- ییأس ضعیف من عدلک. البینة علی من ادعی، و الیمین علی من أنکر، و الصلح جائز بین المسلمین إلا صلحا أحل حراما، أو حرم حلالا. و لا یمنعنّک قضاء قضیته بالأمس فراجعت فیه عقلک، و هدیت لرشدک، أن ترجع إلی الحق، فإن الحق قدیم، و مراجعة الحق خیر من التمادی فی الباطل. الفهم، الفهم، فیما تلجلج فی صدرک مما لیس فی کتاب و لا سنة. ثم اعرف الأشباه و الأمثال، و قس الأمور عند ذلک. و اعمد إلی أشبهها بالحق لمن ادعی حقا غائبا، أو بینة أمرا ینتهی إلیه. فإن أحضر بینة أخذت له بحقه، و لا استحللت علیه القضیة فإنه أنفی للشک، و أجلی للعمی. المسلمون عدول بعضهم علی بعض إلا مجلودا فی حد أو مجربا علیه شهادة زور، أو ظنینا فی ولاء أو نسب. فإن اللّه تولی منکم السرائر، و درأ بالإیمان و البینات. و إیاک و الغلق و الضجر و التأذی بالخصوم، و التنکر عند الخصومات، فإن الحق فی مواطن الحق یعظم اللّه به الأجر، و یحسن به الذخر. فمن صحت نیته و أقبل علی نفسه کفاه اللّه ما بینه و بین الناس. و من تخلق للناس بما یعلم اللّه أنه لیس من نفسه، شانه اللّه، فما ظنک بثواب اللّه عز و جل فی عاجل رزقه، و خزائن رحمته، و السلام». و من کلام عثمان بن عفان رضی اللّه عنه؛ خطبة له رضی اللّه عنه قال: «إن لکل شیء إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۸ آفة، و إن لکل نعمة عاهة. فی هذا الدین عیابون، ظنانون، یظهرون لکم ما تحبون، و یسرون ما تکرهون. یقولون لکم، و تقولون، طغام مثل النعام، یتبعون أول ناعق أحب مواردهم إلیهم النازح. لقد أقررتم لابن الخطاب بأکثر مما نقمتم علیّ، و لکنه و قمکم و قمعکم و زجرکم زجر النعام المخزمة. و اللّه إنی لأقرب ناصرا، و أعز نفرا، و أقمن إن قلتم هلم أن تجاب دعوتی من عمر. هل تفقدون من حقوقکم شیئا؛ فما بالی لا أفعل فی الحق ما أشاء. إذا فلم کنت إماما»! کتابه إلی علی حین حضر

رضى اللّه عنهما: «أما بعد: فقد بلغ السيل الزبى، و جاوز الحزام الطبين، و طمع فىّ من لا يدفع عن نفسه. فإذا أتاك كتابى هذا، فأقبل إلىّ؛ علىّ كنت أم لى. فإن كنت مأكولا فكن خير آكل و إلا فأدركنى و لما أمزّق» و من كلام على رضى اللّه عنه؛ قال: لما قبض أبو بكر رضى اللّه عنه، ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. «و جاء على باكيا مسترجعا و هو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة. حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر فقال: رحمك اللّه أبا بكر كنت إلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنسه، و ثقته، و موضع سره، كنت أول القوم إسلاما و أخلصهم إيمانا و أشهدهم يقينا و أخوفهم للّه و أعظمهم غناء فى دين اللّه، و أحوطهم على رسوله. و آمنهم على الإسلام، و آمنهم على أصحابه، أحسنهم صحبة، و أكثرهم مناقب، و أفضلهم سوابق و أرفعهم درجة، و أقربهم وسيلة، و أقربهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سننا و هديا و رحمة و فضلا. و أشرفهم منزلة، و أكرمهم عليه و أوثقهم عنده. جزاك اللّه عن الإسلام و عن رسول خيرا. كنت عنده بمنزلة السمع و البصر. صدقت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حين كذبه الناس، فسمّاك اللّه فى تنزيله صديقا. فقال: وَ الَّذِى جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ «۱» واسيته حين بخلوا، و قمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا، و صحبته فى الشدة أكرم الصّحبة، ثانى اثنين، و صاحبه فى الغار، و المنزل عليه السّكينة و الوقار. و رفيقه فى الهجرة، و خليفته فى دين اللّه و فى أمته أحسن الخلافة حين ارتدّ الناس فنهضت حين وهن أصحابك، و برزت حين استكانوا، و قويت حين ضعفوا و قمت بالأمر حين فشلوا، و نطقت حين تتعتعوا. و مضيت بنوره إذ وقفوا، و اتبعوك فهدوا و كنت أصوبهم منطقا، و أطولهم صمتا، و أبلغهم قولا، و أكثرهم رأيا و أشجعهم نفسا، و أعرفهم بالأمور و أشرفهم عملا. كنت للدين يعسوبا أولا، حين نفر عنه الناس، و آخرا حين أقبلوا، و كنت للمؤمنين أبا

(۱) آية (۳۲) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۹

رحيما إذ صاروا عليك عيالا، فحملت أثقال ما ضعفوا، و رعيت ما أهملوا. و حفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خنعوا، و علوت إذ هلعوا، و صبرت إذ جزعوا. و أدركت أوتار ما طلبوا، و راجعوا رشدهم برأيك، فظفروا و نالوا بك ما لم يحتسبوا، و كنت كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أمنّ الناس عليه فى صحبتك، و ذات يدك. و كنت كما قال: ضعيفا فى بدنك، قويا فى أمر اللّه، متواضعا فى نفسك، عظيما عند اللّه، جليلا فى أعين الناس، كبيرا فى أنفسهم. لم يكن لأحد فيك مغمز، و لا لأحد مطمع، و لا لمخلوق عندك هوادة. الضعيف الذليل عندك قوى عزيز، حتى تأخذ له بحقه. و القوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق. القريب و البعيد عندك سواء. أقرب الناس إليك أطوعهم للّه شأنك الحق و الصدق و الرفق. قولك حكم. و أمرك حزم، و رأيك علم و عزم. فأبلغت و قد نهج السبيل، و سهل العسير، و أطفأت النيران، و اعتدل بك الدين، و قوى الإيمان، و ظهر أمر اللّه و لو كره الكافرون. و اتعبت من بعدك إتعابا شديدا. و فزت بالجد فوزا مبينا. فجللت عن البكاء، و عظمت رزيتك فى السماء، و هدت مصيبتك الأنام. فإنا للّه و إنا إليه راجعون. رضينا عن اللّه قضاءه. و سلمنا له أمره. فو اللّه لن يصاب المسلمون بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمثلك أبدا. فالحقك اللّه بنبيه، و لا حرمنا أجرك، و لا أضلنا بعدك». و سكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم. خطبة أخرى لعلى رضى اللّه عنه: «أما بعد: فإن الدنيا قد أدبرت و أذنت بوداع، و إن الآخرة قد أقبلت و أشرفت باطلاع، و إن المضمار اليوم و غدا السباق. ألا و إنكم فى أيام مهل، و من ورائه أجل. فمن أخلص فى أيام أمله فقد فاز. و من قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله، و ضره أمله. ألا فاعملوا للّه فى الرغبة، كما تعملون له فى الرهبة. ألا و إنى لم أر كالجنة، نام طالبها، و لا كالنار، نام هاربها. ألا و إنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل. و من لم يستقم به الهدى يجر به الضلال. ألا و إنكم قد أمرتم بالظّعن، و دللتم على الزاد. ألا و إنّ أخوف ما أخاف عليكم الهوى و طول الأمل». و خطب فقال بعد حمد اللّه: «أيها الناس؛ اتقوا اللّه، فما خلق امرؤ عبثا، فيلهو. و لا أهمل سدى، فيلغو. ما دنياه التى خسّست إليه بخلف من الآخرة التى قبحها سوء النظر

إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۰

إليه. و ما الخسيس الذى ظفر به من الدنيا بأعلى همته، كالآخر الذى ظفر به من الآخرة من سهمته». و كتب على رضى اللّه عنه إلى عبد اللّه بن عباس رحمه اللّه و هو بالبصرة: «أما بعد: فإن المرء يسرّ بدرك ما لم يكن

ليحرمه. و يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه. فليكن سرورك بما قدمت: من أجر أو منطق. و ليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك. و انظر ما فاتك من الدنيا، فلا تكثر عليه جزعا، و ما نلته، فلا تنعم به فرحا. و ليكن همّك لما بعد الموت». كلام لابن عباس رضى اللّه عنهما: قال عتبة بن أبى سفيان لابن عباس: ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبى موسى، يوم الحكمين؟ قال: «منعه و اللّه من ذلك حاجز القدر، و قصر المدّة، و محنة الابتلاء. أما و اللّه لو بعثنى مكانه لاعترضت له فى مدارج نفسه، ناقضا لما أبرم، و مبرما لما نقض. أسف إذا طار، و أطير إذا أسفّ. و لكن مضى قدر، و بقى أسف. و مع يومنا غد. و الآخرة خير لأمير المؤمن من الأولى». خطبة لعبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه: «أصدق الحديث كتاب اللّه. و أوثق العرا كلمة التقوى. خير الملل ملّة إبراهيم. و أحسن السنن سنة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. خير الأمور أوساطها. و شر الأمور محدثاتها. ما قل و كفى، خير مما كثر و ألهى. خير الغنى غنى النفس. و خير ما ألقى فى القلب اليقين. الخمر جماع الإثم. النساء حبالة الشيطان. الشباب شعبة من الجنون. حب الكفاية مفتاح العجزة. من الناس من لا يأتى الجماعة إلا دبرا. و لا يذكر اللّه إلا هجرا، أعظم الخطايا اللسان الكذوب. سباب المؤمن فسق. و قتاله كفر. و أكل لحمه معصية. من يتألّ على اللّه يكذبه من يغفر يغفر له. مكتوب فى ديوان المحسنين: من عفا عفى عنه. الشقى من شقى فى بطن أمه و السعيد من وعظ بغيره. الأمور بعواقبها. ملاك العمل خواتيمه. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء يصبر عليه. و من لا يعرف البلاء ينكره». خطبة لمعاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه: قال الراوى لما حضرته الوفاة قال لمولى له: من بالباب؟ فقال: نفر من قريش يتباشرون بموتك. فقال: ويحك، و لم؟ ثم أذن للناس فحمد إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۱ اللّه فأوجز ثم قال: «أيها الناس، إنا قد أصبحنا فى دهر عنود، و زمن شديد. يعدّ فيه المحسن مسيئا. و يزداد الظالم فيه عتوا. لا ننتفع بما علمنا. و لا نسأل عما جهلنا. و لا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا. فالناس على أربعة أصناف: منهم: من لا يمنعه الفساد فى الأرض إلا مهانة نفسه؛ و كلال حدّه، و نضيض وفره. و منهم: المسلط لسيفه، و المجلب برجله، و المعلن بشره، قد أشرط نفسه، و أوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يقرعه و بئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنا، و ممّا لك عند اللّه عوضا. و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، و لا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، و قارب من خطوه، و شمّر من ثوبه، و زخرف نفسه للأمانة، و اتخذ ستر اللّه ذريعة إلى المعصية، و منهم من أقعده عن الملك ضئولة فى نفسه، و انقطاع سببه، فقصرته الحال، فتحلى باسم القناعة، و تزين بلباس الزهاد، و ليس من ذلك فى مراح و لا مغدى. و بقى رجال أغض أبصارهم ذكر المرجع، و أراق دموعهم خوف المحشر. فهم بين شديد ناد، و خائف منقاد، و ساكت مكعوم، وداع مخلص، و موجع ثكلان، قد أخملتهم التّقيّة، و شملتهم الذلة. فهم فى بحر أجاج. أفواههم دامية، و قلوبهم قريحة، قد وعظوا حتى ملوا، و قهروا حتى ذلوا، و قتلوا حتى قلوا. فلتكن الدنيا فى عيونكم أقل من متانة القرظ، و قراضة الجلم، و اتعظوا بمن كان قبلكم أن يتعظ بكم من بعدكم. فارفضوها ذميمة، فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم». خطبة لعمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه: «أيها الناس، إنكم ميتون، ثم إنكم مبعوثون. ثم إنكم محاسبين. فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصرتم. و لئن كنتم كاذبين لقد هلكتم. يا أيها الناس، إنه من يقدر له رزق برأس جبل، أو بحضيض أرض يأته، فاجملوا فى الطلب». خطبة للحجاج بن يوسف: حمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: «يا أهل العراق، و يا أهل الشقاق و النفاق، و مساوئ الأخلاق، و بنى اللّكيعة، و عبيد العصا. و أولاد الإماء، و الفقع بالقرقر. إنى سمعت تكبيرا لا يراد به اللّه. و إنما يراد به الشيطان. و إنما مثلى و مثلكم ما قاله ابن براقة الهمدانى: و كنت إذا قوم غزنى غزوتهم فهل أنا فى ذا بالهمذان ظالم إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۲ متى تجمع القلب الذكى و صارما و أنفا حميّا تجتنبك المظالم أما و اللّه لا تقرع عصا إلا جعلتها كأمس الدابر». خطبة لقس بن ساعدة الأيادى: أخبرنى محمد بن على الأنصارى بن محمد بن عامر قال: حدثنا على بن إبراهيم، حدثنا عبد اللّه بن داود بن عبد الرحمن العمرى قال: حدثنا الأنصارى على بن محمد الحنظلى من ولد حنظلة الغسيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن محمد بن حسان، عن محمد بن حجاج اللخمى، عن مجالد، عن الشعبى، عن ابن عباس قال: و لما وفد وفد عبد القيس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: أيكم يعرف قس بن ساعدة؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول اللّه. قال: لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير لهن أحمر فقال: «أيها الناس اجتمعوا، و إذا اجتمعتم

فاسمعوا، و إذا سمعتم فعوا، و إذا وعيتم فقولوا، و إذا قلتم فاصدقوا. من عاش مات، و من مات فات. و كل ما هو آت آت. أما بعد: فإن فى السماء لخبرا، و إن فى الأرض لعبرا. مهاد موضوع، و سقف مرفوع، و نجوم تمور، و بحار لا تغور. أقسم باللّه قس قسما حقا لا كاذبا فيه، و لا آثما. لئن كان فى الأرض رضا ليكونن سخط. إن اللّه تعالى دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه. و قد أتاكم أوانه و لحقتكم مدته. ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا»؟ ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أيكم يروى شعره؟ فأنشدوه: فى الذاهبين الأوّلى ن من القرون لنا بصائر لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر و رأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر و الأكابر لا يرجع الماضى إل ى و لا من الباقين غابر أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر «۱» أخبرنى الحسن بن عبد اللّه بن سعيد، حدثنا على بن الحسين بن إسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد اللّه بن الضحاك، عن هشام عن أبيه، أن وفدا من إياد قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألهم عن حال قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس: يا ناعى الموت و الأموات فى جدث عليهم من بقايا بزّهم حرق دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم كما ينبّه من نوماته الصّعق

(_____ ۱) دلائل النبوة ۱ / ۲۸، و البداية و النهاية ۲/ ۲۳۱ و الطبرانى ۱۲/ ۸۸. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۳ منهم عراة و منهم فى ثيابهم منها الجديد و منها الأورق الخلق مطر و نبات، و آباء و أمهات و ذاهب و آت، و آيات فى إثر آيات، و أموات بعد أموات، ضوء و ظلام، و ليال و أيام، و غنى و فقير. و شقى و سعيد، و محسن و مسىء. أين الأرباب الفعلة ..؟ ليصلحن كل عامل عمله. كلا، بل هو اللّه واحد، ليس بمولود و لا والد، أعاد و أبدى. و إليه المآب غدا. أما بعد يا معشر أياد أين ثمود و عاد ..؟ و أين الآباء؟ و الأجداد؟ أين الحسن الذى لم يشكر؟ أين الظلم الذى لم ينقم؟ كلا و رب الكعبة ليعودن ما بدا. و لئن ذهب يوم ليعودن يوم. قال: و هو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن أياد بن نزار أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، و أول من توكأ على عصا، و أول من تكلم بأما بعد. خطبة لأبى طالب: «الحمد للّه الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، و زرع إسماعيل، و جعل لنا بلدا حراما، و بيتا محجوجا. و جعلنا الحكام على الناس، و أن محمدا بن عبد اللّه، ابن أخى، لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به، بركة، و فضلا، و عدلا، و مجدا، و نبلا. و إن كان فى المال مقلا، فإن المال عارية مسترجعة، و ظل زائل. و له فى خديجة بنت خويلد رغبة. و لها فيه مثل ذلك. و ما أردتم من الصداق فعلىّ». قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول و محاورتهم و خطبهم. و أحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ و الكتب المصنفة فى هذا الشأن فتأمل ذلك، و سائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة، عن السلف و أهل البيان و اللسان، و الفصاحة و الفطن، و الألفاظ المنثورة، و الأمثال المنقولة عنهم. ثم انظر بسكون طائر، و خفض جناح، و تفريغ لب، و جمع عقل فى ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس، و بين كلام رب العالمين. و تعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين. و تعلم الحد الذى يتفاوت بين كلام البليغ و البليغ، و الخطيب و الخطيب، و الشاعر و الشاعر، و بين نظم القرآن جملة. فإن خيل إليك أو شبه عليك، و ظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر و القرآن؛ لأن الشعر أفصح من الخطب، و أبرع من الرسائل، و أدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات، و لذلك قالوا له صلّى اللّه عليه و سلّم: هو شاعر، أو ساحر، و سوّل إليك الشيطان أن الشعر أبلغ و أعجب، و أرق و أبرع، و أحسن الكلام و أبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، و كلام بين المحققين. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۴

باب: أيهما أبلغ .. الشعر أم النثر؟!

باب: أيهما أبلغ .. الشعر أم النثر؟! أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب و الحذق بهذه الصناعة، مع تقدمه فى الكلام، يقول: إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة و البلاغة ما لا يتأتى فى الشعر، لأن الشعر يضيّق نطاق الكلام، و يمنع القول من انتهائه، و يصده عن تصرفه على سننه. و حضره من يتقدم فى صنعة الكلام، فراجعه فى ذلك، و ذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة. و أبدع إذا تضمن أسباب البلاغة. و يشهد عندى للقول الأخير أن معظم براعة كلام العرب فى الشعر. و لا

تجد فی منثور قولهم ما تجد فی منظومه. و إن کان قد أحدثت البراعة فی الرسائل علی حد لم یعهد فی سالف أیام العرب. و لم ینقل من دواوینهم و أخبارهم. و هو و إن ضیق نطاق القول، فهو یجمع حواشیه، و یضم أطرافه و نواحیه. فهو إذا تهذب فی بابه و وفی له جمیع أسبابه، لم یقاربه من کلام الآدمیین کلام. و لم یعارضه من خطابهم خطاب. و قد حکی عن المتنبی أنه کان ینظر فی المصحف فدخل إلیه بعض أصحابه فأنکر نظره فیه لما کان رآه علیه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المکی علی فصاحته کان مفحما. فإذا صحت هذه الحکایة عنه فی إلحاده، عرف بها أنه کان یعتقد أن الفصاحة فی قول الشعر أبلغ، و إذا کانت الفصاحة فی قول الشعر أو لم تکن، و بینا أن نظم القرآن یزید فی فصاحته علی کل نظم، و یتقدم فی بلاغته علی کل قول، بما یتضح به الأمر اتضاح الشمس، و یتبین به بیان الصبح، وقفت علی جلیة هذا الشأن. فانظر فیما نعرضه علیک، ما نعرضه. و نصور بفهمک ما نصوره. لیقع لک موقع عظیم شأن القرآن. و تأمل ما نرتبه، ینکشف لک الحق، و إذا أردنا تحقیق ما ضمناه لک، فمن سبیلنا أن نعمد إلی قصیدة متفق علی کبر محلها، و صحة نظمها، و جودة بلاغتها و معانیها، و إجماعهم علی إبداع صاحبها فیها، مع کونه من الموصوفین بالتقدم فی الصناعة، و المعروفین بالحذق فی البراعة، فنوقفک علی مواضع خللها، و علی تفاوت نظمها، و علی اختلاف فصولها، و علی کثرة فضولها، و علی شدة تعسفها، و بعض تکلفها، و ما نجمع من کلام رفیع، یقرن بینه و بین کلام وضیع، و بین لفظ سوقی یقرن بلفظ ملوکی، و غیر ذلک من الوجوه التی یجیء تفصیلها، و نبیّن ترتیبها و تنزیلها. فأما کلام مسیلمة الکذاب و ما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، و أسخف من أن نفکر فیه. و إنما نقلنا منه طرفا لیتعجب القارئ و لیتبصر الناظر. فإنه علی سخافته قد أضل، و علی رکاکته قد أذل. و میدان الجهل واسع، و ممن نظر فیما نقلناه عنه، و فهم إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۵ موضع جهله، کان جدیرا أن یحمد اللّه علی ما رزقه من فهم، و آتاه من علم. فمما کان یزعم أنه نزل علیه من السماء (و اللیل الأطخم، و الذئب الأدلم، و الجذع الأزلم، ما انتهکت أسید من محرم) و ذلک قد ذکر فی خلاف وقع بین قوم أتوه من أصحابه. و قال أیضا: (و اللیل الدامس و الذئب الهامس ما قطعت أسید من رطب و لا- یابس). و کان یقول: (و الشاة و ألوانها و أعجبها السوداء، و ألبانها و الشاة السوداء، و اللبن الأبیض إنه لعجب محض، و قد حرم المذق فما لکم لا- تجتمعون). و کان یقول: (ضفدع بنت ضفدعین، نقی ما تنقین أعلاک فی الماء و أسفلک فی الطین، و لا الشارب تمنعین، و لا الماء تکدرین، لنا نصف الأرض، و لقریش نصفها، و لکن قریشا قوم یعتدون). و کان یقول: (و المبتدیات زرعا، و الحاصدات حصدا، و الذاریات قمحا، و الطاحنات طحنا، و الخابزات خبزا، و الثاردات ثردا، و اللاقمات لقما، أهالة و سمنا. لقد فضلتم علی أهل الوبر. و ما سبقکم أهل المدر. ریفکم فامنعوه، و المعتر فآووه، و الباغی فناوئوه). و قالت سجاح بنت الحارث بن عقبان و کانت تتنبأ، فاجتمع مسیلمة معها فقالت له: ما أوحی إلیک؟ فقال: (أ لم تر کیف فعل ربک بالحبلی، أخرج منها نسمة تسعی. من بین صفاق وحشا). و قالت: فما بعد ذلک ..؟ قال: أوحی إلی (أن اللّه خلق النساء أفواجا، و جعل الرجال لهن أزواجا، فتولج فیهن قعسا إیلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا، فینتجن لنا سخالا نتاجا). فقالت: أشهد أنک نبی. و لم ننقل کل ما ذکر من سخفه کراهة التثقیل. و روی أنه سأل أبو بکر الصدیق رضی اللّه عنه أقواما قدموا علیه من بنی حنیفة عن هذه الألفاظ فحکوا بعض ما نقلناه. فقال أبو بکر: «سبحان اللّه و یحکم إن هذا الکلام لم یخرج عن آل. فأین کان یذهب بکم؟!» و معنی قوله: لم یخرج عن آل، أی عن ربوبیة. و من کان له عقل لم یشتبه علیه سخف هذا الکلام. فنرجع الآن إلی ما ضمناه من الکلام علی الأشعار المتفق علی جودتها و تقدم أصحابها فی صناعتهم، لیتبین لک تفاوت أنواع الخطاب، و تباعد مواقع البلاغة. و تستدل علی مواضع البراعة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۶ و أنت لا- تشک فی جودة شعر امرئ القیس، و لا- ترتاب فی براعته، و لا تتوقف فی فصاحته. و تعلم أنه قد أبدع فی طرق الشعر أمورا اتبع فیها من ذکر الدیار، و الوقوف علیها، إلی ما یتصل بذلک من البدیع الذی أبدعه، و التشبیه الذی أحدثه، و التلمیح الذی یوجد فی شعره، و التصرف الکثیر الذی یصادفه فی قوله، و الوجوه التی ینقسم إلیها کلامه، من صناعة و طبع، و سلاسة و علو، و متانة ورقة، و أسباب تحمد، و أمور تؤثر و تمدح. و قد تری الأدباء أولا- یوازنون بشعره فلانا و فلانا. و یضمون أشعارهم إلی شعره، حتی ربما وازنوا بین شعر من لقبناه، و بین شعره فی أشیاء لطیفة و أمور بدیعة. و ربما فضلوهم، علیه أو

سووا بینهم و بینه، أو قربوا موضع تقدمهم علیه، و برزوه بین أیدیهم. و لما اختاروا قصیدته فی السبعیات أضافوا إلیها أمثالها، و قرنوا بها نظائرها. ثم تراهم یقولون لفلان لامیة مثلها. ثم تری أنفس الشعراء تتشوق إلی معارضته و تساویه فی طریقته. و ربما عثرت فی وجهه علی أشیاء کثیرة و تقدمت علیه فی أسباب عجیبة. و إذا جاءوا إلی تعداد محاسن شعره، کان أمرا محصورا و شیئا معروفا، أنت تجد من ذلک البدیع، أو أحسن منه فی شعر غیره، و تشاهد مثل ذلک البارع فی کلام سواه، و تنظر إلی المحدثین کیف توغلوا إلی حیازة المحاسن منهم من جمع رصانة الکلام إلی سلاسته، و متانته إلی عذوبته، و الإصابة فی معناه إلی تحسین بهجته، حتی أن منهم من إن قصر عنه فی بعض، تقدم علیه فی بعض، لأن الجنس الذی یرمون إلیه و الغرض الذی یتواردون علیه، مما للآدمی فیه مجال، و للبشری فیه مثال. فکل یضرب فیه بسهم، و یفوز بقدح. ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا، و تتباین تباینا. و قد تتقارب تقاربا علی حسب مشارکتهم فی الصنائع، و مساهمتهم فی الحرف. و نظم القرآن جنس ممیز و أسلوب متخصص و قبیل عن النظیر متخلص. فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله فی هذا الفصل لامرئ القیس فی أجود أشعاره. و ما نبین لک من عواره علی التفصیل و ذلک قوله: قفا نبک من ذکری حبیب و منزل بسقط اللوی بین الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم یعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمأل الذین یتعصبون له، أو یدعون محاسن الشعر، یقولون: هذا من البدیع لأنه وقف، و استوقف و بکی و استبکی، و ذکر العهد و المنزل و الحبیب. و توجع و استوجع، کله فی بیت و نحو ذلک. و إنما بیّنا هذا لئلا یقع لک ذهابنا عن مواضع المحاسن، إن کانت. و لا غفلتنا عن إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۷ مواضع الصناعة، إن وجدت. تأمل- أرشدک اللّه- و انظر هداک اللّه: أنت تعلم أنه لیس فی البیتین شیء قد سبق فی میدانه شاعرا، و لا تقدّم به صانعا. و فی لفظه و معناه خلل. فأول ذلک: أنه استوقف من یبکی لذکر الحبیب، و ذکراه لا یقتضی بکاء الخلیّ. و إنما یصحّ طلب الإسعاد فی مثل هذا علی أن یبکی لبکائه، و یرق لصدیقه فی شدة برحائه. فأما أن یبکی علی حبیب صدیقه، و عشیق رفیقه، فأمر محال. فإن کان المطلوب وقوفه و بکاءه أیضا عاشقا، صح الکلام، و فسد المعنی. من وجه آخر؛ لأنه من السخف أن لا یغار علی حبیبه، و أن یدعو غیره إلی التغازل علیه، و التواجد معه فیه. ثم إن فی البیتین ما لا یفید من ذکر هذه المواضع، و تسمیة هذه الأماکن من «الدّخول» و «حومل»، «و توضح» و «المقراة»، و «سقط اللّوی». و قد کان یکفیه أن یذکر فی التعریف بعض هذا. و هذا التطویل إذا لم یفد، کان ضربا من العی. ثم إن قوله: «لم یعف رسمها»، ذکر الأصمعی من محاسنه أنه باق، فنحن نحزن علی مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا. و هذا بأن یکون من مساویه أولی؛ لأنه إن کان صادق الود فلا یزیده عفاء الرسوم إلا جدة عهد، و شدة وجد. و إنما فزع الأصمعی إلی إفادته هذه الفائدة، خشیة أن یعاب علیه، فیقال: أیّ فائدة لأن یعرّفنا أنه لم یعف رسم منازل حبیبه؟ و أی معنی لهذا الحشو؟ فذکر ما یمکن أن یذکر، و لکن لم یخلصه بانتصاره له من الخلل. ثم فی هذه الکلمة خلل آخر لأنه عقّب البیت بأن قال: «فهل عند رسم دارس من معول». فذکر أبو عبیدة أنه رجع فأکذب نفسه، کما قال زهیر: قف بالدیار التی لم یعفها القدم نعم و غیّرها الأرواح و الدّیم و قال غیره: أراد بالبیت الأول أنه لم ینطمس أثره کله، و بالثانی أنه ذهب بعضه حتی لا یتناقض الکلامان. و لیس فی هذا انتصار؛ لأن معنی عفا و درس واحد، فإذا قال لم یعف رسمها ثم قال قد عفا، فهو تناقض لا محالة. و اعتذار أبی عبیدة أقرب لو صح. و لکن لم یرد هذا القول مورد الاستدراک، کما قاله زهیر فهو إلی الخلل أقرب، و قوله: لما نسجتها، کان ینبغی أن یقول لما نسجها، و لکنه تعسف فجعل ما فی تأویل التأنیث لأنها فی معنی الریح، و الأولی التذکیر دون التأنیث. و ضرورة الشعر قد دلته علی هذا التعسف، و قوله لم یعف رسمها کان الأولی أن یقول لم یعف رسمه، لأنه ذکر المنزل. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۸ فإن کان رد ذلک إلی هذه البقاع، و الأماکن التی المنزل واقع بینها، فذلک خلل؛ لأنه إنما یرید صفة المنزل الذی نزله حبیبه بعفائه، أو بأنه لم یعف دون ما جاوره. و إن أراد بالمنزل الدار حتی أنث، فذلک أیضا خلل. و لو سلم من هذا کله، و مما نکره ذکره کراهیة التطویل، لم یشک فی أن شعر أهل زماننا لا یقصر عن البیتین بل یزید علیهما و یفضلهما. ثم قال: وقوفا بها صحبی علیّ مطیّهم یقولون لا تهلک أسی و تحمّل و إن شفائی عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل و لیس فی البیتین أیضا معنی بدیع، و لا لفظ حسن کالأولین. و البیت الأول منهما متعلق بقوله: «قفا نبک» فکأنه قال: قفا وقوف

صحبی بهـا علی مطیهم. أوقفـا حال وقوف صـحبی. و قوله بها متأخر فی المعنی و إن تقـدم فی اللفظ. ففی ذلک تکلف و خروج عن اعتـدال الکلام. و البیت الثانی مختل من جهة أنه قد جعل الدمع فی اعتقاده شافیا کافیا. فما حاجته بعد ذلک إلی طلب حیلة أخری، و تحمّل و معوّل عنـد الرسوم؟ و لو أراد أن یحسن الکلام، لوجب أن یـدلّ علی أن الدمع لا یشـفیه لشدة ما به من الحزن. ثم یسائل هل عند الربع من حیلة أخری؟ و قوله: کدأبک من أم الحویرث قبلها و جارتها أمّ الرّباب بمأسل إذ قامتا تضوّع المسک منهما نسـیم الصبا یأتی بریّا القرنفل أنت لا تشک فی أن البیت الأول قلیل الفائـدة، لیس له مع ذلک بهجـة، فقد یکون الکلام مصـنوع اللفظ، و إن کان منزوع المعنی. و أمـا البیت الثـانی فوجه التکلف فیه قوله: إذا قامتا تضوع المسک منهما. و لو أراد أن یجود أفاد أن بهما طیبا علی کل حال. فأما فی حال القیام فقط فذلک تقصیر، ثم فیه خلل آخر لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسک، شبه ذلک بنسیم القرنفل، و ذکر ذلک بعد ذکر المسک نقص. و قوله نسیم الصـبا فی تقدیر المنقطع عن المصـراع الأول لم یصله به وصل مثله. و قوله: ففاضت دموع العین منی صـبابة علی النحر حتی بلّ دمعی محملی ألا رب یوم لک منهن صالـح و لا سـیما یوم بدارة جلجل قوله: ففاضت دموع العین، ثم استعانته بقوله منی، استعانة ضعیفة عند المتأخرین فی الصنعة. و هو حشو غیر ملیح، و لا بدیع. و قوله: علی النحر، حشو آخر، لأن قوله: بـلّ دمعی محملی یغنی عنه، و یـدل علیه. و لیس بحشـو حسن. ثم قوله: حـتی بـلّ دمعی محملی إعجـاز القرآن(الباقلانـی)، ص: ۱۰۹ إعادة ذکره الـدمع حشو آخر. و کان یکفیه أن یقول: حتی بلّت محملی، فاحتاج لإقامة الوزن إلی هذا کله. ثم تقدیره أنه قد أفرط فی إفاضـة الـدمع حتی بلّ محمله، تفریط منه و تقصیر. و لو کان أبدع لکان یقول: حتی بلّ دمعی مغانیهم و عراصـهم. و یشـبه أن یکون غرضه إقامـة الوزن و القافیـة، لأن الـدمع یبعـد أن یبلّ المحمل. و إنما یقطر من الواقف و القاعـد علی الأرض أو علی الذیل. و إن بله فلقلته و أنه لا یقطر. و أنت تجد فی شـعر الخبزرزیّ ما هو أحسن من هذا البیت و أمتن و أعجب منه. و البیت الثانی خال من المحاسن و البـدیع، خـال من المعنی. و لیس له لفـظ یروق و لا ـ معنی یروع. من طبائع السوقـة، فلا یرعک تهویله، باسم موضع غریب، و قال: و یوم عقرت للعـذاری مطیّتی فیا عجبا من رحلها المتحمّل فظلّ العـذاری یرتمین بلحمها و شـحم کهدّاب الدّمقس المفتّل تقدیره: أذکر یوم عقرت مطیتی. أو یرده علی قوله: یوم بدارة جلجل و لیس فی المصـراع الأول من هذا البیت إلا سـفاهته. قال بعض الأدباء قوله: یا «عجبا»، یعجبهم من سـفهه فی شـبابه من نحره ناقته لهم. و إنما أراد أن لا یکون الکلام من هذا المصـراع منقطعا عن الأول. و أراد أن یکون الکلام ملائما له. و هـذا الذی ذکره بعید. و هو منقطع عن الأول. و ظاهره أنه یتعجب من تحمل العذاری رحله، و لیس فی هذا تعجب کبیر. و لا فی نحر الناقة لهن تعجب، و إن کان یعنی به أنهن حملن رحله، و أن بعضهن حملته، فعبر عن نفسه برحله، فهذا قلیلا یشبه أن یکون عجبا. لکن الکلام لا یدل علیه. و یتجافی عنه. و لو سلم البیت من العیب لم یکن فیه شیء غریب و لا معنی بدیع، أکثر من سـفاهته، مع قلـة معنـاه، و تقـارب أمره، و مشـاکلته طبع المتـأخرین من أهل زماننا. و إلی هـذا الوضع لم یمر له بیت رائع، و کلام رائق. و أما البیت الثانی فیعدونه حسـنا، و یعدون التشبیه ملیحا واقعا، و فیه شـیء: و ذلک أنه عرّف اللحم، و نکّر الشّـحم، فلا یعلم أنه وصف شـحمها، و ذکر تشبیه أحدهما بشیء واقع، و عجز عن تشبیه القسمة الأولی، فمرّت مرسلة، و هذا نقص فی الصنعة، و عجز عن إعطاء الکلام حقّه، و فیه شـیء آخر من جهـة المعنی: و هو أنه وصف طعامه الـذی أطعم من أضاف بالجودة، و هـذا قـد یعاب، و قد یقال إن العرب تفتخر بـذلک، و لا یرونه عیبا. و إنما الفرس هم الذین یرون هذا عیبا شـنیعا. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۰ و أما تشبیه الشـحم بالدّمقس، فشـیء یقع للعامة، و یجری علی ألسـنتهم، فلیس بشـیء قد سبق إلیه، و إنما زاد المفتّل للقافیة، و هذا مفید. و مع ذلک، فلست أعلم العامة تذکر هذه الزیادة، و لم یعدّ أهل الصنعة ذلک من البدیع، و رأوه قریبا. و فیه شیء آخر، و هو: أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم و إن سوّغ التبجیح بما أطعم للأضیاف إلا أن یورد الکلام مورد المجون، و علی طریق أبی نواس فی المزاح و المداعبـة. و قوله: و یوم دخلت الخـدر خـدر عنیزة فقـالت لک الویلات إنک مرجلی تقول و قـد مال الغبیط بنا معا عقرت بعیری یا امرأ القیس فـأنزل قـوله: دخلت الخـدر خـدر عنیزة، ذکره تکریرا لإقامـة الوزن لا ـ فائـدة فیه. غیره، و لا ـ ملاحـة و لا ـ رونق. و قوله فی المصـراع الأـخیر من هـذا البیت: فقـالت لک الویلات إنک مرجلی کلام مؤنث من کلام النساء، نقله من جهته إلی شعره، و لیس فیه

غیر هـذا. و تکریره بعد ذلک «تقول و قد مال الغبیط» یعنی قتب الهودج بعد قوله: «فقالت لک الویلات إنک مرجلی» لا فائدة فیه غیر تقـدیر الوزن، و إلاـ فحکایـة قولهـا الأـول کـاف، و هو فی النظم قبیـح، لأـنه ذکر مرة «فقالت»، و مرة «تقول» فی معنی واحـد و فصـل خفیف. و فی مصـراع الثـانی أیضـا تأنیث من کلامهن، و ذکر أبو عبیـدة أنه قال: عقرت بعیری، و لم یقل ناقتی؛ لأنهم یحملون النساء علی ذکور الإبل لأنها أقوی، و فیه نظر؛ لأن الأظهر أن البعیر اسم للـذکر و الأنثی، و احتاج إلی ذکر البعیر لإقامـة الوزن، و قوله: فقلت لهـا سـیری و أرخی زمـامه و لا تبعـدینی من جناک المعلّل فمثلک حبلی قـد طرقت و مرضع فألهیتها عن ذی تمائم مغیل البیت الأول قریب النسج، لیس له معنی بدیع، و لا لفظ شـریف، کأنه من عبارات المنحطین فی الصـنعة. و قوله فمثلک حبلی قد طرقت، عابه علیه أهل العربیـة. و معناه عنـدهم حتی یسـتقیم الکلام (فرب مثلک حبلی قـد طرقت) و تقـدیره أنه زیر نساء، و أنه یفسدهن و یلهیهن عن حبلهن و رضـاعهن؛ لأـن الحبلی و المرضـعة أبعـد من الغزل، و طلب الرجـال. و البیت الثـانی فی الاعتـذار و الاسـتهتار و التهیام و غیر منتظم مع المعنی الـذی قدمه فی البیت الأول. لأن تقدیره لا تبعدینی عن نفسک، فإنی أغلب النساء و أخدعهن عن رأیهن و أفسدهن بالتغـازل. و کونه مفسـدة لهن لاـ یوجب له وصـلهن و ترک إبعـادهن إیاه. بـل یوجب هجره و الاسـتخفاف به، لسـخفه و دخوله کل مـدخل فـاحش، و رکوبه کل مرکب فاسـد، و فیه إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۱ من الفحش و التفحش مـا یسـتنکف من مثله و یـأنف من ذکره، و کقوله: إذا مـا بکی من خلفهـا انصـرفت له بشقّ، و تحتی شـقّها لم یحوّل و یومـا علی ظهر الکثیب تعـذّرت علیّ و آلت حلفة لم تحلّل فالبیت الأول غایة فی الفحش، و نهایة فی السـخف. و أی فائدة لذکره لعشـیقته، کیف کان یرکب هذه القبائح، و یـذهب هـذه المذاهب، و یرد هذه الموارد؟! إن هذا لیبغضه إلی کل من سـمع کلامه. و یوجب له المقت. و هو لو صدق لکان قبیحا، فکیف و یجوز أن یکون کاذبا. ثم لیس فی البیت لفظ بدیع، و لا معنی حسن. و هذا البیت متصل بالبیت الذی قبله، من ذکر المرضع التی لهـا ولـد محول. فأمـا البیت الثـانی و هو قوله و یوما یتعجب منه، و إنما تشـددت و تعسـرت علیه، و حلفت علیه، فهو کلام ردیء النسـج، لا فائـدة لـذکره لنا، أن حبیبته تمنعت علیه یوما بموضع یسـمیه و یصـفه. و أنت تجـد فی شـعر المحـدثین من هذا الجنس فی التغزل ما یذوب معه اللب و تطرب علیه النفس، و هذا مما تستنکره النفس و یشمئز منه القلب، و لیس فیه شیء من الإحسان و الحسن. و قوله: أ فـاطم مهلا بعض هـذا التـدلّل و إن کنت قـد أزمعت صـرمی فأجملی أغرّک منی أن حبّک قاتلی و أنک مهما تأمری القلب یفعل فالبیت الأول فیه رکاکـة جـدا، و تأنیث ورقة. و لکن فیهما تخنیث! و لعل قائلا یقول: إن کلام النساء بما یلائمهن من الطبع أوقع و أغزل؟ و لیس کـذلک، لأنک تجـد الشـعراء فی الشـعر المؤنث لم یعـدلوا عن رصانـة قولهم. و المصـراع الثانی منقطع عن الأول لا یلائـمه و لاـ یوافقه، و هـذا یـبین لـک إذا اعترضت معه البیت الـذی تقـدمه، و کیف ینکر علیهـا تـدللها، و المتغزل یطرب علی دلال الحبیب و تـدلّله؟ و البیت الثانی: قد عیب علیه لأنه قد أخبر أن من سبیلها أن لا تغتر بما یریها من أن حبها یقتله. و أنها تملک قلبه، فما أمرته فعله. و المحب إذا أخبر عن مثل هـذا صـدق، و إن کان المعنی غیر هـذا الذی عیب علیه، و إنما ذهب مذهبا آخر و هو أنه أراد أن یظهر التجلـد، فهـذا خلاـف مـا أظهر من نفسه فیما تقـدم من الأبیات، من الحب و البکاء علی الأحبـة. فقـد دخل فی وجه آخر من المناقضـة و الإحاطـة فی الکلاـم، ثم قوله: تـأمری القلب یفعـل معنـاه: تأمرینی. و القلب لا یؤمر، و الاسـتعارة فی ذلک غیر واقعـة و لا حسـنة. و قوله: فإن کنت قد ساءتک منی خلیقة فسلّی ثیابی عن ثیابک تنسل و ما ذرفت عیناک إلا لتضربی بسهمیک فی أعشار قلب مقتّـل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۲ البیت الأـول قـد قیـل فی تـأویله: إنه ذکر الثوب و أراد البـدن، مثل قول اللّه تعالی وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ «۱» و قـال أبو عبیـدة: هـذا مثـل للهجر، و تنسـل: تبین. و هو بیت قلیـل المعنی، رکیکـة و وضـیعه. و کل ما أضاف إلی نفسه، و وصـف به نفسه سـقوط و سـفه و سـخف یـوجب قطعه. فلم یحکم علی نفسه بـذلک، و لکن یـورده مورد أن لیست له خلیقـة توجب هجرانه. و التقصّـی من وصله، و أنه مهذب الأخلاق، شریف الشمائل، فذلک یوجب أن لا ینفک من وصاله. و الاستعارة فی المصراع الثانی فیها تواضع و تقارب، و إن کانت غریبة. و أما البیت الثانی فمعدود من محاسن القصیدة و بدائعها، و معناه ما بکیت إلا لتجرحی قلبا معشّـرا، أی مکسـرا، من قولهم: برمة أعشار، إذا کانت قطعا هذا تأویل ذکره الأصـمعی رضـی اللّه عنه، و هو أشـبه عند أکثرهم. و

قال غیره: و هذا مثل للأعشار التی تقسم الجزور علیها. و یعنی بسهمیک، المعلی و له سبعة أنصباء، و الرقیب و له ثلاثة أنصباء. فأراد أنک ذهبت بقلبی أجمع. و یعنی بقوله: مقتل مذلل. و أنت تعلم أنه علی ما یعنی به فهو غیر موافق للأبیات المتقدمة، لما فیها من التناقض الذی بیّنا. و یشبه أن یکون من قال بالتأویل الثانی فزع إلیه لأنه رأی اللفظ مستکرها علی المعنی الأول، لأن القائل إذا قال: ضرب فلان بسهمه فی الهدف، بمعنی أصابه، کان کلاما ساقطا مرذولا. و هو یری أن معنی الکلمة أن عینیها کالسهمین النافذین فی إصابة قلبه المجروح، فلما بکتا و ذرفتا بالدموع کانتا ضاربتین فی قلبه. و لکن من حمل علی التأویل الثانی سلم من الخلل الواقع فی اللفظ، و لکنه إذا حمل علی الثانی فسد المعنی و اختل، لأنه إن کان محتاجا علی ما وصف به نفسه من الصبابة، فقلبه کله لها. فکیف یکون بکاؤه هو الذی یخلص قلبه لها؟ و اعلم بعد هذا أن البیت غیر ملائم للبیت الأول، و لا متصل به فی المعنی، و هو منقطع عنه، لأنه لم یسبق کلام یقتضی بکاءها، و لا سبب یوجب ذلک. فترکیبة هذا الکلام علی ما قبله فیه اختلال، ثم لو سلم له بیت من عشرین بیتا و کان بدیعا و لا عیب فیه، فلیس بعجیب لأنه لا یدعی علی مثله أن کلامه کله متناقض، و نظمه کله متباین. و إنما یکفی أن نبین أن ما سبق من کلامه إلی هذا البیت مما لا یمکن أن یقال إنه یتقدم

(_____ ۱) آیة (۴) سورة المدثر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۳ فیه أحدا من المتأخرین، فضلا عن المتقدمین، و إنما قدم فی شعره لأبیات قد برع فیها و بان حذقه بها. و إنما أنکرنا أن یکون شعره متناسبا فی الجودة و متشابها فی صحة المعنی و اللفظ، و قلنا إنه یتصرف بین وحشی غریب مستنکر و عربیة کالمهل مستنکرة، و بین کلام سلیم متوسط، و بین عامی سوقی فی اللفظ و المعنی، و بین حکمة حسنة، و بین سخف مستشنع. و لهذا قال اللّه عز اسمه: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۱» فأما قوله: و بیضة خدر لا یرام خباؤها تمتعت من لهوبها غیر معجل تجاوزت أحراسا و أهوال معشر علیّ حراص لو یسرّون مقتلی فقد قالوا: عنی بذلک أنها کبیضة خدر فی صفائها و رقتها. و هذه کلمة حسنة، و لکن لم یسبق إلیها، بل هی دائرة فی أفواه العرب و تشبیه سائر. و یعنی بقوله: غیر معجل، أنه لیس ذلک مما یتفق قلیلا- و أحیانا، بل یتکرر له الاستمتاع بها. و قد یحمله غیره علی أنه رابط الجأش فلا یستعجل إذا دخلها خوف حصانتها و منعتها. و لیس فی البیت کبیر فائدة، لأنه الذی حکی فی سائر أبیاته، فلا تتضمن مطاولته فی المغازلة، و اشتغاله بها. فتکریره فی هذا البیت مثل ذلک قلیل المعنی، إلا الزیادة التی ذکر من منعتها. و هو مع ذلک بیت سلیم اللفظ فی المصراع الأول، دون الثانی. و البیت الثانی ضعیف و قوله: لو یسرون مقتلی، أراد أن یقول لو أسروا فإذا نقله إلی هذا ضعف و وقع فی مضمار الضرورة. و الاختلال علی نظمه بیّن حتی أن المحترز یحترز من مثله و قوله: إذا ما الثریا فی السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصّل و قد أنکر علیه قوم قوله: «إذا ما الثریا فی السماء تعرضت»، و قالوا: الثریا لا تتعرض، حتی قال بعضهم: سمی الثریا، و إنما أراد الجوزاء لأنها تعرض و العرب تفعل ذلک کما قال زهیر: «کأحمر عاد» و إنما هو أحمر ثمود، و قال بعضهم فی تصحیح قوله: تعرض له أول ما تطلع کما أن الوشاح إذا طرح یلقاک بعرضه، و هو ناحیته، و هذا کقول الشاعر: تعرّضت لی بمجان خلّ تعرّض المهرة فی الطول

(_____ ۱) آیة (۸۲) سورة النساء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۴ یقول: تریک عرضها و هی فی الرّسن، و قال أبو عمرو: یعنی إذا أخذت الثریا فی وسط السماء کما یأخذ الوشاح وسط المرأة، و الأشبه عندنا أن البیت غیر معیب من حیث عابوه به، و أنه من محاسن هذه القصیدة، و لو لا أبیات عدة فیه لقابله ما شئت من شعر غیره. و لکن لم یأت فیه بما یفوت الشأو و یستولی علی الأمد. أنت تعلم أنه لیس للمتقدمین و لا للمتأخرین فی وصف شیء من النجوم، مثل ما فی وصف الثریا. و کلّ قد أبدع فیه و أحسن، فإما أن یکون قد عارضه أو زاد علیه، فمن ذلک قول ذی الرمة «۱»: وردت اعتسافا و الثریا کأنها علی قمة الرأس ابن ماء محلّق و من ذلک قول ابن المعتز «۲»: و تری الثریا فی السماء کأنها بیضات أدحیّ یلحن بفدفد و کقوله: کأن الثریا فی أواخر لیلها تفتّح نور أو لجام مفضّض و قوله أیضا: فناولنیها و الثریا کأنها جنی نرجس حیا الندامی به السّاقی و قول الأشهب بن رمیلة: و لاحت لساریها الثریا کأنها لدی الأفق الغربی قرط مسلسل و لابن المعتز: و

قد هوی النجم و الجوزاء تتبعه کذات قرط أرادته و قد سقطا أخذه من ابن الرومی فی قوله: طیّب ریقه إذ ذقت فاه و الثّریا بجانب الغرب قرط و لابن المعتز: قد سقانی المدام و الص بح باللیل مؤتزر و الثّریّا کنور غص ن علی الأرض قد نثر و قوله: و نروم الثریّا فی السماء مرامها کانکباب طمر کاد یلقی لجاما

(۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۵ و لابن الطثریة: إذا ما الثریا فی السماء کأنها جمان و هی من سلکه فتبدّدا و لو نسخت لک کل ما قالوا من البدیع فی وصف الثریا لطال علیک الکتاب، و خرج عن الغرض. و إنما نرید أن نبین لک أن الإبداع فی نحو هذا أمر قریب، و لیس فیه شیء غریب. و فی جملة ما نقلناه، ما یزید علی تشبیهه فی الحسن، أو یساویه أو یقاربه. فقد علمت أن ما حلّق فیه، و قدر المتعصب له أنه بلغ النهایة فیه أمر مشترک، و شریعة مورودة، و باب واسع، و طریق مسلوک. و إذا کان هذا بیت القصیدة، و درة القلادة، و واسطة العقد، و هذا محله فکیف بما تعداه؟ ثم فیه ضرب من التکلف لأنه قال: «إذا ما الثریا فی السماء تعرضت»، تعرض أثناء الوشاح فقوله: تعرضت من الکلام الذی یستغنی عنه، لأنه یشبّه أثناء الوشاح، سواء کان فی وسط السماء، أو عند الطلوع و المغیب. فالتهویل بالتعرض و التطویل بهذه الألفاظ لا معنی له، و فیه أن الثریا کقطعة من الوشاح المفصّل، فلا معنی لقوله: تعرض أثناء الوشاح و إنما أراد أن یقول تعرض قطعة من أثناء الوشاح، فلم یستقم له اللفظ حتی شبه ما هو کالشیء الواحد بالجمع و قوله: فجئت و قد نضت لنوم ثیابها لدی السّتر إلا لبسة المتفضّل فقالت: یمین اللّه ما لک حیلة و ما إن أری عنک المعاویة تنجلی انظر إلی البیت الأول، و الأبیات التی قبله، کیف خلّط فی النظم، و فرّط فی التألیف! فذکر التمتع بها، و ذکر الوقت و الحال و الحرّاس. ثم یذکر کیف کان صفتها لما دخل علیها، و وصل إلیها من نزعها ثیابها إلا ثوبا واحدا، و المتفضّل: الذی فی ثوب واحد، و هو الفضل، فما کان من سبیله أن یقدّمه إنما ذکره مؤخرا. و قوله لدی الستر حشو، و لیس بحسن و لا بدیع، و لیس فی البیت حسن و لا شیء یفضّل لأجله. و أما البیت الثانی ففیه تعلیق و اختلال. ذکر الأصمعی أن معنی قوله: ما لک حیلة، أی لیست لک جهة تجیء فیها و الناس حوالی. و الکلام فی المصراع الثانی منقطع عن الأول، و نظمه إلیه فیه ضرب من التفاوت، و قوله: فقمت بها أمشی تجرّ وراءنا علی إثرنا أذیال مرط مرجّل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۶ فلما أجزنا ساحة الحی و انتحی بنا بطن خبت ذی حقاف عقنقل البیت الأول من مساعدتها إیاه، حتی قامت معه لیخلوا، و إنما کانت تجر علی الأثر أذیال مرط مرجّل، و المرجّل: ضرب من البرود، یقال: لو شبه الترجیل و فیه تکلف لأنه قال: وراءنا علی إثرنا. و لو قال علی إثرنا، کان کافیا. و الذیل إنما یجر وراء الماشی، فلا فائدة لذکره وراءنا. و تقدیر القول: فقمت أمشی بها، و هذا أیضا ضرب من التکلف. و قوله أذیال مرط، کان من سبیله أن یقول: ذیل مرط، علی أنه لو سلم من ذلک کان قریبا، لیس مما یفوت بمثله غیره، و لا یتقدم به سواه، و قول ابن المعتز أحسن منه: فبت أفرش خدی فی الطریق له ذلا و اسحب أکمامی علی الأثر و أما البیت الثانی فقوله: أجزنا بمعنی قطعنا، و الخبت بطن من الأرض، و الحقف رمل منعرج، و العقنقل: المنعقد من الرمل الداخل بعضه فی بعض. و هذا بیت متقارب مع الأبیات المتقدمة، لأن فیها ما هو سلس قریب یشبه کلام المولدین، و کلام البذلة. و هذا قد أغرب فیه و أتی بهذه اللفظة الوحشیة، المتعقدة، و لیس فی ذکرها و التفضیل بإلحاقها بکلامها فائدة. و الکلام الغریب، و اللفظة الشدیدة المباینة لنسج الکلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة فی وصف ما یلائمها، کقوله عز و جل فی وصف یوم القیامة: یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً «۱» فأما إذا وقعت فی غیر هذا الموقع فهی مکروهة مذمومة، بحسب ما تحمد فی موضعها. و روی أن جریرا أنشد بعض خلفاء بنی أمیة قصیدته: بان الخلیط برامتین فودعوا أو کلما جدوا لبین تجزع؟ کیف العزاء و لم أجد مذ بنتم قلبا یقر و لا شرابا ینقع قال: و کان یزحف من حسن هذا الشعر حتی بلغ قوله: و تقول بوزع: قد دببت علی العصا هلّا هزئت بغیرنا یا بوزع فقال: أفسدت شعرک بهذا الاسم، و أما قوله: هصرت بغصنی دوحة فتمایلت علیّ هضیم الکشح ریّا المخلخل مهفهفة بیضاء غیر مفاضة ترائبها مصقولة کالسّ جنجل فمعنی قوله: هصرت: جذبت و ثنیت.

(۱) آیة (۱۰) سورة الإنسان. إعجاز

القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۷ و قوله: «بغصنی دوحة» تعسّف، و لم یکن من سبیله أن یجعلهما اثنین. و المصراع الثانی أصح، و لیس فیه شیء إلا ما یتکرر علی ألسنة الناس من هاتین الصفتین. و أنت تجد ذلک فی وصف کل شاعر، و لکنه مع تکرره علی الألسن صالح. و أما معنی قوله: مهفهفة أنها مخففة لیست مثقلة، و المفاضة التی اضطرب طولها، و البیت مع مخالفته فی الطبع الأبیات المتقدمة و نزوعه فیه إلی الألفاظ المستکرهة، و ما فیه من الخلل من تخصیص الترائب بالضوء بعد ذکر جمیعها بالبیاض، فلیس بطائل؛ و لکنه قریب متوسط، و قوله: تصدّ و تبدی عن أسیل و تتّقی بناظرة من وحش وجرة مطفل و جید کجید الرّیم لیس بفاحش إذا هی نضته و لا بمعطّل معنی قوله: عن أسیل، أی بأسیل، و إنما یرید خدا لیس بکرا. و قوله: تتقی یقال اتقاه بترسه أی جعله بینه و بینه، و قوله: تصد و تبدی عن أسیل متفاوت لأن الکشف عن الوجه مع الوصل دون الصد. و قوله: تتقی بناظرة، لفظة ملیحة، و لکن أضافها إلی ما نظم به کلامه و هو مختل، و هو قوله: من وحش وجرة، و کان یجب أن تکون العبارة بخلاف هذا. کان من سبیله أن یضیف إلی عیون الظبا أو المها دون إطلاق الوحش، ففیهن ما تستنکر عیونها. و قوله: «مطفل» فسروه علی أنها لیست بصبیة و أنها قد استحکمت، و هذا اعتذار متعسف. و قوله مطفل زیادة لا فائدة فیها علی هذا التفسیر الذی ذکره الأصمعی. و لکن قد یحتمل عندی أن یفید غیر هذه الفائدة. فیقال: إنها إذا کانت مطفلا لحظت أطفالها بعین رقة، ففی نظر هذه رقة نظر المودة، و یقع الکلام معلقا تعلیقا متوسطا. و أما البیت الثانی فمعنی قوله: لیس بفاحش، أی لیس بفاحش الطول، و معنی قوله: نضته، رفعته، و معنی قوله: لیس بفاحش فی مدح الأعناق، کلام فاحش موضوع منه. و إذا نظرت فی أشعار العرب رأیت فی وصف الأعناق ما یشبه السحر. فکیف وقع علی هذه الکلمة و دفع إلی هذه اللفظة ..؟ و هلا قال کقول أبی نواس؟ مثل الظباء سمت إلی روض صوادر عن غدیر و لست أطول علیک، فتستثقل، و لا أکثر القول فی ذمه، فتستوحش. و أکلک الآن إلی جملة من القول، فإن کنت من أهل الصنعة، فطنت و اکتفیت و عرفت ما رمینا إلیه و استغنیت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۸ و إن کنت عن الطبقة خارجا، و عن الإتقان بهذا الشأن خالیا، فلا یکفیک البیان، و إن استقرینا جمیع شعره، و تتبعنا عامة ألفاظه، و دللنا علی ما فی کل حرف منه. اعلم أن هذه القصیدة قد ترددت بین أبیات سوقیة مبتذلة، و أبیات متوسطة، و أبیات ضعیفة مرذولة، و أبیات وحشیة غامضة مستکرهة، و أبیات معدودة بدیعة. و قد دللنا علی المبتذل منها، و لا یشتبه علیک الوحشی المستنکر الذی یروع السمع، و یهول القلب، و یکدّ اللسان، و یعبس معناه فی وجه کل خاطر، و یکفهر مطلعه علی کل متأمل و ناظر، و لا یقع بمثله التمدح و التفاصح و هو مجانب لما وضع له أصل الإفهام، و مخالف لما بنی علیه التفاهم الکلام. فیجب أن یسقط عن الغرض المقصود، و یلحق باللغز و الإشارة المستبهمة. فأما الذی زعموا أنه من بدیع هذا الشعر، فهو قوله: و یصحی فتیت المسک فوق فراشها تؤم الضّحی لم تنتطق عن تفضّل و المصراع الأخیر عندهم بدیع، و معنی ذلک: أنها مترفة متنعمة، لها من یکفیها. و معنی قوله: لم تنتطق عن تفضل، یقول: لم تنتطق و هو فضل. و «عن» هی بمعنی «بعد». قال أبو عبیدة: لم تنتطق فتعمل، و لکنها تتفضل. و مما یعدونه من محاسنها: و لیل کموج البحر أرخی سدوله علیّ بأنواع الهموم لیبتلی فقلت له لما تمطی بصلبه و أردف أعجازا و ناء بکلکل ألا أیها اللیل الطویل أ لا انجلی بصبح، و ما الإصباح منک بأمثل و کان بعضهم یعارض هذا بقول النابغة: کلینی لهم یا أمیمة ناصب و لیل أقاسیه بطیء الکواکب و صدر أراح اللیل عازب همّه تضاعف فیه الحزن من کلّ جانب تقاعس حتی قلت لیس بمنقض و لیس الذی یتلو النجوم بآئب و قد جری ذلک بین یدی بعض الخلفاء، فقدمت أبیات امرئ القیس، و استحسن استعارتها، و قد جعل لللیل صدرا یثقل تنحیه، و یبطئ تقضیه. و جعل له أردافا کثیرة، و جعل له صلبا یمتد و یتطاول. و رأوا هذا بخلاف ما یستعیره أبو تمام من الاستعارات الوحشیة البعیدة المستنکرة. و رأوا أن الألفاظ جمیلة. و اعلم أن هذا صالح جمیل، و لیس من الباب الذی یقال إنه متناه عجیب و فیه إلمام بالتکلف. و دخول فی التعمل. و قد خرجوا له فی البدیع من القصیدة قوله: و قد اغتدی و الطیر فی وکناتها بمنجرد قید الأوابد هیکل مکرّ مفرّ مقبل مدبر معا کجلمود صخر حطّه السیل من عل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۹ و قوله أیضا: به أیطلا ظبی و ساقا نعامة و إرخاء سرحان و تقریب تنفل فأما قوله: قید الأوابد، فهو ملیح، و مثله فی کلام الشعراء و أهل الفصاحة کثیر. و التعمل بمثله ممکن. و أهل زماننا الآن یصنفون نحو هذا تصنیفا، و یؤلفون

المحاسن تأليفا، ثم يوشحون به كلامهم. و الذين كانوا من قبل لغزارتهم و تمكّنهم لم يكونوا يتصنّعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفاقا، و يطّرد فى كلامهم اطرادا. و أما قوله فى وصفه: «مكرّ مفرّ» فقد جمع فيه طباقا و تشبيها، و فى سرعة جرى الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا و ألطف. و كذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعة. و لكن قد عورض فيه و زوحم، و التوصل إليه يسير، و تطلبه سهل قريب. و قد بيّنا لك أن هذه القصيدة و نظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بيّنا فى الجودة و الرداءة، و السلاسة و الانعقاد، و السلامة و الانحلال، و التمكن و التسهيل، و الاسترسال، و التوحش و الاستكراه. و له شركاء فى نظائرها و منازعون فى محاسنها، و معارضون فى بدائعها. و لا سواء كلام ينحت عن الصخر تارة، و يذوب تارة، و يتلوّن تلوّن الحرباء، و يختلف اختلاف الأهواء، و يكثر فى تصرفه اضطرابه، و تتقاذف به أسبابه و بين قول يجرى فى سبكه على نظام، و فى رصفه على منهاج، و فى وضعه على حدّ، و فى صفائه على باب، و فى بهجته و رونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، و مؤتلفه متّحد، و متباعده متقارب، و شارده مطيع، و مطيعه شارد. و هو على متصرّفاته واحد، لا- يستصعب فى حال، و لا- يتعقد فى شأن. و كنا أردنا أن نتصرّف فى قصائد مشهورة، فنتكلم عليها، و ندلّ على معانيها و محاسنها، و نذكر لك من فضائلها و نقائصها، و نبسط لك القول فى هذا الجنس، و نفتح عليك فى هذا النهج. ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا، و الكلام فيه يتصل بنقد الشعر و عياره، و وزنه بميزانه و معياره؛ و لذلك كتب و إن لم تكن مستوفاة، و تصانيف و إن لم تكن مستقصاة. و هذا القدر يكفى فى كتابنا. و لم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض و النحو و المعانى، و ما عابوه عليه فى أشعاره، و تكلموا به على ديوانه، لأن ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا، و مجانب لمقصوده. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۰ و إنما أردنا أن نبين الجملة التى بيّناها، لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة، و منزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، و يتناول منها ذووها على حسب أحوالهم. و أنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه. و تجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم. و تجد معنى قد توافدا عليه، و توافيا إليه. فهما فيه شريكا عنان، و كأنهما فيه رضيعا لبان. و اللّه يؤتى فضله من يشاء. فأما نهج القرآن و نظمه و تأليفه و رصفه؛ فإن العقول تتيه فى جهته، و تحار فى بحره، و تضل دون وصفه. و نحن نذكر لك فى تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، و تستولى به على الأمد. و تصل به إلى المقصد. و تتصور إعجازه كما تتصور الشمس، و تتيقن تناهى بلاغته كما تتيقن الفجر. و أقرّب عليك الغامض، و أسهّل لك العسير. و اعلم أن هذا علم شريف المحل. عظيم المكان. قليل الطلاب. ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه، و لا أهل عصمة تفطن لما فيه. و هو أدق من السحر، و أهول من البحر، و أعجب من الشعر. و كيف لا يكون كذلك، و أنت تحسب أن وضع الصبح فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام، إلا أن يكون شعرا أو سجعا، و ليس كذلك. فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى وضع و تزل عن مكان لا- تزل عنه اللفظة الأخرى. بل تتمكن فيه و تضرب بجرانها، و تراها فى مظانها، و تجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها. و تجد الأخرى لو وضعت موضعها فى محل نفار، و مرمى شراد، و نابية عن استقرار. و لا أكثر عليك المثال، و لا أضرب لك فيه الأمثال، و أرجع بك إلى ما وعدتك من الدلالة. و ضمنت لك من تقريب المقالة. فإن كنت لا تعرف الفصل الذى بيّنا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، و مصرفات مجارى النظام، لم تستفد مما نقر به عليك شيئا، و كان التقليد أولى بك، و الاتباع موجب عليك. و لكل شىء سبب، و لكل علم طريق، و لا سبيل إلى الوصول إلى الشىء من غير طريقه. و لا بلوغ غايته من غير سبيله. خذ الآن، هداك اللّه، فى تفريغ الفكر و تخلية البال، و انظر فيما نعرض عليك و نهديه إليك، متوكلا على اللّه، و معتصما به، و مستعيذا به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم، سماه اللّه، عز ذكره، حكيما و عظيما و مجيدا. و قال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱» و قال:

(۱) آية (۴۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۱ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «۱» و قال: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً «۲» و قال: قُلْ لَئِنِ

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۳». و أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزوينىّ، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلانىّ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبى سنان، عن عمرو بن مرّة، عن أبى البحترى الطائى، عن الحارث الأعور، عن على رضى اللّه عنه قال: «قيل يا رسول اللّه إن أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: عليكم بكتاب اللّه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم فى غيره أضله اللّه، و من ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه اللّه، و هو الذكر الحكيم، و النور المبين، و الصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، و تبيان من بعدكم، و هو فصل ليس بالهزل، و هو الذى سمعته الجن فقالوا: إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ «۴»، لا يخلق على طول الرد، و لا تنقضى عبره، و لا تفنى عجائبه». و أخبرنى أحمد بن على بن الحسن، أخبرنا أبى، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد اللّه، حدثنا المسيّب بن شريك، عن عبيدة عن أسامة بن أبى عطاء، قال: «أرسل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى على رضى اللّه عنه فى ليلة فذكر نحو ذلك فى المعنى، و فى بعض ألفاظه اختلاف». و أخبرنا أحمد بن على بن الحسن، أخبرنا أبى، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد اللّه، حدثنا المسيّب بن شريك، عن بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبى أمامة، قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة، و من قرأ نصف القرآن، أعطى نصف النبوة، و من قرأ القرآن كله أعطى النبوة كلها، غير أنه لا يوحى إليه» «۵» و ذكر الحديث.

(_____ ۱) آية (۲۱) سورة الحشر. (۲) آية (۳۱) سورة الرعد. (۳) آية (۸۸) سورة الإسراء. (۴) آية (۲) سورة الجن. (۵) الاتحاف ۴/ ۴۶۶، و الكنز (۲۳۴۸)، و الدرّ المنثور ۱/ ۳۴۸، و ابن عدى ۲/ ۴۴۰، و الموضوعات ۱/ ۲۵۲. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۲ و لو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبّق الأرض أنواره، و جلل الآفاق ضياؤه، و نفذ فى العالم حكمه، و قبل فى الدنيا رسمه، و طمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرّواق. ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف اللّه حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علوّ جلالته، أو يتفكّر فى حكمته، فكان كما وصفه اللّه تعالى جل ذكره من أنه نور فقال: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «۱» فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، و بديع هذا التأليف، و عظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، و كل لفظ بديع واقع قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «۲» يدل على صدوره من الربوبية، و يبين عن وروده عن الإلهية، و هذه الكلمة بمنفردها، و أخواتها، كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، و كان واسطة عقده، و فاتحة عقده، و غرة شهره، و عين دهره، و كذلك قوله: وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا «۳» فجعله روحا لأنه يحيى الخلق، فله فضل الأرواح فى الأجساد. و جعله نورا لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته. و وقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، و بيّن أنه لم يكن ليهتدى إليه لو لا توفيقه. و لم يكن ليعلم ما فى الكتاب و لا الإيمان لو لا تعليمه. و أنه لم يكن ليهتدى، فكيف كان يهدى لولاه؟ فقد صار يهدى و لم يكن من قبل ذلك ليهتدى. فقال وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ «۴» فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأولتان مؤتلفتان، و قوله: أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف، و ألطف انتظاما من الحديث الملائم. و بهذا يبين فضل الكلام، و تظهر فصاحته و بلاغته. الأمر أظهر، و الحمد للّه، و الحال أبين من أن يحتاج إلى كشف. تأمل قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «۵» انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها، و احتج بها على ظهور (_____ ۱) آية (۵۲) سورة الشورى. (۲) الآية السابقة. (۳) الآية السابقة. (۴) آية (۵۳) سورة الشورى. (۵) آية (۹۶) سورة الأنعام. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۳ قدرته و نفاذ أمره. أ ليس كل كلمة منها فى نفسها غرة، و بمنفردها درة؟ و هو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر، و

نفاذ القهر، و يتجلى فى بهجة القدرة، و يتحلى بخالصة العزة، و يجمع السلاسة إلى الرصانة، و السلامة إلى المتانة، و الرونق الصافى و البهاء الضافى. و لست أقول إنه شمل الإطباق المليح، و الإيجاز اللطيف، و التعديل و التمثيل، و التقريب و التشكيل، و إن كان قد جمع ذلك و أكثر منه، لأن العجيب ما بيّنا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة، أو خطبة، أو وجه قصيدة، أو فقرة. فإذا ألفت ازدادت حسنا و زادتك إذا تأملت معرفة و إيمانا. ثم تأمل قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ «۱» هل تجد كل لفظة و هل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع، و تتضمن شرط القول البليغ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، و تتألف من البلاغات، فكيف لا- تفوت حد المعهود، و لا- تجوز شأو المألوف؟ و كيف لا تجوز قصب السبق، و لا تتعالى عن كلام الخلق؟ ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرّف فى معرفة قصصها، و راع ما فيها من براهينها و قصصها. تأمل السورة التى يذكر فيها النمل و انظر فى كل كلمة كلمة، و فصل فصل بدأ بذكر السورة، إلى أن بيّن أن القرآن من عنده، فقال: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ «۲» ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السّلام و أنه رأى نارا إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «۳». و قال فى سورة طه فى هذه القصة: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً «۴» و فى موضع: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «۵» قد تصرف فى وجوه، و أتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. و لهذا قال فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ «۶» ليكون أبلغ فى تعجيزهم و أظهر للحجة عليهم. و كل

(_____ ۱) آية (۳۷: ۳۹) سورة يس. (۲) آية (۶) سورة النمل. (۳) آية (۸) سورة النمل. (۴) آية (۱۰) سورة طه. (۵) آية (۲۹) سورة القصص. (۶) آية (۳۴) سورة الطور. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۴ كلمة من هذه الكلمات و إن أنبأت عن قصة فهى بليغة بنفسها، تامة فى معناها. ثم قال: فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۱» فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، و عظم شأن هذا الثناء، و كيف انتظم مع الكلام الأول، و كيف اتصل بتلك المقدمة، و كيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، و ما دل به عليها؛ من قلب العصا حية، و جعلها دليلا يدله عليه، و معجزة تهديه إليه. و انظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها فى الحسن، و فيما تتضمنه من المعانى الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، و قرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء. ثم انظر فى آية آية، و كلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم و بديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية، و فى الدلالة آية. فكيف إذا قارنتها أخواتها و ضامّتها ذواتها، تجرى فى الحسن مجراها، و تأخذ فى معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، و من باب إلى باب، من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل، و حتى يصوّر لك الفصل وصلا، ببديع التأليف، و بليغ التنزيل. و إن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبيّن، و تتحقق بما ادعيناه زيادة تحقّق، فإن كنت من أهل الصنعة، فاعمد إلى قصة من هذه القصص، و حديث من هذه الأحاديث، فعبّر عنهن بعبارة من جهتك، و أخبر عنه بألفاظ من عندك. حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر، و تتبين فى نظم القرآن الدليل الباهر. و لذلك أعاد قصة موسى فى سور، و على طرق شتى، و فواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى. فعلك ترجع إلى عقلك، و تستر ما عندك، إن غلطت فى أمرك، أو ذهبت فى مذاهب وهمك، أو سلّطت على نفسك وجه ظنك. متى تهيأ البليغ أن يتصرف فى قدر آية فى أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة من غير أن يبين على كلامه إعياء الخروج و التنقل. أو يظهر على خطابه آثار التكلف و التعمّل. و أحسب أنه لا يسلم من هذا، و محال أن يسلم منه حتى يظفر بمثل تلك الكلمات، الأفراد، و الألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها، فيجلو فيها فقرة من كلامه، و قطعة من قوله. و لو اتفق له فى أحرف معدودة، و أسطر قليلة، فمتى يتّفق له فى قدر ما نقول: إنه من القرآن معجز؟

(_____ ۱) آية (۸) سورة النمل. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۵ هيهات هيهات!! إن الصبح يطمس النجوم و إن كانت زاهرة، و البحر يغمر الأنهار و إن كانت زاخرة.

متى تهيأ للآدمى أن يقول فى وصف كتاب سليمان عليه السّلام، بعد ذكر العنوان و التسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ «۱» و الخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، و اشتغلت به من المشورة، و من تعظيمها أمر المستشار، و من تعظيمهم أمرها، و طاعتها بتلك الألفاظ البديعة، و الكلمات العجيبة البليغة. ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ «۲» و ذكر قولهم: قالوا: نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ «۳» لا تجد فى صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به. و قوله: وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ تعلم براعته بنفسه، و عجيب معناه، و موضع اتفاقه فى هذا الكلام، و تمكن الفاصلة، و ملاءمته لما قبله، و ذلك قوله: فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ «۴» ثم إلى هذا الاختصار، و إلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسد الاختصار و يعميه التخفيف منه و الإيجاز. و هذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه و وقوعه موقعه. و يتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله و موضعه. و كم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الإفهام، و وقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام، ثم لو وقع على الإفهام و التمام، أخلّ بما يجب فيه من شروط الإحكام، أو بمعانى القصة و ما تقتضى من الإعظام ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصا فى وجه الحكمة، أو مدخولا فى باب السياسة، أو مصفوفا فى طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة، مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة، جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ، وحشى العبارة، أو مستبهم الجانب، مستكره الوضع. و أنت لا تجد فى جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد. و إذا اختصر كمل فى بابه و جاد. و إذا سرّح الحكيم فى جوانبه طرف خاطبه، و بعث العليم فى أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، و بدائع تترى، ثم فكر بعد ذلك فى آية آية، أو كلمة كلمة،

(_____ ۱) آية (۳۱) سورة النمل. (۲) آية (۳۲) سورة النمل. (۳) آية (۳۴) سورة النمل. (۴) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۶ فى قوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ «۱». هذه الكلمات الثلاث؛ كل واحدة منها كالنجم فى علوه و نوره، و كالياقوت يتلألأ بين شذوره. ثم تأمل تمكن الفاصلة، و هى الكلمة الثالثة، و حسن موقعها، و عجيب حكمها، و بارع معناها. و إن شرحت لك ما فى كل آية طال عليك الأمر، و لكنى قد بينت بما فسرت، و قررت بما فصلت الوجه الذى سلكت، و النحو الذى قصدت، و الغرض الذى إليه رميت، و السمت الذى إليه دعوت. ثم فكر بعد ذلك فى شىء أدلك عليه، و هو تعادل هذا النظم فى الإعجاز فى مواقع الآيات القصيرة و الطويلة و المتوسطة. فأجل الرأى فى سورة سورة، و آية آية، و فاصلة فاصلة، و تدبر الخواتم و الفواتح، و البوادى و المقاطع، و مواضع الفصل و الوصل، و مواضع التنقل و التحول، ثم اقض ما أنت قاض. و إن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سور. ما رأيك فى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً. يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «۲» هذه تشتمل على ست كلمات، سناؤها و ضياؤها على ما ترى، و سلاستها و ماؤها على ما تشاهد، و رونقها على ما تعاين، و فصاحتها على ما تعرف. و هى تشتمل على جملة و تفصيل، و تفسير ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق، بذبح الولدان، و سبى النساء. و إذا تحكّم فى هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، و القلوب لا تقرّ على هذا الجور. ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد، و كفت فى التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، و عطفت عجزه على صدره. ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «۳» و هذا من التأليف بين المؤتلف، و الجمع بين المستأنس، كما أن قوله: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا (_____ ۱) آية (۳۴) سورة النمل. (۲) آية (۵) سورة القصص. (۳) آية (۵) سورة النمل. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۷ وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «۱» و هى خمس كلمات متباعدة فى المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد من الشىء المؤتلف فى الأصل. و أحسن توافقا من المتطابق فى أول الوضع. و مثل هذه الآية قوله: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ

يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ «۲» و مثلها: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ «۳» و من المؤتلف قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ «۴» و هذه الثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر. و من الباب الآخر قوله تعالى: وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «۵» كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته. ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم، و نفور الطبع، و شراد الكلام، و تهافت القول، و تمنّع جانبه، و قصورك فى الإيضاح عن واجبه. ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة، و من فصل إلى فصل حتى تتبين عليك مواضع الوصل، و يستصعب عليك أماكن الفصل. ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، و أمثالا سائرة و حكما جليلة، و أدلة على التوحيد بينة، و كلمات فى التنزيه و التحميد شريفة. و إن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه فى المديح و الغزل و الفخر و الهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر عامى الكلام، سوقى الخطاب، مسترسلا فى أمره، متساهلا فى كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، و ناكبا عن المعهود من سجيته. فإن اتفق له فى قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة. و كان ما زاد عليها حشوا، و ما تجاوزها لغوا، و لا أقول إنها تخرج من عادته عفوا، لأنه يقصر عن العفو، و يقف دون العرف، و يتعرض للركاكة.

(_____ ۱) آية (۷۷) سورة القصص. (۲) آية (۶۸) سورة القصص. (۳) آية (۵۸) سورة القصص. (۴) آية (۸۱) سورة القصص. (۵) آية (۸۸) سورة القصص. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۸ فإن لم تقنع بما قلت لك من الأبيات فتأمل غير ذلك من السور. هل تجد الجميع على ما وصفت لك. لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت فى الإعجاز. فكيف بالقرآن العظيم؟ و لو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى، و أقنع، و شفى. و لو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينة سواها. بل قصة من قصصه و هى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ «۱» إلى قوله: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ. كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ «۲» حتى قال: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «۳» ثم قصة إبراهيم عليه السلام. ثم لو لم تكن إلا الآيات التى انتهى إليها القول فى ذكر القرآن، و هى قوله: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «۴» و هذه كلمات مفردة بفواصلها؛ منها ما يتضمن فاتحة و فاصلة، و منها ما هى فاتحة و واصلة، و فاصلة. و منها كلمة بفاصلتها تامة، دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرا. و بيّن أنه آية لكونه نبينا. ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «۵». فتأمل آية آية، لتعرف الإعجاز، و تتبين التصرف البديع، و التنقل فى الفصول إلى آخر السورة. ثم راع المقطع العجيب و هو قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «۶» هل يحسن أن تأتى بمثل هذا الوعيد و أن تنظم مثل هذا النظم، و أن تجد مثل هذه النظائر السابقة، و تصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة؟ و لو لا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته، و بينت لك ما فى كل واحدة منها من البراعة، و من عجيب البلاغة. و لعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، و تستضىء بنوره و تهتدى بهداه. و نحن نذكر آيات أخر، لتزداد استبصارا و تتقدم تيقنا (_____. ۱) آية (۵۲) سورة الشعراء. (۲) آية (۵۷- ۶۰) سورة الشعراء. (۳) آية (۶۳) سورة الشعراء. (۴) آية (۱۹۲- ۱۹۵) سورة الشعراء. (۵) آية (۲۱۴- ۲۱۵) سورة الشعراء. (۶) آية (۲۲۷) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲۹ تأمل من الكلام المؤتلف قوله: حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ «۱». أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء اللّه تعالى، و صفاته، فانظر متى وجدت فى كلام البشر و خطبهم مثل هذا النظم فى هذا القدر، و ما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعانى و حسن الفاتحة و الخاتمة. ثم اتل ما بعدها من الآى، و اعرف وجه الخلوص من شىء إلى شىء؛ من

احتجاج إلى وعيد، و من إعذار إلى إنذار، و من فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم، و متباعدة تتقارب بعلىّ الضم. ثم جاء إلى قوله: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ «۲» الآية الأولى أربعة فصول، و الثانية فصلان، وجه الوقوف على شرف الكلام: أن تتأمل موقع قوله: وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ «۳» و هل تقع فى الحسن موقع قوله: لِيَأْخُذُوهُ «۴» كلمة؟ و هل تقوم مقامه فى الجزالة لفظة؟ و هل يسد مسده فى الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه» أو «ليرجموه» أو «لينفوه» أو «ليطردوه» أو «ليهلكوه» أو «ليذلوه».؟ و نحو هذا ما كان ذلك بعيدا، و لا بارعا، و لا عجيبا، و لا بالغا. فانقد موضع هذه الكلمة، و تعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام، و جميل الألفاظ، و الاهتداء للمعانى. فإن كنت تقدر أن شيئا من هذه الكلمات التى عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع إلى التقليد، و أكف نفسك مئونة التفكير. و إن فطنت فانظر إلى ما قال من رد عجز الخطاب إلى صدره بقوله: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ «۵» ثم ذكر عقيبها العذاب فى الآخرة، و اتلاها تلو العذاب فى الدنيا، على الإحكام الذى رأيت. ثم ذكر المؤمنين بالقرآن، بعد ذكر المكذبين بالآيات و الرسل، فقال: الَّذِينَ

(_____ ۱) آية (۱: ۳) سورة غافر. (۲) آية (۵، ۶) سورة غافر. (۳) سبقت. (۴) سبقت. (۵) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۰ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ «۱» إلى أن ذكر ثلاث آيات، و هذا كلام مفصول، تعلم عجيب اتصاله بما سبق و مضى، و انتسابه إلى ما تقدم و تقضى، و عظم موضعه فى معناه، و رفيع ما يتضمن من تحميدهم و تسبيحهم. و حكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً «۲». هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظا و معنى؟ و لطيف هذه الحكاية، و تلاؤم هذا الكلام، و تشاكل هذا النظام. و كيف يهتدى إلى وضع هذه المعانى بشرى؟ و إلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسى، ثم ذكر ثلاث آيات فى أمر الكافرين على ما ترى، ثم نبه على أمر القرآن و أنه من آياته بقوله: هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ «۳». و إنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما، لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء، و لأن الرزّاق الذى لو لم يرزق لم يكن بقاء النفس، تجب طاعته، و النظر فى آياته. ثم قال: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ. رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «۴»، قف على هذه الدلالة و فكر فيها، و راجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية و الكلمات السامية، و الحكم البالغة، و المعانى الشريفة، تعلم ورودها عن الإلهية، و دلالتها على الربوبية، و تتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، و الأخبار المأثورة فى كلماتهم الفصيحة، من الكلام الذى تعلق به الهمم البشرية، و ما تحوم عليه الأفكار الآدمية، و تعرف مباينتها لهذا الضرب من القول. أى خاطر يتشوف إلى أن يقول: يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ «۵» و أى لفظ يدرك هذا المضمار، و أى حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغور، و أى فصيح يهتدى إلى هذا النظم؟ ثم استقرئ الآية إلى آخرها، و اعتبر كلماتها، و راع بعدها قوله: الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

(_____ ۱) آية (۷) سورة غافر. (۲) نفس الآية. (۳) آية (۱۳) سورة غافر. (۴) آية (۱۴: ۱۶) سورة غافر. (۵) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۱ الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ «۱». من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها، و على خفتها فى النظم و موقعها من القلب؟ ثم تأمل قوله: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ. يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِى الصُّدُورُ. وَ اللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «۲». كل كلمة من ذلك ما قد وصفتها من أنه إذا رآها الإنسان فى رسالة كانت عينها، أو فى خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها،

و بیت قصیدتها، کالیاقوتة التی تکون فریدة العقد، و عین القلادة و درة الشذر. إذا وقع بین کلام وشّحه، و إذا ضمّن فی نظام زیّنه، و إذا اعترض فی خطاب تمیز عنه، و بان بحسنه منه. و لست أقول هذا لک فی آیة دون آیة، و سورة دون سورة، و فصل دون فصل، و قصة دون قصة، و معنی دون معنی؛ لأنی قد شرحت لک أن الکلام فی حکایة القصص و الأخبار، و فی الشرائع و الأحکام، و فی الدیانة و التوحید، و فی الحجج و التثبیت، هو خلاف الکلام فیما عدا هذه الأمور. أ لا تری أن الشاعر المفلق إذا جاء إلی الزهد قصّر. و الأدیب إذا تکلم فی بیان الأحکام و ذکر الحلال و الحرام لم یکن کلامه علی حسب کلامه فی غیره ..؟ و نظم القرآن لا یتفاوت فی شیء، و لا یتباین فی أمر، و لا یختل فی حال. بل له المثل الأعلی، و الفضل الأسنی. و فیما شرحناه لک کفایة و فیما بیناه بلاغ. و نذکر فی الأحکامیات و غیرها آیات أخر منها قوله: یَسْئَلُونَکَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکُمُ اللَّهُ فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَیْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ «۳». أنت تجد فی هذه الآیة من الحکمة و التصرف العجیب و النظم البارع ما یدل لک إن شئت علی الإعجاز مع هذا الاختیار، و الإیجاز. فکیف إذا بلغ ذلک آیات و کانت سورة شئت علی الإعجاز مع هذا الاختیار، و الإیجاز. فکیف إذا بلغ ذلک آیات و کانت سورة و نحو هذه الآیة قوله: الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ (_____ ۱)

آیة (۷) سورة غافر. (۲) آیة (۱۸: ۲۰) سورة غافر. (۳) آیة (۴) سورة المائدة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۲ الْخَبائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ، فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۱» و کالآیة التی بعدها فی التوحید و إثبات النبوة کالآیات الثلاث فی المواریث. أی بارع یقدر علی جمع أحکام الفرائض فی قدرها من الکلام؟ ثم کیف یقدر علی ما فیها من بدیع النظم؟ و إن جئت إلی آیات الاحتجاج کقوله تعالی: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ. لا یُسْئَلُ عَمَّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ «۲». و کالآیات فی التوحید کقوله: هُوَ الْحَیُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ «۳» و کقوله: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً. الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً «۴» و کقوله: تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ «۵» إلی آخرها، و کقوله: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِراتِ زَجْراً. فَالتَّالِیاتِ ذِکْراً. إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ. رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ. إِنَّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَواکِبِ. وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مارِدٍ. لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «۶» هذه من الآیات التی قال فیها اللّه تعالی ذکره: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۷». و انظر بعین عقلک، و راجع جلیّة بصیرتک، إذا تفکرت فی کل کلمة مما نقلناه إلیک، و عرضناه علیک، ثم فیما ینتظم من الکلمات، ثم إلی أن یتکامل فصلا و قصة، أو یتم حدیثا و سورة. لا، بل فکر فی جمیع القرآن علی هذا الترتیب، و تدبّره علی نحو هذا التنزیل، فلم ندّع ما ادعیناه لبعضه، و لم نصف ما وصفناه إلا فی کلّه، و إن کانت الدلالة فی البعض أبین و أظهر، و الآیة أکشف و أبهر.

(_____ ۱) آیة (۱۵۷) سورة الأعراف. (۲) آیة (۲۲، ۲۳) سورة الأنبیاء. (۳) آیة (۶۵) سورة غافر. (۴) آیة (۱، ۲) سورة الفرقان. (۵) آیة (۱) سورة الملک. (۶) آیة (۱: ۱۰) سورة الصافات. (۷) آیة (۸) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۳ و إذا تأملت علی ما هدیناک إلیه، و وقفناک علیه، فانظر هل تری وقع هذا النور فی قلبک و اشتماله علی لبّک، و سریانه فی حسک، و نفوذه فی عروقک، و امتلاءک به إیقانا و إحاطة، و اهتداءک به إیمانا و بصیرة؟ أم هل تجد العرب یأخذ منک مأخذه من وجه. و الهزة تعمل فی جوانبک من لون، و الأریحیّة تستولی علیک من باب؟ و هل تجد الطرب یستفزّک للطیف ما فطنت له، و السرور یحرکک من عجیب ما وقفت علیه، و تجد فی نفسک من

المعرفة التی حدثت لک عزّة، و فی أعطافک ارتیاحا و هزّة. و تری لک فی الفضل تقدما و تبریزا، و فی الیقین سبقا و تحقیقا، و تری مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، و مهاویهم فی ظلال القلة و الذلة، و أقدارهم بالعین التی یجب أن تلحظ بها مراتبهم، بحیث یجب أن ترتبها؟ هذا کله فی تأمل الکلام، و نظامه، و عجیب معانیه و أحکامه. فإن جئت إلی ما انبسط فی العالم من برکته و أنواره، و تمکن فی الآفاق من یمنه و أضوائه، و ثبت فی القلوب من إکباره و إعظامه، و تقرر فی النفوس من حتم أمره و نهیه. و مضی فی الدماء من مفروض حکمه، و إلی أنه جعل عماد الصلاة التی هی تلو الإیمان فی التأکید، و ثانیة التوحید فی الوجوب، و فرض حفظه، و وکل الصغار و الکبار بتلاوته، و أمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظیمه من قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ «۱» لم یؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر کما أمر به لافتتاحه، فهل یدلک هذا علی عظیم شأنه، و راجح میزانه، و عالی مکانه ..؟ و جملة الأمر أنّ نقد الکلام شدید، و تمییزه صعب. و مما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه العسکری أخبرنی أبو بکر بن درید، قال: سمعت أبا حاتم یقول: سمعت الأصمعی یقول: فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب. و قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء یقول: العلماء بالشعر أعز من الکبریت الأحمر. و إذا کان الکلام المتعارف المتداول بین الناس یشق تمییزه، و یصعب نقده، و یذهب عن محاسنه الکثیر، و ینظرون إلی کثیر من قبیحه بعین الحسن، و کثیر من حسنه بعین القبح. ثم یختلفون فی الأحسن منه اختلافا کثیرا، و تتباین آراؤهم فی تفضیل ما یفضل منه. فکیف لا یتحیرون فیما لا یحیط به علمهم، و لا یتأتی فی مقدورهم، و لا یمثل بخواطرهم؟ و قد حیّر القوم الذین لم یکن أحد أفصح منهم، و لا أتم بلاغة، و لا أحسن براعة، حتی دهشوا حین ورد علیهم، و ولهت عقولهم. و لم یکن عندهم فیه جواب غیر ضرب الأمثال، و التحرّض علیه، و التوهم فیه، و تقسیمه أقساما، و جعله عضین.

(۱) آیة (۹۸) سورة النحل. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۴ و کیف لا یکون أحسن الکلام، و قد قال اللّه تعالی: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ، ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۱» استغنم فهم هذه الآیة، و کفاک. استفد علم هذه الکلمات، و قد أغناک، فلیس یوقف علی حسن الکلام بطوله، و لا تعرف براعته بکثرة فصوله. إن القلیل یدل علی الکثیر، و القریب قد یهجم بک علی البعید. ثم إنه سبحانه و تعالی لما علم من عظم شأن هذه المعرفة، و کبر محلها، و ذهابها علی أقوام، ذکر فی آخر هذه الآیة ما ذکر، و بیّن ما بیّن، فقال: ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ «۲» فلا یعلم ما وصفنا لک إلا بدایة من العزیز الحمید، و قال: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۳» و قال: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً «۴» و قد بسطنا لک القول، رجاء إفهامک. و هذا المنهاج الذی رأیته إن سلکته یأخذ بیدک، و یدلک علی رشدک، و یغنیک عن ذکر براعته، آیة، آیة لک. و اعلم أنا لم نقصد فیما سطرناه من الآیات، و سمیناه من السور و الدلالات، ذکر الأحسن و الأکشف و الأظهر؛ لأنا نعتقد فی کل سورة ذکرناها، أو أضربنا عن ذکرها، اعتقادا واحدا فی الدلالة علی الإعجاز، و الکفایة فی التمنع و البرهان. و لکن لم یکن بدّ من ذکر بعض، فذکرنا ما تیسر، و قلنا فیما اتجه فی الحال و خطر. و إن کنا نعتقد أن الإعجاز فی بعض القرآن أظهر، و فی بعض أدق و أغمض. و الکلام فی هذا الفصل یجیء بعد هذا. فاحفظ عنا فی الجملة ما کررنا، و السیر بعد ذلک فی التفصیل إلیک. و حصل ما أعطیناک من العلامة، ثم النظر علیک. قد اعتمدنا علی أن الآیات تنقسم إلی قسمین: أحدهما ما یتم بنفسه، أو بنفسه و فاصلته. فینیر فی الکلام إنارة النجم فی الظلام، و الثانی: ما یشتمل علی کلمتین أو کلمات إذا تأملتها وجدت کل کلمة منها فی نهایة البراعة، و غایة البلاغة. و إنما یبین ذلک بأن تتصور هذه الکلمة مضمّنة بین أضعاف کلام کثیر، أو خطاب طویل، فتراها ما بینها تدل علی نفسها، و تعلو علی ما قد قرن منها لعلو جنسها. فإذا ضمت إلی أخواتها، و جاءت فی ذواتها، أرتک القلائد منظومة، کما کانت تریک عند تأمل الأفراد

(۱) آیة (۲۳) سورة الزمر. (۲) سبقت. (۳) سبقت. (۴) آیة (۲۶) سورة البقرة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۵ منها الیواقیت منثورة، و الجواهر مبثوثة. و لو لا ما أکره من

تضمین القرآن فی الشعر لأنشدتک ألفاظا وقعت مضمّنة لتعلم کیف تلوح علیه، و کیف تری بهجتها فی أثنائه، و کیف تمتاز منه، حتی أنه لو تأمله من لم یقرأ القرآن، لتبین أنه أجنبی من الکلام الذی تضمنه، و الباب الذی توسطه، و أنکر مکانه، و استکبر موضعه. ثم تناسبها فی البلاغة و الإبداع، و تماثلها فی السلاسة و الإغراب. ثم انفرادها بذلک الأسلوب، و تخصصها بذلک الترتیب. ثم سائر ما قدمنا ذکره مما نکره إعادته. و أنت تری غیره من الکلام یضطرب فی مجاریه، و یختل تصرفه فی معانیه، و یتفاوت التفاوت الکثیر فی طرقه، و یضیق به النطاق فی مذاهبه، و یرتبک فی أطرافه و جوانبه، و یسلمه للتکلف الوحشی کثرة تصرفه، و یحیله علی التصنع الظاهر موارد تنقله و تخلصه. و نظم القرآن فی مؤتلفه و مختلفه، و فی فصله و وصله، و افتتاحه و اختتامه، و فی کل نهج یسلکه، و طریق یأخذ فیه، و باب یتهجم علیه، و وجه یؤمه علی ما وصفه تعالی به، لا یتفاوت، کما قال: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۱» و لا یخرج عن تشابهه و تماثله کما قال: قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ «۲» و کما قال: کِتاباً مُتَشابِهاً «۳» و لا یخرج عن إبانته کما قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ «۴» و غیره من الکلام کثیر التلون، دائم التغیر، یقف بک علی بدیع مستحسن، و یعقبه قبیح مستهجن، و یطلع علیک بوجه الحسناء، ثم یعرض للهجر بخد القبیحة الشوهاء، و یأتیک باللفظة المستنکرة بین الکلمات التی هی کاللآلئ الزّهر. و قد یأتیک باللفظة الحسنة بین الکلمات البهم. قد یقع إلیک منه الکلام المثبج و النظم المشوّش، و الحدیث المشوّه. و قد تجد منه ما لا یتناسب و لا یتشابه، و لا یتآلف و لا یتماثل. و قد قیل فی وصف ما جری هذا المجری: و شعر کبعر الکبش فرّق بینه لسان دعیّ فی القریض دخیل و قال آخر (_____: ۱) آیة (۸۲) سورة النساء. (۲) آیة (۲۸) سورة الزمر. (۳) آیة (۲۳) سورة الزمر. (۴) آیة (۱۹۵) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۶ و بعض قریض القوم أولاد علّة یکدّ لسان الناطق المتحفّظ فإن قال قائل: فقد نجد فی آیات القرآن ما یکون نظمه بخلاف ما وصفت، و لا تتمیز الکلمات بوجه البراعة، و إنما تکون البراعة عندک منه فی مقدار یزید علی الکلمات المفردة، و حدّ یتجاوز حدّ الألفاظ المستندة. و إن کان الأکثر علی ما وصفته به؟ قیل له: نحن نعلم أن قوله: حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ وَ أَخَواتُکُمْ وَ عَمَّاتُکُمْ وَ خالاتُکُمْ «۱» إلی آخر الآیة لیس من القبیل الذی یمکن إظهار البراعة فیه و إبانة الفصاحة، و ذاک یجری عندنا مجری ما یحتاج إلی ذکره من الأسماء و الألقاب، فلا یمکن إظهار البلاغة فیه. فطلبها فی نحو هذا ضرب من الجهالة، بل الذی یعتبر فی نحو ذلک تنزیل الخطاب، و ظهور الحکمة فی الترتیب و المعنی. و ذلک حاصل فی هذه الآیة إن تأملت. أ لا تری أنه بدأ بذکر الأم، لعظم حرمتها، و إدلائها بنفسها، و مکان بعضیّتها، فهی أصل لکل من یدلی بنفسه منهن، لأنه لیس فی ذوات الأنساب أقرب منها. و لما جاء إلی ذوات الأسباب ألحق بها حکم الأم من الرضاع، لأن الرحم ینشره اللبن بما یغذوه. فیحصل بذلک أیضا لها حکم البعضیة، فنشر الحرمة بهذا المعنی، و ألحقها بالوالدة. و ذکر الأخوات من الرضاعة، فنبه بها علی کل من یدلی بغیرها و جعلها تلو الأم من الرضاع. و الکلام فی إظهار حکم هذه الآیة و فوائدها یطول، و لم نضع کتابنا لهذا. و سبیل هذا أن نذکره فی کتاب معانی القرآن إن سهل اللّه لنا إملاءه و جمعه، فلم تنفک هذه الآیة من الحکم التی تخلف حکمة الإعجاز فی النظم و التألیف. و الفائدة التی تنوب مناب العدول عن البراعة فی وجه الترصیف. فقد علم السائل أنه لم یأت بشیء، و لم یهتد للأغراض فی دلالات الکلام، و فوائده و متصرفاته و فنونه و متوجهاته. و قد یتفق فی الشعر ذکر الأسامی فیحسن موقعه، کقول أبی داود الأسدی: إن یقتلوک فقد ثللت عروشهم بعتبة بن الحارث بن شهاب بأشدهم کلبا علی أعدائه و أعزّهم فقدا علی الأصحاب و قد یتفق ذکر الأسامی فیفسد النظم، و یقبح الوزن. و الآیات الأحکامیات التی لا بد فیها من أمر البلاغة، یعتبر فیها من الألفاظ ما یعتبر فی غیرها. و قد یمکن فیها، و کل موضع أمکن ذلک، فقد وجد فی القرآن فی بابه ما لیس علیه مزید فی البلاغة و عجیب النظم. (_____۱) آیة (۲۳) سورة النساء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۷ ثم فی جملة الآیات ما إن لم تراع البدیع البلیغ فی الکلمات الأفراد و الألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلک مع ترکب الکلمتین و الثلاث. و یطرد ذلک فی الابتداء و الخروج، و الفواصل، و ما یقع بین الفاتحة و الخاتمة من الواسطة، أو باجتماع

ذلـك أو فى بعض ذلك ما يخلف الإبـداع فى أفراد الكلمات. و إن كانت الجملـة و المعظم على ما سـبق الوصف فيه. و إذا عرف ما يجرى إليه الكلاـم، و ينهى إليه الخطاب، و يقف عليه الأسـلوب، و يختص به القبيل بان عنـد أهل الصـنعة تميّز بابه، و انفراد سبيله. و لم يشـك البليغ فى انتمائه إلى الجهـة التى ينتمى إليها، و لم يرتب الأديب البارع فى انتسابه إلى ما عرف من نهجه. و هـذا كما يعرف طريقه مترسّـل فى رسـالته، فهو لاـ يخفى عليه بنـاء قاعـدته و أساسه، فكأنه يرى أنه يعـد عليه مجارى حركاته و أنفاسه. و كـذلك فى الشـعر و اختلاف ضـروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحـد، و سبيل كل شاعر. و فى نظم القرآن أبواب كثيرة لم نسـتوفها، و تقصـيها يطول، و عجائبها لا تنقضـى. فمنها اللفظ و الإشارات. و إذا بلغ الكلام من هـذا القبيل مبلغا ربما زاد الإفهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير و الشرح مع استيفائه شروطه، كان النهاية فى معناه، و ذلك كقوله: سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «۱» فصول هذه الآية و كلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة و اللطف فى التقـدم، و فى تضـمن هـذا الأـمر العظيم، و المقـام الكريم. و يتلو هـذه قوله: وَ آتَيْنـا مُوسَـى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُـدىً لِبَنِى إِسْرائِيلَ «۲» هـذا خروج، لو كـان فى غير هـذا الكلاـم، لتصور فى صورة المنقطع. و قـد تمثل فى هـذا النظم لبراعته، و عجيب أمره، و موقع مـا لاـ ينفـك منه القول. و قـد يتبرأ الكلاـم المتصـل بعضه من بعض، و يظهر عليه التثبيـج و التبـاين للخلل الواقع فى النظم. و قد تصوّر هـذا الفصـل للطفه وصـلا، و لم يبن عليه تميز الخروج. ثم انظر كيف أجرى هـذا الخطـاب إلى ذكر نوح، و كيف أثنى عليه، و كيف يليق صـفته بالفاصـلة، و يتم النظم بهـا، مع خروجهـا مخرج البروز من الكلاـم الأـول إلى ذكره، و إجرائه إلى مـدحه بشـكره، و كـــونهم مـــن ذريتـــه يـــوجب عليهـــم أن يســـيروا بســـيرته، و أن يســـتنوا بســـنته فى أن يشـــكروا

(_____ ۱) آيـة (۱) سـورة الإسـراء. (۲) آيـة (۲) سورة الإسـراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۸ كشـكره، و لا يتخـذوا من دون اللّه وكيلا، و أن يعتقـدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفـان لمّا حملهم عليه، و نجاهم فيه، حين أهلك من عـداهم به. و قـد عرفهم أنه إنما مؤاخـذهم بـذنوبهم و فسادهم فيما سـلط عليهم من قبلهم و عاقبهم. ثم عاد عليهم بالإفضال و الإحسان حتى يتـذكروا و يعرفوا قدر نعمة اللّه عليهم، و على نوح الذى ولدهم، و هم من ذريته. فلمـا عـادوا إلى جهالتهم و تمردوا فى طغيانهم، عاد عليهم بالتعـذيب. ثم ذكر اللّه عز و جل فى ثلاث آيات بعـد ذلك معنى هذه القصة، التى كانت لهم بكلمات قليلة فى العدد، كثيرة الفوائد، لا يمكن شـرحها إلا بالتفصيل الكثير و الكلام الطويل. ثم لم يخل تضاعف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدرج، و أبدع تاريخ بقوله إِنْ أَحْسَـنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها «۱» و لم ينقطع بذلك الكلام. و أنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله، و ينتشر مع انتظامه. فكيف بإلقاء ما ليس منه فى أثنائه، و طرح ما بعده فى أدراجه إلى أن خرج إلى قوله: عَسـى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا «۲» يعنى إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو، ثم خرج خروجا آخر إلى ذكر القرآن. و على هذا فقس بحثك عن شـرف الكلام، و ما له من علو الشأن، لا يطلب مطلبا إلا انفتح، و لا يسلك قلبا إلا انشـرح، و لا يذهب مذهبا إلا اسـتنار و أضاء، و لا يضـرب مضـربا إلا بلغ فيه السـماء. لا تقع منه على فائدة، فقدّرت أنها أقصى فوائدها إلا قصّـرت. و لا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا و قد أخللت. إن الذى عارض القرآن بشعر امرئ القيس «۳» لأضل من حمار أهله، و أحمق من هبنّقـة، لو كان شـعره كله كالأبيات المختارة التى قدمناها، لأوجب البراءة من قوله: و سنّ كسـنّيق سـناء و سنّمه ذعرت بمدلاج الهجير نهوض قال الأصـمعى «۴»: لا أدرى ما السنّ، و لا السـنيق، و لا التسـنم؟! و قال بعضهم: السنق أكمة، و قال فيهـا لـه قصـريا عنز، و ساقـا نعامـة كفحـل الهجـان القيصـرى العضـوض و قـوله: عصـافير و ذبـان و دود و أجرأ مـن مجلّحـة الـذّئاب

(_____ ۱) آيـة (۷) سـورة الإسـراء. (۲) آيـة (۸) سورة الإسـراء. (۳) سبقت ترجمته. (۴) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۹ و زاد فى تقبيح ذلك وقوعه فى أبيات فيها: فقد طوّفت فى الآفاق حتّى رضـيت من الغنيمة بالإياب و كل مكارم الأخلاق صارت إليه همّتى و به اكتسابى و كقوله فى قصيدة قالهـا فى نهايـة السـقوط: أزمـان فوهـا كلما نبهتها كالمسك فاح و ظل فى القـدّام أ فلا ترى أظعانهنّ بواكرا كالنّخل من شوكان حين

صرام و كأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام و كقوله: لم يفعلوا فعل آل حنظلة إنهم جير بئسما ائتمروا لا حميرىّ و فى و لا عدس و لا اس ت غير يحكّها النّفر إن بنى عوف ابتنوا حسبا ضيّعه الداخلون إذ غدروا و كقوله: أبلغ شهابا و أبلغ هل أتاك الحيز مال إنا تركنا منكم قتلى بخوعى و سبيا كالسعالى يمشين بين رحالنا معترفات بجوع و هزال و لم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى «۱»: فأدخلك اللّه برد الجنان جذلان فى مدخل طيب و قال أيضا: فرميت غفلة عينه عن شأنه فأصبت حبة قلبها و طحالها و قال فى فرسه: و يأمر لليحموم كل عشيّة بقتّ و تعليق فقد كاد يسنق و قال: «شاو مشلّ شلول شلشل شول». و هذه الألفاظ فى معنى واحد و قد وقع لزهير «۲» نحوه كقوله: فأقسمت جهدا بالمنازل من منى و ما سحفت فيه المقاديم و القمل كيف يقال هذا فى قصيدة يقول فيها: و هل ينبت الخطى إلا وشيجه و تغرس إلا فى منابتها النّخل

(_____ ۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۰ و كقول الطرماح «۱»: سوف تدنيك من لميس سبنتا ة أمارت بالبول ماء الكراض السبنتاة: الناقة الصلبة. و الكراض: ماء الفحل. أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه، و لم تحمل فتضعف. و المائر: السائل. فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس، و رأيت أن شعره يتفاوت بين اللين و الشراسة، و بين اللطف و الشكاسة، و بين التوحش و الاستئناس، و التقارب و التباعد. و رأيت الكلام الأعدل أفضل، و النظام المستوثق أكمل، و أنت تجد البحترى «۲» يسبق فى هذا الميدان، و يفوت الغاية فى هذا الشأن. و أنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، و يقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى. و كذلك تجد لأبى نواس من بهجة اللفظ، و دقيق المعنى ما يتحير فيه أهل اللفظ، و يقدمه الشطار و الظرف على كل شاعر، و يرون لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره، و زبرجا لا يتّفق لسواه. فكيف يعرف فضل ما سواه عليه؟ فالجواب أن الكلام فى أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن و قد تقدم. و إذ كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس و هو كبيرهم الذى يقرون بتقدمه، و شيخهم الذى يعترفون بفضله، و قائدهم الذى يأتمون به، و إمامهم الذى يرجعون إليه. كيف سبيله؟ و كيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن؟ و إنه لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم. و هو إذا لحظ ذلك كان كما قال: فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح فى إعجاز نجم مغرّب و كما قال أيضا: راحت مشرقة و رحت مغرّبا فمتى التقاء مشرق و مغرّب و إذا كنا قد أبّنّا فى القاعدة ما علمت، و فصلنا لك فى شعره ما عرفت، لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر شاعر، و كلام كل بليغ. و القليل يدل على الكثير. و قد بيّنا فى الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، و مزيته عليها فى النظم و الترتيب، و تقدمه عليها فى كل حكمة و براعة. ثم تكلمنا على التفصيل على ما شهدت، و لا يبقى علينا بعد ذلك سؤال (_____ ۱)

الطرماح هو: ابن حكيم من طى، كان من فحول الشعراء الإسلاميين و فصحائهم، نشأ فى الشام، و انتقل إلى الكوفة بعد ذلك، و اعتقد مذهب الشراة و الأزارقة. مات سنة (۱۰۰ ه). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۳/ ۴۱۸. و الأغانى ۱۰/ ۱۵۶، و الجمهرة (۱۹۰). (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۱ ثم نقول أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة، به من الشغل فى تفضيله على ابن الرّومى، أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس و من فى طبقته. و كذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، و يقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره. و إنما يقع بينهم التباين اليسير و التفاوت القليل. فأما يظنّ ظانّ أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ «۱» و إنما هى خواطر يغير بعضها على بعض، و يقتدى فيها بعض ببعض، و الغرض الذى يرمى إليه و يصح التوافى عليه، فى الجملة، فهو قبيل متداول، و جنس متنازع، و شريعة موروثة، و طريقة مسلوكة. أ لا ترى إلى ما روى عن الحسين «۲» بن الضحاك قال: أنشدت أبا نواس «۳» قصيدتى التى فيها: و شاطرىّ اللسان مختلق التّك ريه زان المجون بالنّسك كأنه نصب كأنه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك قال: فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها: أعاذل أعتبت الإمام و اعتبا و أعربت عما فى الضمير و أعربا و قلت لساقيها أجزها فلم أكد ليأبى أمير المؤمنين و أشربا فجوّزها عنى عقارا ترى لها إلى الشّرف الأعلى شعاعا مطنبا إذا عبّ فيها شارب

القوم خلّته يقبّل فى داج من الليل كوكبا قال: فقلت له: يا أبا على هذه مقالتى، فقال: أ تظن أنه يروى لك معنى و أنا حى ..؟ فتأمل هذا الأخذ، و هذا الوضع، و هذا الاتباع. أما الخليع فقد رأى الإبداع فى المعنى. فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنّه؛ لأن قوله: يكرع ليس بصحيح، و فيه ثقل بيّن و تفاوت، و فيه إحالة؛ لأن القمر لا يصح تصوّرا أن يكرع فى نجم. و أما قول أبى نواس: إذا عب فيها، فكلمة قد قصد فيها المتانة، و كان سبيله أن يختار

(_____ ۱) آية (۲۱) سورة الحج. (۲)

الحسين بن الضحاك، ولد فى البصرة، و نشأ فيها، و نادم الخلفاء من بنى العباس، و كان خليعا فاسدا، و هو أول من نادم الأمين، و له فيه مدائح كثيرة. مات سنة (۲۵۰ ه). له ترجمة فى: الأغانى ۶/ ۱۷۰، و وفيات الأعيان ۱/ ۱۵۴، و شذرات الذهب ۲/ ۱۲۳. (۳) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۲ سواها من ألفاظ الشرب، و لو فعل ذلك كان أملح. و قوله شارب القوم فيه ضرب من التكلف الذى لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن. ثم قوله: «خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا» تشبيه بحالة واحدة من أحواله، و هى أن يشرب حيث لا ضوء هناك، و إنما يتناوله ليلا فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع و الملاحة. و قد قال ابن الرومى «۱» ما هو أوقع منه و أملح و أبدع: و مهفهف تمّت محاسنه حتى تجاوز منية النّفس تصبو الكئوس إلى مراشفه و نحن فى يده إلى الحبس أبصرته و الكأس بين فم منه و بين أنامل خمس و كأنها و كأن شاربها قمر يقبّل عارض الشمس و لا شك فى أن تشبيه ابن الرومى أحسن و أعجب، إلا أنه تمكن من إيراده فى بيتين و هما مع سبقهما إلى المعنى أتيا به فى بيت واحد. و إنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس و التعارض و الأطماع، متعلقة بها، و الهمم تسمو إليها. و هى ألف طباعنا، و طوع مداركنا، و مجانس لكلامنا. و إعجاب قوم بنحو هذا و ما يجرى مجراها، و إيثار أقوام لشعر البحترى على أبى تمام، و عبد الصمد، و ابن الرومى، و تقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه، و ذهاب قوم عند التفرقة ليس بأمر يضرّ بنا، و لا سبب يعترض على أفهامنا. و نحن نعمد إلى بعض قصائد البحترى فنتكلم عليها كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر فى كتابنا بصيرة، و يستخلص من سر المعرفة سريرة، و يعلم كيف تكون الموازنة، و كيف تقع المشابهة و المقاربة، و نجعل تلك القصيدة التى نذكرها أجود شعره. سمعت الصّاحب إسماعيل بن عباد يقول: سمعت أبا الفضل بن العميد يقول: سمعت أبا مسلم الرّستمى يقول: سمعت البحترى يذكر أن أجود شعر قاله: «أهلا بذلكم الخيال المقبل». قال: و سمعت أبا الفضل بن العميد يقول: أجود شعره هو قوله: «فى الشيب زجر له لو كان ينزجر (_____ ». ۱) سبقت ترجمته. إعجاز

القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۳ قال: و سئلت عن ذلك فقلت: البحترى أعرف بشعر نفسه من غيره. فنحن الآن نقول فى هذه القصيدة ما يصلح فى مثل هذا قوله: أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أو لم يفعل برق سرى فى بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الرّكاب الضّلّل البيت الأول فى قوله: ذلكم الخيال، ثقل روح، و تطويل و حشو، و غيره أصلح له، و أخف منه قول الصّنوبرى: أهلا بذاك الزّور من زور شمس بدت فى فلك الدّور و عذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير إلى الكزازة، و تعود ملاحته بذلك ملوحة، و فصاحته عيا، و براعته تكلفا، و سلاسته تعسفا، و ملامسته تلويا و تعقدا. فهذا فصل و فيه شىء آخر، و هو: أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال، حال إقباله. فأما أن يحكى الحال التى كانت و سلفت على هذه العيادة، ففيه عهدة. و فى تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة، و هو لبراعته و حذقه فى هذه الصنعة يعلق نحو هذا الكلام، و لا ينظر فى عواقبه، لأن ملاحة قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور. ثم قوله: «فعل الذى نهواه أو لم يفعل» ليست بكلمة رشيقة، و لا لفظة ظريفة، و إن كانت كسائر الكلام. فأما بيته الثانى فهو عظيم الموقع فى البهجة و بديع المأخذ، حسن الرواء، أنيق المنظر و المسمع، يملأ القلب و الفهم و يفرح الخاطر. و ترى بشاشته فى العروق، و كان البحترى يسمى نحو هذه الأبيات: «عروق الذهب». و فى نحوه ما يدل على براعته فى الصناعة، و حذقه فى البلاغة. و مع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل، مع الديباجة الحسنة، و الرونق المليح. و ذلك أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه فى مسراه، كما يقال: إنه يسرى كنسيم الصبا فيطيب ما مر به. كذلك يضىء ما مر حوله و ينور ما مر به. و هذا

غلوّ فی الصنعة، إلا أن ذکره: «بطن و جرة» حشو، و فی ذکره خلل؛ لأن النور القلیل یؤثر فی بطون الأرض و ما اطمأن منها، بخلاف ما یؤثر فی غیرها. فلم یکن من سبیله أن یربط ذلک ببطن وجرة، و تحدیده المکان علی الحشو أحمد من تحدید امرئ القیس من ذکر: «سقط اللوی بین الدخول فحومل، فتوضح فالمقراة» لم یقنع بذکر حد حتی حده بأربع حدود. کأنه یرید بیع المنزل، فیخشی إن أخل بحد أن یکون بیعه فاسدا أو شرطه باطلا- فهذا باب. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۴ ثم إنما یذکر الخیال بخفاء الأثر و دقة المطلب و لطف المسلک. و هذا الذی ذکر یضاد هذا الوجه، و یخالف ما یوضع علیه أصل الباب. و لا یجوز أن یقدر مقدر أن البحتری قطع الکلام الأول و ابتدأ بذکر برق لمع من ناحیة حبیبه، من جهة بطن و جرة، لأن هذا القطع إن کان فعله کان خارجا به عن النظم المحمود، و لم یکن مبدعا. ثم کان لا تکون فیه فائدة، لأن کل برق شعل و تکرر وقع الاهتداء به فی الظلام. و کان لا یکون بما نظمه مفیدا، و لا متقدما، و هو علی ما کان من مقصده، فهو ذو لفظ محمود، و معنی مستحب غیر مقصود. و یعلم بمثله أنه طلب العبارات، و تعلیق القول بالإشارات. و هذا من الشعر الحسن الذی یحلو لفظه و تقل فوائده کقول القائل: و لما قضینا من منی کل حاجة و مسّح بالأرکان من هو ماسح و شدّت علی حدب المهاری رحالنا و لا ینظر الغادی الذی هو رائح أخذنا بأطراف الأحادیث بیننا و سالت بأعناق المطیّ الأباطح هذه ألفاظ بعیدة المطالع و المقاطع، حلوة المجانی و المواقع، قلیلة المعانی و الفوائد. فأما قول البحتری بعد ذلک: من غادة منعت و تمنع نیلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل کالبدر غیر مخیل و الغصن غ یر ممیل و الدّعص غیر مهیّل فالبیت الأول علی ما تکلف فیه من المطابقة و تجشم الصنعة ألفاظه أوفر من معانیه، و کلماته أکثر من فوائده. و تعلم أن القصد وضع العبارات فی مثله. و لو قال: هی ممنوعة مانعة، کان ینوب عن تطویله، و تکثیره الکلام و تهویله ثم هو معنی متداول مکرر علی کل لسان. و أما البیت الثانی فأنت تعلم أن التشبیه بالبدر و الغصن و الدعص أمر منقول متداول و لا فضیلة فی التشبیه بنحو ذلک. و إنما یبقی تشبیهة ثلاثة أشیاء فی البیت، و هذا أیضا قریب لأن المعنی مکرر و یبقی له بعد ذلک شیء آخر، و هو تعلمه للترصیع فی البیت کله. إلا أن هذه الاستثناءات فیها ضرب من التکلف، لأن التشبیه بالغصن کاف. فإذا زاد فقال کالغصن غیر معوج، کان ذلک من باب التکلف خللا- و کان ذلک زیادة یستغنی عنها. و کذلک قوله: کالدعص غیر مهیل، لأنه إذا انهال خرج عن أن یکون مطلق التشبیه مصروفا إلیه. فلا- یکون لتقییده معنی و أما قوله: ما الحسن عندک یا سعاد بمحسن فیما أتاه و لا- الجمال بمجمل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۵ عذل المشوق و إن من سیما الهوی فی حیث یجهله لجاج العذّل قوله فی البیت الأول: عندک حشو. و لیس بواقع و لا بدیع، و فیه کلفة. و المعنی الذی قصده أنت تعلم أنه متکرر علی لسان الشعراء. و فیه شیء آخر لأنه یذکر أن حسنا لم یحسن فی تهییج وجده، و تهییم قلبه. و ضد هذا المعنی هو الذی یمیل إلیه أهل الهوی و الحب. و بیت کشاجم أسلم من هذا و أبعد من الخلل و هو قوله: بحیاة حسنک أحسنی، و بحق من جعل الجمال علیک وقفا أجملی و أما البیت الثانی فإن قوله: فی حیث حشا بقوله: فی، و وقع ذلک مستنکرا وحشیا نافرا عن طبعه، جافیا فی وضعه، فهو کرقعة من جلد فی دیباج حسن. فهو یمحو حسنه، و یأتی علی جماله. ثم فی المعنی شیء، لأن لجاج العذل لا- یدل علی هوی مجهول و لو کان مجهولا- لم یهتد. و العذل علیه، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانی. ثم لو سلم من هذا الخلل، لم یکن فی البیت معنی بدیع و لا شیء یفوت قول الشعراء فی العذل، فإن ذلک جملهم الذلول، و قولهم المکرر، و أما قوله: ما ذا علیک من انتظار متیم؟ بل ما یضرّک وقفة فی منزل؟ إن سیل عیّ عن الجواب فلم یطق رجعا فکیف یکون إن لم یسأل؟ لست أنکر حسن البیتین و ظرفهما، و رشاقتهما و لطفهما و ماءهما و بهجتهما، إلا أن البیت الأول منقطع عن الکلام المتقدم ضربا من الانقطاع، لأنه لم یجر لمشافهة العاذل ذکر، و إنما جری ذکر العذّال علی وجه لا یتصل هذا البیت به و لا یلائمه. ثم الذی ذکره من الانتظار و إن کان ملیحا فی اللفظ فهو فی المعنی متکلف، لأن الواقف فی الدار لا- ینتظر أمرا، و إنما یقف تحسرا و تذللا و تحیرا. و الشطر الأخیر من البیت واقع، و الأول مستجلب، و فیه تعلیق علی أمر لم یجر له ذکر. لأن وضع البیت یقتضی تقدم عذل علی الوقوف، و لم یحصل ذلک مذکورا فی شعره من قبل. و أما البیت الثانی: فإنه معلق بالأول لا یستقل إلا به. و هم یعیبون وقوف البیت علی غیره، و یرون أن البیت التام هو المحمود، و المصراع التام بنفسه بحیث لا یقف

علی المصراع الآخر أفضل و أتم و أحسن. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۶ و قوله: فکیف یکون إن لم یسأل، ملیح جدا، و لا تستمر ملاحة ما قبله علیه، و لا یطرد فیه الماء اطراده فیه. و فیه شیء آخر، لأنه لا یصلح أن یکون السؤال سببا لأن یعیا عن الجواب. و ظاهر القول یقتضیه، فأما قوله: لا تکلفنّ لی الدموع فإن لی دمعا ینمّ علیه إن لم یفضل و لقد سکنت إلی الصدود من النوی و الشّری أری عند طعم الحنظل و کذاک طرفه حین أوجس ضربة فی الرأس هان علیه فصد الأکحل فالبیت الأول مخالف لما علیه مذهبهم فی طلب الإسعاد بالدموع و الإسعاف بالبکاء. و مخالف لأول کلامه لأنه یفید مخاطبة العذل. و هذا یفید مخاطبة الرفیق. و قد بینت لک أن القوم یسلکون حفظ الألفاظ و تصنیعها دون ضبط المعانی و ترتیبها. و لذلک قال اللّه عز و جل: وَ الشُّعَراءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وادٍ یَهِیمُونَ. وَ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ ما لا یَفْعَلُونَ «۱» فأخبر أنهم یتبعون القول حیث توجه بهم، و اللفظ کیف أطاعهم، و المعانی کیف تتبع ألفاظهم. و ذلک خلاف ما وضع علیه الإبانة عن المقاصد بالخطاب. و لذلک کان طلب الفصاحة فیه أسهل و أمکن، فصار بهذا أبلغ خطابهم. ثم لو أن هذا البیت و ما یتلوه من البیتین سلم من نحو هذا، لم یکن فی ذلک شیء یفوت شعر شاعر، أو کلام متکلم. و أما قوله: و الشری أری، فإنه و إن کان قد تصنع له من جهة الطباق، و من جهة التجنیس المقارب، فهی کلمة ثقیلة علی اللسان، و هم یذمون نحو هذا. کما عابوا علی أبی تمام قوله: کریم متی أمدحه أمدحه و الوری معی و متی ما لمته لمته وحدی ذکر لی الصاحب بن عباد: أنه جاری أبا الفضل بن العمید فی محاسن القصیدة، حتی انتهی إلی هذا البیت، فذکر له أن قوله: أمدحه، أمدحه، معیب لثقله من جهة تدارک حروف الحلق. ثم رأیت بعد ذلک المتقدمین قد تکلموا فی هذه النکتة، فعلمت أن ذلک شیء عند أهل الصنعة معروف. ثم إن قوله: عند أکل الحنظل لیس بحسن و لا واقع.

(_____ ۱) آیة (۲۲۴: ۲۲۶) سورة الشعراء.

إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۷ و أما البیت الثالث فهو أجنبی من کلامه، غریب فی طباعه، نافر من جملة شعره، و فیه کزازة و فجاجة، و إن کان المعنی صالحا. فأما قوله: و أغرّ فی الزمن البهیم محجّل قد رحت منه علی أغرّ محجّل کالهیکل المبنیّ إلا أنه فی الحسن جاء کصورة فی هیکل فالبیت الأول لم یتفق له فیه خروج حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الکلام. و عامّة خروجه نحو هذا، و هو غیر بارع فی هذا الباب، و هذا مذموم معیب منه، لأن من کان صناعته الشعر و هو یأکل به، و تغافل عما یدفع إلیه فی کل قصیدة، و استهان بأحکامه و تجویده مع تتبعه لأن یکون عامة ما یصدر به أشعاره من النسیب عشرة أبیات، و تتبعه للصنعة الکثیرة، و ترکیب العبارات و تنقیح الألفاظ و تزویرها، کان ذلک أدخل فی عیبه، و أدل علی تقصیره أو قصوره، و إنه لا یقع له الخروج منه. و أما قوله: «و أغرّ فی الزمن البهیم محجل» فإن ذکر التحجیل فی الممدوح قریب، و لیس بجید. و قد یمکن أن یقال: بأنه إذا قرن بالأغر حسن و جری مجراه، و انخرط فی سلکه، و أهوی إلی مضماره، و لم ینکر لمکانه من جواره. فهذا عذر، و العدول عنه أحسن. و إنما أراد أن یرد العجز علی الصدر، و یأتی بوجه فی التجنیس. و فیه شیء؛ لأن ظاهر کلامه یوهم أنه قد صار ممتطی الأغر الأول، و رائحا علیه. و لو سلم من ذلک لم یکن فیه ما یفوت حدود الشعراء و أقاویل الناس. فأما ذکر الهیکل فی البیت الثانی و رده عجز البیت علیه، و ظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة، و عمل شیئا حتی کررها، فهی کلمة فیها ثقل، و نحن نجدهم إذا أرادوا أن یصنعوا نحو هذا قالوا: ما هو إلا صورة، و ما هو إلا تمثال، و ما هو إلا دمیة، و ما هو إلا ظبیة، و نحو ذلک من الکلمات الخفیفة علی القلب و اللسان. و قد استدرک هو أیضا علی نفسه فذکر أنه کصورة فی هیکل، و لو اقتصر علی ذکر الصورة و حذف الهیکل کان أولی و أجمل. و لو أن هذه الکلمة کررها أصحاب العزائم علی الشیاطین لراعوهم بها و أفزعوهم بذکرها و ذلک من کلامهم، و شبیه بصناعتهم، و أما قوله: وافی الضّلوع یشدّ عقد حزامه یوم اللقاء علی معمّ مخول أخواله للرّستمین بفارس و جدوده للتّبّعین بموکل نبل المحزم مما یمدح به الخیل، فهو لم یأت فیه ببدیع. و قوله: یشد عقد حزامه داخل فی التکلف، و التعسف لا یقبل من مثله. و إن قبلناه من غیره لأنه یتتبع الألفاظ و ینقدها نقدا شدیدا. فهلا قال: یشد حزامه، أو یأتی بحشو آخر سوی العقد. فقد عقد هذا إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۸ البیت بذکر العقد. ثم قوله: «یوم اللقاء» حشو آخر لا یحتاج إلیه. و أما البیت الثانی: فمعناه أصلح من ألفاظه، لأنها غیر مجانسة لطباعه،

و فیها غلظ و نفار و أما قوله: یهوی کما تهوی العقاب و قد رأت صیدا و ینقض انقضاض الأجدل متوجس برقیقتین کأنما تریان من ورق علیه موصل ما إن یعاف قذی و لو أوردته یوما خلائق حمدویه الأحول البیت الأول صالح و قد قاله الناس، و لم یسبق إلیه، و لم یقل ما لم یقولوه، بل هو منقول. و فی سرعة عدو الفرس تشبیهات لیس هذا بأبدعها، و قد یقولون: یفوت الطرف و یسبق الریح، و یجاری الوهم، و یکدّ النظر، و لو لا أن الإتیان علی محاسن ما قالوه فی ذلک یخرج الکلام عن غرض الکتاب، نقلت لک جملة مما ذهبوا إلیه فی هذا المعنی، فتتّبع تعلم أنه لم یأت فیها بما یجل عن الوصف، أو یفوت منتهی الحد. علی أن الهویّ یذکر عند الانقضاض خاصة، و لیس للفرس هذه الصفة فی الحقیقة إلا أن یشبه جده فی العدو بحالة انقضاض البازی و العقاب. و لیست تلک الحالة بأسرع أحوال طیرانها. و أما البیت الثانی فقوله: إن الأذنین کأنهما من ورق موصل، و إنما أراد بذلک حدتهما، و سرعة حرکتهما، و إحساسهما بالصوت، کما یحس الورق بحفیف الریح. و ظاهر التشبیه غیر واقع، و إذا ضمن ما ذکرنا من المعنی کان المعنی حسنا. و لکن لا یدل علیه اللفظ، و إنما یجری مجری المضمن. و لیس هذا البیت برائق اللفظ، و لا مشاکل فیه لطیفة غیر قوله: متوجس برقیقتین. فإن هذا القدر هو حسن. و أما البیت الثالث: فقد ذکرنا فیما مضی من الکتاب أنه من باب الاستطراد، و نقلنا نظائر ذلک من قول أبی تمام و غیره. و قطعة أبی تمام فی نهایة الحسن فی هذا المعنی. و الذی وقع للبحتری فی هذا البیت عندی لیس بجید فی لفظ و لا معنی. و هو بیت وحش جدا، قد صار قذی فی عین هذه القصیدة، بل وخزا فیها و وبالا علیها، قد کدر صفاءها، و أذهب بهاءها و ماءها، و طمس بظلمته سناها. و ما وجه مدح الفرس بأنه لا یعاف قذی من المیاه إذا وردها؟ کأنه أراد أن یسلک مسلک بشار فی قوله: «و لا یشرب الماء إلا بدم» و إذا کان لهذا الباب مجانبا، و عن هذا السمت بعیدا، فهلا وصفها بعزة الشرب کما وصفها المتنبی فی قوله: وصول إلی المستصعبات بخیله فلو کان قرن الشمس ماء لأوردا إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۹ و هلا سلک فیه مسلک القائل: و إنی للماء الذی شابه القذی إذا کثرت ورّاده لعیوف ثم قوله: «و لو أردته یوما حشو بارد» ثم قوله: «حمدویه الأحول» وحش جدا فما أمقت هذا البیت و أبغضه و ما أثقله و أسخفه. و إنما غطی علی عینه عیبه، و زین له إیراده طمعه فی الاستطراد. و هلا طمع فیه علی وجه لا یفض من بهجة کلامه، و لا معنی ألفاظه. فقد کان یمکن ذلک و لا یتعذر. فأما قوله: ذنب کما سحب الرداء یذبّ عن عرف و عرف کالقناع المسبل تتوهم الجوزاء فی أرساغه و البدر فوق جبینه المتهلل فالبیت الأول: وحش الابتداء، منقطع عما سبق من الکلام. و قد ذکرنا أنه لا یهتدی لوصل الکلام و نظام بعضه إلی بعض. و إنما یتصنع لغیر هذا الوجه، و کان یحتاج أن یقول: ذنب کالرداء، فقد حذف الوصل غیر متسق و لا ملیح، و کان من سبیله أن لا یخفی علیه، و لا یذهب عن مثله. ثم قوله: «کما سحب الرداء» قبیح فی تحقیق التشبیه، و لیس بواقع و لا مستقیم فی العبارة إلا علی إضمار أنه ذنب یسحبه کما یسحب الرداء. و قوله: «یذب عن عرف» لیس بحسن و لا صادق، و المحمود ما ذکره امرؤ القیس و هو قوله: «فویق الأرض لیس بأعزل» و أن قوله: «تتوهم الجوزاء فی أرساغه» فهو تشبیه ملیح، و لکنه لم یسبق إلیه و لا انفرد به. و لو نسخت لک ما قاله الشعراء فی تشبیه الغرة بالهلال، و البدر و النجم، و غیر ذلک من الأمور، و تشبیه الحجول، لتعجبت من بدائع قد وقعوا علیها، و أمور ملیحة قد ذهبوا إلیها. و لیس ذلک موضع کلامنا، فتتبع ذلک فی أشعارهم تعلم ما وصفت لک. و اعلم أنا ترکنا بقیة کلامه فی وصف الفرس، لأنه ذکر عشرین بیتا فی ذلک. و الذی ذکرناه فی هذا المعنی یدل علی ما بعده، و لا یعدو ما ترکناه أن یکون متوسطا إلی حد لا یفوت طریقة الشعراء. و لو تتبعت أقاویل الشعراء فی وصف الخیل علمت أنه و إن جمع فأوعی و حشر فنادی، ففیهم من سبقه فی میدانه، و منهم من ساواه فی شأوه، و منهم من داناه. فالقبیل واحد، و النسیج متشاکل، و لو لا کراهة التطویل، لنقلت جملة من أشعارهم فی ذلک لتقف علی ما قلت. فتجاوزنا إلی الکلام علی ما قاله فی المدح فی هذه القصیدة قال: لمحمد بن علیّ الشرف الذی لا یلحظ الجوزاء إلا من عل و سحابة لو لا تتابع مزنها فینا لراح المزن غیر مبخّل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۰ و الجود یعذله علیه حاتم سرفا و لا جود لمن لم یعذل البیت الأول منقطع عما قبله، علی ما وصفنا به شعره: من قطعه المعانی، و فصله بینها، و قلة تأنیه لتجوید الخروج و الوصل. و ذلک نقصان فی الصناعة، و تخلف فی البراعة، و هذا إذا وقع فی مواضع قلیلة عذر فیها. و أما إذا کان بناء الغالب من

کلامه علی هـذا فلا عـذر له. و أما المعنی الـذی ذکره فلیس بشـیء مما سبق إلیه. و هو شـیء مشترک فیه. و قـد قالوا فی نحوه و إن مجـده سـماء المساء، و قالوا فی نحوه الکثیر الـذی یصـعب نقل جمیعه، و کما قال المتنبی: و عزمـة بعثتها همّة زحل من تحتها بمکان الترب من زحل و حـدثنی إسـماعیل بن عباد أنه رأی أبا الفضل بن العمیـد قام لرجل قال لمن حضـره: أ تدری من هذا؟ هو الذی قال فیه أبیه البحتری: «لمحمـد بن القاسم الشـرف الذی». فذلک یدل علی اسـتعظامه للمیت بما مدح به من البیت. و البیت الثانی فی تشبیه جوده بالسـحاب قریب. و هو حـدیث مکرر لیس ینفک مدیح شاعر منه. و کان من سبیله أن یبدع فیه زیادة إبداع کما قد یقع لهم فی نحو هذا. و لکنه لم یتصنع له و أرسله إرسالا. و قد وقع فی المصراع الثانی ضرب من الخلل، و ذلک أن المزن إنما یبخل إذا منع نیله. فـذلک موجود فی کل نیل ممنوع، و کلاهما محمود مع الإسـعاف. فإن أسـعف أحدهما و منع الآخر لم یمکن التشبیه. و إن کان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر. و ذکر قصور أحدهما عن صاحبه، حتی أنه قد یبخل فی وقت و الآخر لا یبخل بحال، فهذا جید و لیس فی حمـل الألفـاظ علی الإشـارة إلی هـذا شـیء. و البیت الثـالث: و إن کـان معناه مکررا فلفظه مضـطرب بالتأخیر و التقـدیم. یشـبه ألفاظ المبتدئین و أما قوله: فضل و إفضال و ما أخذ المدی بعد المدی کالفاضل المتفضّل سار إذا ادّلج العفاة إلی الندی لا یصـنع المعروف غیر معجّـل فـالبیت الأـول منقطع عمـا قبله، و لیس فیه شـیء غیر التجنیس، الـذی لیس ببـدیع لتکرره علی کـل لسـان. و قوله: ما أخذ المـدی فإنه لفظ ملیـح و هو کقول القائل: «قد أرکب الآلة بعد الآلة»، و روی: «الحالة بعد الحالة». إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۱ و کقول امرئ القیس: «سـموّ حبـاب المـاء حالاـ علی حـال» و لکنها طریقـة مذلّلـة. فهو فیها تابع. و أما البیت الثانی فقریب فی اللفظ و المعنی. و قوله: «لا یصـنع المعروف» لیس بلفظ محمود، و أما قوله: عال علی نظر الحسود کأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل أو ما رأیت المجد ألقی رحله فی آل طلحة ثمّ لم یتحوّل فالبیت الأول منکر جدا فی جر النجوم بالأرسان موضـعه إلی العلو. و التکلف فیه واقع. و البیت الثـانی أجنبی عنه، بعیـد منه. و افتتاحه ردیء، و ما وجه الاسـتفهام و التقریر و الاسـتبانة و التوقیف؟ و البیتان أجنبیان من کلامه، غریبان فی قصـیدته، و لم یقع له فی المدح فی هذه القصـیدة شـیء جید. أ لا تری أنه قال بعد ذلک: نفسی فداؤک یا محمد من فتی یوفی علی ظلم الخطوب فتنجلی إنی أریـد أبا سـعید و العدا بینی و بین سـحابه المتهلّل کأن هذا لیس من طبعه و لا من سـبکه و قوله: مضـر الجزیرة کلّها و ربیعة ال خابور توعدنی و أزد الموصل قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخیک من أدد أبیک بمنصل البیت الأول حسن المعنی، و إن کانت ألفاظه بذکر الأماکن لا یتأتی فیه التحسین. و هذا المعنی قد یمکن إیراده بأحسن من هذا اللفظ و أبدع منه و أرق منه کقوله: إذا أغضبت علیک بنو تمیم رأیت الناس کلّهم غضابا و البیت الثانی قـد تعذر علیه وصـله بما سـبق من الکلام علی وجه یلطف، و هو قبیـح اللفظ، حیث یقول فیه: فثنّه لأخیک من أدد أبیک. و من آخـذه بهذا التعرض لهذا السـجع و ذکر هذا النسـب حتی أفسد به شـعره. و أما قوله بعد ذلک فی وصف السیف یقول: یتناول الروح البعید مثالها عفوا و یفتح فی القضاء المقفل بإبانة فی کـل حتف مظلم و هدایـة فی کـل نفس مجهل ماض و إن لم تمضه یـد فارس بطل و مصـقول و إن لم یصـقل لیس لفظ البیت الأول بمضاه لدیباجـة شـعره، و لا له بهجـة نظمه، لظهور أثر التکلف علیه، و تبین ثقل فیه. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۲ و أما «القضاء المقفـل» و فتحه، فکلام غیر محمود و لاـ مرضـی! و اسـتعارة لو لم یسـتعرها کـانت أولی به! و هلّا عیب علیه کما عیب علی أبی تمام قوله: فضـربت فی أخـدعیه ضـربة غادرته عودا رکوبا و قالوا: یسـتحق بهـذه الاسـتعارة أن یصـفع فی أخـدعیه! و قـد اتبعه البحتری فی اسـتعارة الأخـدع ولوعا باتباعه، فقال فی الفتـح: و إنی و قد بلغتنی الشـرف العلی و أعتقت من ذلّ المطامع أخدعی إن شـیطانه، حیث زین له هذه الکلمة، تابعه حین حسن عنده هذه اللفظة، لخبیث مارد و ردیء معاند، أراد أن یطلق أعنة الذم فیه، و یسرّح جیوش العتب إلیه. و لم یقع بقفل القضاء، حتی جعل للحتف ظلمـة تجلی بالسـیف، و جعل السـیف هادیا فی النفس المجهل الذی لا یهتدی إلیه! و لیس فی هذا مع تحسین اللفظ و تنمیقه شیء. لأن السلاح و إن کان معیبا فإنه یهتدی إلی النفس. و کان یجب أن یبدع فی هذا إبداع المتنبی فی قوله: کـأنّ إلهـام فی الهیجـا عیون و قـد طبعت سـیوفک من رقـاد و قـد صـغت الأسـنة من هموم فمـا یخطرن إلاـ فی فؤاد فالاهتداء علی هذا الوجه فی التشبیه بدیع حسن، و فی البیت الأول شـیء آخر، و ذلک أن قوله: «و یفتح فی القضاء» فی هذا الموضع

حشو ردیء یلحق بصاحبه اللکنة، و یلزمه الهجنة. أما البیت الثالث: فإنه أصلح هذه الأبیات. و إن کان ذکر الفارس حشوا و تکلفا و لغوا. لأن هذا لا یتغیر بالفارس و الراجل. علی أنه لیس فیه بدیع، و أما قوله: یغشی الوغی و التّرس بجنة من حدّه و الدّرع لیس بمعقل مصغ إلی حکم الردی فإذا مضی لم یلتفت، و إذا قضی لم یعدل متوقد یبری بأوّل ضربة ما أدرکت، و لو أنها فی یذبل البیتان الأولان من الجنس الذی یکثر کلامه علیه، و هی طریقه الذی یجتنبها، و ذلک من السبک الکتابی، و الکلام المعتدل. إلا أنه لم یبدع فیها بشیء، و قد زید علیه فیها و من قصد إلی أن یکمل عشرة أبیات فی وصف السیف فلیس من حکمه أن یأتی بأشیاء منقولة، و أمور مذکورة. و سبیله أن یغرب و یبدع کما أبدع المتنبی فی قوله: سلّه و الرکض بعد وهن بنجد فتصدّی للغیث أهل الحجاز إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۳ هذا فی باب صقاله، و أضوائه و کثرة مائه، و کقوله: ریان لو قذف الذی أسقیته لجری من المهجات بحر مزبد و قوله: «مصغ إلی حکم الردی إن تأملته» مقلوب کان ینبغی أن یقول یصغی الردی إلی حکمه کما قال الآخر: «فالسیف یأمر و الأقدار تنتظر». و قوله: «و إذا قضی لم یعدل» متکرر علی ألسنتهم فی الشعر خاصة فی نفس هذا المعنی. و البیت الثالث سلیم، و هو کالأولین فی خلوه عن البدیع، فأما قوله: فإذا أصاب فکلّ شیء مقتل و إذا أصیب فما له من مقتل و کأنما سود النمال و حمرها دبّت بأید فی قراه و أرجل البیت الأول یقصد به صنیعة اللفظ، و هو فی المعنی متفاوت، لأن المضرب قد لا یکون مقتلا. و قد یطلق الشعراء ذلک، و یرون أن هذا أبدع من قول المتنبی، و إنه بضده: یقتل السیف فی جشم القتیل به و للسّیوف کما للنّاس آجال و هذه طریقة لهم یتمدحون بها فی قصف الرمح طعنا، و تقطیع السیف ضربا، و فی قوله: «و إذا أصیب فما له من مقتل»، تعسف لأنه یرید بذلک أنه لا یتکسر. فالتعبیر بما عبر به عن المعنی الذی ذکرناه یتضمن ضربا من التکلف، و ضربا من المحال. و لیس بالنادر، و الذی علیه الجملة ما حکیناه عن غیره و نحوه. قال بعض أهل الزمان: یقصّف فی الفارس السّمهریّ و صدر الحسام فریقا فریقا البیت الثانی أیضا: هو معنی مکرر علی ألسنة الشعراء، و أما تصنیعه بسود النمال و حمرها، فلیس بشیء؛ و لعله أراد بالحمر الذّرّ. و التفصیل بارد! و الإعراب به منکر! و هو کما حکی عن بعضهم أنه قال: کان کذا حین کانت الثریا بحذاء رأسی علی سواء، أو منحرفا قدر شبر أو نصف شبر، أو إصبع أو ما یقارب ذلک. فقیل له: هذا من الورع الذی یبغضه اللّه، و یمقته الناس، و رب زیادة کانت نقصانا. وصفه النمل بالسواد و الحمرة فی هذا من ذلک الجنس، و علیه خرج بقیة البیت فی قوله: «دبّت بأید فی قراه و أرجل». و کان یکفی ذکره الأرجل عن ذکر الأیدی، و وصف الفرند بمدبّ النمل شیء لا یشذّ عن أحد منهم، و أما قوله: و کأن شاهره إذا استضوی به الزّ حفان یعصی بالسّماک الأعزل حملت حمائله القدیمة بقلة من عهد عاد غضّة لم تذبل البیت الأول منهما فیه ضرب من التکلف، و هو منقول من أشعارهم و ألفاظهم، و إنما إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۴ یقول: «قمر یشد علی الرجال بکوکب» فجعل ذلک الکوکب السماک و احتاج إلی أن یجعله أعزل للقافیة. و لو لم یحتج إلی ذلک کان خیرا له؛ لأن هذه الصفة فی هذا الموضع تفضه من الموضع. و موضع التکلف الذی ادعیناه الحشو الذی ذکره من قوله: «إذا استضوی به الزحفان». و کان یکفی أن یقول کان صاحبه یعصی بالسماک، و هذا و إن کان قد تعمل فیه للفظ، فهو لغو علی ما بینا. و أما البیت الثانی. ففیه لغو من جهة قوله: حمائله قدیمة، و لا فضیلة له فی ذلک. ثم تشبیه السیف بالبقلة من تشبیهات العامة، و الکلام الرّذل النّذل؛ لأن العامة قد یتفق منها تشبیه واقع حسن. ثم انظر إلی هذا المقطع الذی هو بالعیّ أشبه منه بالفصاحة، و إلی اللکنة أقرب منه إلی البراعة. و قد بینا أن مراعاة الفواتح، و الخواتم، و المطالع، و المقاطع، و الفصل، و الوصل بعد صحة الکلام، و وجود الفصاحة فیه، مما لا بد منه. و أن الإخلال بذلک یخل بالنظم، و یذهب رونقه، و یحیل بهجته، و یأخذ ماءه و بهاءه. و قد اطلعت علیک فیما نقلت، و تکلفت ما سطرت، لأن هذا القبیل، قبیل موضوع متعمل مصنوع. و أصل الباب فی الشعر علی أن ینظر إلی جملة القصة، ثم یتأمل الألفاظ و لا ینظر بعد ذلک إلی مواقعها و لا یتأمل مطارحها، و قد یقصد تارة إلی تحقیق الأغراض و تصویر المعانی التی فی النفوس. و لکنه یلحق بأصل بابه، و یمیل بک إلی موضعه، و یحسب الاهتمام بالصنعة یقع فیها التفاضل. و إن أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذکرت لک أن الشعراء قد تصرفوا فی ذلک بما یقع إلیک إن کنت من أهل الصنعة، مما یطول علی نقله، و کذلک فی السیف. و ذکر لی بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة فی

السیف قول أبی الهول الحمیری: حاز صمصامة الزّبیدی من بی ن جمیع الأنام موسی سیف عمرو و کان فیما سمعنا خیر ما أطبقت علیه الجفون أخضر اللّون بین بردیه حدّ من ذعاف تمیس فیه المنون أوقدت فوقه الصواعق نارا ثمّ شابت له الذّعاف القیون فإذا ما شهرته بهر الشّم س ضیاء فلم تکد تستبین یستطیر الأبصار کالقبس المش عل لا تستقیم فیه العیون و کأنّ الفرند و الرّونق الجا ری فی صحفتیه ماء معین إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۵ نعم مخراق ذی الحفیظة فی الهی جاء یعصی به و نعم القرین ما یبالی إذا انتحاه بضرب أ شمال سطت به أم یمین و إنما یوازن شعر البحتری بشعر شاعر من طبقته، و من أهل عصره، و من هو فی مضماره، أو فی منزلته، و معرفته أجناس الکلام، و الوقوف علی أسراره، و الوقوع علی مقداره شیء. و إن کان عزیزا، و أمر و إن کان بعیدا فهو سهل علی أهله، مستجیب لأصحابه، مطیع لأربابه، ینقدون الحروف، و یعرفون الصروف، و إنما یتقی الشبهة فی ترتیب الحال بین البحتری و أبی تمام و ابن الرومی و غیره. و نحن و إن کنا نفضل البحتری بدیباجة شعره علی ابن الرومی و غیره من أهل زمانه، و نقدمه بحسن عبارته و سلاسة کلامه، و عذوبة ألفاظه، و قلة تعقد قوله. و الشعر قبیل ملتمس مستدرک، و أمر ممکن منطبع. و نظم القرآن عال عن أن یعلق به الوهم، أو یسمو إلیه الفکر، أو یطمع فیه طامع، أو یطلبه طالب. لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ «۱» و کنت قد ذکرت لک قبل هذا أنک إن کنت بصنعة علم اللسان متدربا، و فیه متوجها متقدما، أمکنک الوقوف علی ما ذکرنا، و النفوذ فیما وصفنا. و إلا- فاجلس فی مجلس المقلدین، و ارض بمواقف المتحیرین. و نصحت لک حیث قلت؛ انظر، هل تعرف عروق الذهب، و محاسن الجوهر، و بدائع الیاقوت، و دقائق السحر، من غیر معرفة بأسباب هذه الأمور و مقدماتها؟ و هل یقطع سمت البلاد من غیر اهتداء فیها؟ و لکل شیء طریق یتوصل إلیه به، و باب یؤخذ نحوه فیه، و وجه یؤتی منه. و معرفة الکلام أشد من المعرفة بجمیع ما وصفت لک، و أغمض و أدق و ألطف. و تصویر ما فی النفس و تشکیل ما فی القلب حتی تعلمه و کأنک مشاهده و إن کان قد یقع بالإشارة و یحصل بالدلالة و الإمارة، کما یحصل بالنطق الصریح، و القول الفصیح. فللإشارة أیضا مراتب، و للسان منازل. رب وصف یصور لک الموصوف کما هو علی جهته، لا خلف فیه. و رب وصف یربو علیه و یتعداه و رب وصف یقصر عنه. ثم إذا صدق الوصف انقسم إلی صحة و إتقان، و حسن و إحسان، و إلی إجمال و شرح، و إلی استیفاء و تقریب، و إلی غیر ذلک من الوجوه. و کل مذهب و طریق له باب و سبیل، فوصف الجملة الواقعة کقوله تعالی:

(_____ ۱) آیة (۴۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۶ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَیْهِمْ لَوَلَّیْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً «۱» و التفسیر کقوله: وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً «۲» إلی آخر الآیات فی هذا المعنی. و کنحو قوله: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَیْءٌ عَظِیمٌ. یَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَ تَرَی النَّاسَ سُکاری وَ ما هُمْ بِسُکاری وَ لکِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِیدٌ «۳» هذا مما یصور الشیء علی جهته و یمثل أهوال ذلک الیوم، و مما یصور لک الکلام الواقع فی الصفة کقوله حکایة عن السحرة، لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حین آمنوا قالوا: إِنَّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطایانا أَنْ کُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِینَ «۴». و قال فی موضع آخر: إِنَّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآیاتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا، رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِینَ «۵» و هذا ینبئ عن کلام الحزین لما ناله، الجازع لما مسه. و من باب التسخیر و التکوین قوله تعالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ «۶» و قوله: فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ «۷» و کقوله: فَأَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ «۸» و تقصی أقسام ذلک مما یطول، و لم أقصد استیفاء ذلک، و إنما ضربت لک المثل بما ذکرت لتستدل، و أشرت إلیک بما أشرت لتتأمل. و إنما اقتصرنا علی ذکر قصیدة البحتری لأن الکتاب یفضلونه علی أهل دهره، و یقدمونه علی من فی عصره. و منهم من یدّعی له الإعجاز غلوا، و یزعم أنه یناجی النجم فی قوله علوا. و الملحدة تستظهر بشعره، و تتکثر بقوله، و تدّعی کلامه من شبهاتهم، و عباراته مضافا إلی ما عندهم من ترهاتهم. فبیّنا قدر درجته، و موضع رتبته، و حد کلامه.

(_____ ۱) آیة (۱۸) سورة الکهف. (۲) آیة

(۴۷) سورة الكهف. (۳) آية (۱، ۲) سورة الحج. (۴) آية (۵۱، ۵۲) سورة الشعراء. (۵) آية (۱۲۵، ۱۲۶) سورة الأعراف. (۶) آية (۸۲) سورة يس. (۷) آية (۶۵) سورة البقرة. (۸) آية (۶۳) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵۷ و هيهات أن يكون المطموع فيه كالميئوس منه. و أن يكون الليل كالنهار، و الباطل كالحق، و كلام رب العالمين ككلام البشر. فإن قال قائل: فقد قدح الملحد فى نظم القرآن، و ادّعى عليه الخلل فى البيان، و أضاف إليه الخطأ فى المعنى و اللفظ، و قال ما قال فهل من فصل؟ قيل: الكلام على مطاعن الملحدة فى القرآن، مما قد سبقنا إليه، و صنّف أهل الأدب فى بعضه فكفوا. و أتى المتكلمون على ما وقع إليهم فشفوا، و لو لا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا. و أما الغرض الذى صنفنا فيه فى التفصيل و الكشف عن إعجاز القرآن، فلم نجده على التقريب الذى قصدنا، و قد رجونا أن يكون ذلك مغنيا و وافيا، و إن سهّل اللّه لنا ما نويناه من إملاء معانى القرآن، ذكرنا فى ذلك ما يشتبه من الجنس الذى ذكروه، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فإنما يقع على جهل القوم بالمعانى أو بطريقة كلام العرب. و ليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: (فضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه) «۱» و قد قصدنا فيما أملىناه الاختصار، و مهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فصل أجناس الكلام استدرك ما بينا، و من تعذر عليه الحكم بين شعر جرير و الفرزدق و الأخطل، و الحكم بين فضل زهير و النابغة أو الفضل بين البحترى و أصحابه، و لم يعرف سخف مسيلمة فى نظمه، و لم يعلم أنه من الباب الذى يهزأ به و يسخر منه كشعر أبى العيس فى جملة الشعر، و شعر على بن صلاة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، و الحكم على ما بينا؟ فإن قال قائل: فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر، و الأبلغ، قيل له: هذا أيضا خارج عن غرض هذا الكتاب، و قد تكلم فيه الأدباء و يحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب، و يفرد له باب، و ليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل. و ليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض و العيوب، و يبلغ أمده فى الفصاحة و النظم العجيب، و لا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام؟ و إنما لم يصح هذا السؤال، و ما نذكر فيه من أشعار فى نهاية الحسن، و خطب (_____ ۱)

الترمذى (۲۹۲۶)، و الترغيب ۲/ ۴۳۵، و الأسماء و الصفات (۲۳۸)، و فتح البارى ۹/ ۶۶، و القرطبى ۱/ ۴. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵۸ و رسائل فى غاية الفضل، لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها، و المساماة عليها، و التنافس فى طرقها، و التنافر فى بابها. و كان البون بين البعض و البعض فى الطبقة الواحدة قريبا، و التفاوت خفيفا، و ذلك القدر من السبق إن ذهب عند الواحد لم ييأس منه الباقون، و لم ينقطع الطمع فى مثله. و ليس كذلك سمت القرآن، لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته، و الطمع يرتفع عن مباراته و مساماته، و أن الكل فى العجز عنه على حد واحد. و كذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يأخذ فيه، و الباب الذى لا يذهب عنه. و أنت تجد قوما يرون كلامه قريبا و منهاجه معيبا، و نطاق قوله ضيقا حتى يستعين بكلام غيره، و يفرغ إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر، و مثل نادر، و حكمة ممهدة منقولة، و قصة عجيبة مأثورة. و أما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة و ألفاظ يسيرة، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خاليا عن شىء يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره كان كلاما ككلام غيره. فإن أردت أن تحقق هذا، فانظر فى كتبه فى نظم القرآن، و فى الرد على النصارى، و فى خبر الواحد، و غير ذلك مما يجرى هذا المجرى. هل تجد فى ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع؟ أو كلام مليح؟ على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه فى طريقته. و جاذبوه على منهجه. فمنهم من ساواه حين ساماه، و منهم من أبر عليه إذا باراه. هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه، و أخذ طريقه، فلم يقصر عنه، و لعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، و يكملها على شروط صنعته، و لا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه، كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه، متى ذكر من كلامه سطرا اتبعه من كلام الناس أوراقا. و إذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا. و هذا يدلك على أن الشىء إذا استحسن اتبع، و إذا استملح قصد له و تعمّد، و هذا الشىء يرجع إلى الأخذ بالفضل و التنافس فى التقدم. فلو كان فى مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده، لكثرت المعارضات، و دامت المنافسات. فكيف و هناك دواع لا انتهاء لها، و جوالب لا حد لكثرتها؛ لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا

إلی تکذیبه، ثم إلی قطع المحامین دونه عنه، أو تنفیرهم علیه، و إدخال الشبهات علی قلوبهم. و کان القوم یکتفون بذلک عن بذل النفوس، و نصب الأرواح، و الأخطار بالأموال و الذراری فی وجه عدواته. و یستغنون بکلام هو طبعهم و عادتهم و صناعتهم عن إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۹ محاربته، و طول منافسته و مجاذبته. و هذا الذی عرضناه علی قلبک یکفی إن هدیت لرشدک. و یشفی إن دللت علی قصدک، و نسأل اللّه حسن التوفیق و العصمة و التسدید، إنه لا معرفة إلا بهدایته، و لا عصمة إلا بکفایته، و هو علی ما یشاء قدیر، و حسبنا اللّه و نعم الوکیل.

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن

اشارة

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن فإن قال قائل: قد یجوز أن یکون أهل عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قد عجزوا عن الإتیان بمثل القرآن، و إن کان من بعدهم من أهل الأعصار لم یعجزوا، قیل: هذا سؤال معروف، و قد أجیب عنه بوجوه، منها ما هو صواب، و منها ما فیه خلل. لأن من کان یجیب عنه بأنهم لا یقدرون علی معارضته فی الإخبار عن الغیوب، إن قدروا علی مثل نظمه، فقد سلّم المسألة. لأنا ذکرنا أن نظمه معجز لا یقدر علیه. فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل عن مراده، و الوجه أن یقال: فیه طرق، منها أنا إذا علمنا أن أهل ذلک العصر کانوا عاجزین عن الإتیان بمثله، فمن بعدهم أعجز؛ لأن فصاحة أولئک فی وجوه ما کانوا یتفننون فیه من القول، مما لا یزید علیه فصاحة من بعدهم، و أحسن أحوالهم أن یقاربوهم أو یساووهم. فأمّا أن یتقدموهم أو یسبقوهم فلا. و منها أنا قد علمنا عجز أهل سائر الأعصار کعلمنا بعجز أهل العصر الأول. و الطریق فی العلم بکل واحد من الأمرین طریق واحد، لأن التحدی فی الکل علی جهة واحدة، و التنافر فی الطباع علی حد. و التکلف علی منهاج لا یختلف. و لذلک قال اللّه تبارک و تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً «۱»

التحدی

التحدی یجب أن تعلم أنّ من حکم المعجزات إذا ظهرت علی الأنبیاء أن یدّعوا فیها أنها من دلالتهم و آیاتهم، لأنه لا یصح بعثة النبی من غیر أن یؤتی دلالة، و یؤیّد بآیة. لأن النبی لا یتمیز من الکاذب بصورته، و لا بقول نفسه، و لا بشیء آخر سوی البرهان الذی یظهر علیه، فیستدل به علی صدقه. فإذا ذکر لهم أن هذه آیتی، و کانوا عاجزین عنها، صح له ما ادعاه. و لو کانوا غیر عاجزین عنها، لم یصح أن یکون برهانا له (_____. ۱) آیة (۸۸) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۱ و لیس یکون ذلک معجزا إلا بأن یتحداهم إلی أن یأتوا. فإذا تحداهم و بان عجزهم صار ذلک معجزا. و إنما احتیج فی باب القرآن إلی التحدی؛ لأن من الناس من لا یعرف کونه معجزا، فإنما یعرف أولا إعجازه بطریقه، لأن الکلام المعجز لا یتمیز من غیره بحروفه و صورته. و إنما یحتاج إلی علم و طریق یتوصل به إلی معرفة کونه معجزا. فإن کان لا یعرف بعضهم إعجازه فیجب أن یعرف هذا، حتی یمکنه أن یستدل به. و متی رأی أهل ذلک اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدی إلیه و التقریع به، و التمکین منه، صار حینئذ بمنزلة من رأی الید البیضاء، و انقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما یأفکون. و أما ما کان من أهل صنعة العربیة، و التقدم فی البلاغة، و معرفة فنون القول، و وجوه المنطق، فإنه یعرف حین یسمعه عجزه عن الإتیان بمثله. و یعرف أیضا أهل عصره ممن هو فی طبقته، أو یدانیه فی صناعته عجزهم عنه. فلا یحتاج إلی التحدی حتی یعلم به کونه معجزا. و لو کان أهل الصنعة الذین صفتهم ما بینا لا یعرفون کونه معجزا حتی یعرفوا عجز غیرهم عنه، لم یجز أن یعرف النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أن القرآن معجز، حتی یری عجز قریش عنه بعد التحدی إلیه. و إذا عرف عجز قریش لم یعرف عجز سائر العرب

عنه حتی ینتهی إلی التحدی إلی أقصاهم، و حتی یعرف عجز مسیلمة الکذاب عنه. ثم یعرف حینئذ کونه معجزا. و هذا القول إن قیل أفحش ما یکون من الخطأ. فیجب أن تکون منزلة أهل الصنعة فی معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأی الید البیضاء، و فلق البحر، بأن ذلک معجز. و أما من لم یکن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، یعرف بها کونه معجزا، فیساوی حینئذ أهل الصنعة، فیکون استدلالها فی تلک الحالة به علی صدق من ظهر ذلک علیه سواه، إذا ادعاه، دلالة علی نبوته، و برهانا علی صدقه. فأما من قدّر أن القرآن لا یصیر معجزا إلا بالتحدی إلیه، فهو کتقدیر من ظن أن جمیع آیات موسی و عیسی علیهما السلام، لیست بآیات حتی یقع التحدی إلیها و الحض علیها، ثم یقع العجز عنها فیعلم حینئذ أنها معجزات. و قد سلف من کلامنا فی هذا المعنی ما یغنی عن الإعادة. و یبین ما ذکرناه فی غیر البلیغ أن الأعجمی الآن لا یعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة علی الأعجمی الذی کان فی ذلک الزمان مشاهدا له. لأن من هو من أهل العصر یحتاج أن یعرف أولا أن العرب عجزوا عنه. و إنما یعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة إلیه، أنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قد تحدی العرب إلیه، فعجزوا عنه. و یحتاج فی النقل إلی شروط و لیس یصیر القرآن بهذا إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۲ النقل معجزا. کذلک لا یصیر معجزا بأن یعلم العربی الذی لیس ببلیغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم، بل هو معجز فی نفسه. و إنما طریق معرفة هذا وقوعهم علی العلم بعجزهم عنه.

قدر المعجز من القرآن

قدر المعجز من القرآن الذی ذهب إلیه عامة أصحابنا، و هو قول أبی الحسن الأشعری فی کتبه، أن أقل ما یعجز عنه من القرآن السورة قصیرة کانت أو طویلة، أو ما کان بقدرها. قال: فإذا کانت الآیة بقدر حروف سورة، و إن کانت سورة الکوثر فذلک معجز. قال: و لم یقم دلیل علی عجزهم عن المعارضة فی أقل من هذا القدر. و ذهبت المعتزلة إلی أن کل سورة برأسها فهی معجزة. و قد حکی عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم یشترط کون الآیة بقدر السورة بل شرط الآیات الکثیرة. و قد علمنا أنه تحداهم تحدیا إلی السور کلها، و لم یخصّ. و لم یأتوا الشیء منها بمثل. فعلم أن جمیع ذلک معجز. و أما قوله عز و جل: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ «۱» فلیس بمخالف لهذا. لأن الحدیث التام لا تتحصل حکایته فی أقل من کلمات سورة قصیرة. و هذا یؤکد ما ذهب إلیه أصحابنا، و یؤیده. و إن کان قد یتأول قوله: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ «۲» علی أن یکون راجعا إلی القبیل دون التفصیل. و کذلک یحمل قوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ «۳» علی القبیل. لأنه لم یجعل الحجة علیهم عجزهم عن الإتیان بجمیعه من أوله إلی آخره. فإن قیل: هل تعرفون إعجاز السور القصار، بما تعرفون به إعجاز السور الطوال؟ و هل تعرفون إعجاز کل قدر من القرآن بلغ الحد الذی قدرتموه بمثل ما تعرفوه إعجاز سورة البقرة و نحوها؟ فالجواب: أن أبا الحسن «۴» الأشعری- رحمه اللّه- أجاب عن ذلک: بأن کل سورة قد علم کونها معجزة بعجز العرب عنها. و سمعت بعض الکبراء من أهل هذا الشأن یقول: إنّ ذلک یصح أن یکون علم ذلک توقیفا (_____. ۱) آیة (۵۲) سورة الطور. (۲) سبقت. (۳) آیة (۸۸) سورة الإسراء. (۴) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۳ و الطریقة الأولی أسدّ. و لیس هذا الذی ذکرناه أخیرا بمناف له، لأنه لا یمتنع أن یعلم إعجازه بطرق مختلفة تتوافی علیه، و تجتمع فیه. و اعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضربا من الفائدة، لأن الطریقة الأولی تبین أن ما علم به کون جمیع القرآن معجزا. موجود فی کل سورة صغرت أو کبرت. فیجب أن یکون الحکم فی الکل واحدا. و الطریقة الأخیرة تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطریقة التی سلکناها فی بناء من التفصیل الذی بینا، فیما تعرف به فی الکلام الفصاحة، و تتبین به البلاغة، حتی یعلم ذلک بوجه آخر، فیستوی فی هذا القدر البلیغ و غیره فی أن لا یعلمه معجزا، حتی یستدلّ به من وجه آخر، سوی ما یعلمه البلغاء من التقدم فی الصنعة، و هذا غیر ممتنع. أ لا تری أن الإعجاز فی بعض السور و الآیات أظهر، و فی بعضها أغمض و أدق، فلا یفتقر البلیغ فی النظر فی حال بعضها إلی تأمّل کثیر، و لا بحث شدید، حتی یتبین له الإعجاز، و یفتقر فی بعضها إلی نظر دقیق، و بحث لطیف، حتی یقع علی الجلیّة، و یصل إلی المطلب. و لا

يمتنع أن يـذهب عليه الوجه فى بعض السور، فيحتـاج أن يفزع فيه إلى إجمـاع أو توقيف، أو مـا علمه من عجز العرب قاطبـة عنه. فـإن ادّعى ملحـد، أو زعم زنـديق أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار أو الآيات بهـذا المقدار، قلنا له: إن الإعجاز قد حصل بما بينـاه، و عرف بمـا وقفنـا عليه من عجز العرب عنه. ثم فيه شـىء آخر، و هو: أن هـذا سؤال لاـ يستقيم للملحـد، لأنه يزعم أنه ليس فى القرآن كله إعجـاز. فكيف يجوز أن ينـاظره؟! على تفصـيله، و إذا ثبت لنـا معه إعجـازه فى السور الطوال، قـامت الحجـة عليه، و ثبتت المعجزة. و لا معنى لطلبه لكثرة الأدلة و المعجزات. و نحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه، و البعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل، لم يبق بعـد ذلـك إلاـ قولنـا، لأنـا عرفنـا فى البعض الإعجـاز بمـا بينا. ثم عرفنا فى الباقى بالتّوقيف و نحو ذلك، و ليس بممتنع اختلاف حال الكلاـم حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر، و فى بعضه أغمض، و من آمن ببعض دون بعض، كان مـذموما على ما قال اللّه تعالى: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتـابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ «۱» و قـال: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مـا هُوَ شِـفاءٌ وَ رَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ «۲» فظاهره عنـد بعض أهل التأويـل كالـدليل على أن الشـفاء ببعضه أوقـع، و إن كنـا نقـول إنه يـدل على أن الشـفاء فى جميعه. و اعلم أن الكلاـم يقـع فيه الأبلغ

(_____۱) آيـة (۸۵) سـورة البقرة. (۲) آيـة (۸۲) سورة الإسـراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۴ و البليغ، و لـذلك كانوا يسـمون الكلمة يتيمة، و يسـمون البيت الواحد يتيما. سمعت إسـماعيل بن عباد يقول: سـمعت أبا بكر بن مقسم يقول: سمعت ثعلبا «۱» يقول: سمعت الفراء «۲» يقول: العرب تسمى البيت الواحد يتيما، و كذلك يقال: الدرة اليتيمة لانفرادها. فإذا بلغ البيتين و الثلاثة فهى نتفة، و إلى العشـرة تسـمى قطعة، و إذا بلغ العشـرين استحق أن يسـمى قصـيدا. و ذلـك مـأخوذ من المـخ القصـيد، و هو المـتراكم بعضه على بعض. و هو ضـد الرار و مثله الرثيـد. انتهت الحكايـة. ثم استشـهد بقول لبيـد: فتذكرا ثقلا رثيدا بعد ما ألقت ذكاء يمينها فى كافر يريد بيض النعام لأنه ينضد بعضه على بعض، و كـذلك يقع فى الكلام البيت الوحشـى و النادر، و المثل السائر، و المعنى الغريب، و الشـىء الـذى لو اجتهد له لم يقع عليه فيتفق له و يصادفه. قال لى بعض علماء هـذه الصـنعة و جاريته فى ذلك: إن هذا مما لا سبب له يخصه، و إنما سـببه القرارة فى أصل الصـنعة، و التقدم فى عيون المعرفة. فإذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب و ما يشذ عن تفصـيل الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قـدر السورة معجز فإن ذلك صـحيح_____.

(۱) سـبقت ترجمته. (۲) الفراء هو: أبو زكريـا يحيى بن زيـاد الفراء الـديلمى، كـان إمامـا ثقـة له شأن عظيم فى اللغـة. قال ثعلب: لو لا الفراء لما كانت لغة، و لو لا الفراء لسـقطت العربية، مات سنة (۲۰۷ ه). له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۲/ ۲۲۸، و طبقات الأدباء (۱۲۶)، و معجم الأدباء ۲۰/ ۹. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۵

فصل: فى أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضرورة؟

فصل: فى أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضـرورة؟ ذهب أبو الحسن الأشـعرى إلى أن ظهور ذلك على النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم يعلم ضرورة. و كونه معجزا يعلم باسـتدلال. و هـذا المـذهب محكى عن المخالفين. و الـذى نقوله فى هـذا: إن الأعجمى لا يمكنه أن يعلم إعجـازه إلاـ اسـتدلالا. و كـذلك من لم يكن بليغا. فأما البليغ الـذى قـد أحاط بمـذاهب العربيـة و غرائب الصـنعة، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيـان بمثله. و يعلم عجز غيره بمثـل مـا يعرف عجز نفسه. كمـا أنه إذا علم الواحـد منا أنه لا يقـدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۶

فصل: فيما يتعلق به الإعجاز

فصل: فيما يتعلق به الإعجاز إن قال قائل: بيّنوا لنا ما الـذى وقع التحـدى إليه؟ أ هو الحروف المنظومـة؟ أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك؟ قيل: الـذى تحـداهم به: أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة كتتابعها، مطّردة كاطّرادها، و لم

یتحدهم إلی أن یأتوا بمثل الکلام القدیم الذی لا مثل له. و إن کان کذلک فالتحدی واقع إلی أن یأتوا بمثل الحروف المنظومة، التی هی عبارة عن کلام اللّه تعالی فی نظمها و تألیفها. و هی حکایة لکلامه و دلالات علیه، و أمارات له، علی أن یکونوا مستأنفین لذلک، لا حاکین بما أتی به النبی صلّی اللّه علیه و سلّم. و لا یجب أن یقدّر مقدر، أو یظن ظانّ أنا حین قلنا: إن القرآن معجز، و إنّه تحداهم إلی أن یأتوا بمثله، أردنا غیر ما فسرناه من العبارات عن الکلام القدیم القائم بالذات. و قد بینا قبل هذا أنه لم یکن ذلک معجزا، لکونه عبارة عن الکلام القدیم؛ لأن التوراة و الإنجیل عبارة عن الکلام القدیم، و لیس ذلک بمعجز فی النظم و التألیف. و کذلک ما دون الآیة، کاللفظة عبارة عن کلامه، و لیست بمنفردها بمعجزة. و قد جوز بعض أصحابنا أن یتحداهم إلی مثل کلامه القدیم القائم بنفسه، و الذی عول علیه مشایخنا ما قدمنا ذکره. و علی ذلک أکثر مذاهب الناس. و لم یجب أن نفسر و نذکر موجب هذا المذهب الذی حکیناه و ما یتصل به؛ لأنه خارج عن غرض کتابنا، لأن الإعجاز وقع فی نظم الحروف التی هی دلالات و عبارات عن کلامه. و إلی مثل هذا النظم وقع التحدی، فبیّنا وجه ذلک، و کیفیة ما یتصور القول فیه، و أزلنا توهم من یتوهم أن الکلام القدیم حروف منظومة، أو حروف غیر منظومة، أو شیء مؤلّف أو غیر ذلک مما یصح أن یتوهّم علی ما سبق من إطلاق القول فیما مضی. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۷

فصل: فی وصف وجوه من البلاغة

فصل: فی وصف وجوه من البلاغة ذکر بعض أهل الأدب و الکلام: أن البلاغة علی عشرة أقسام: الإیجاز، و التشبیه، و الاستعارة، و التلاؤم، و الفواصل، و التجانس، و التصریف، و التضمین، و المبالغة، و حسن البیان. فأما الإیجاز فإنما یسن مع ترک الإخلال باللفظ و المعنی. فیأتی باللفظ القلیل الشامل لأمور کثیرة. و ذلک ینقسم إلی حذف و قصر. فالحذف: الإسقاط للتخفیف کقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْیَةَ «۱» و قوله: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ «۲» و حذف الجواب کقوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی «۳» کأنه قیل: لکان هذا القرآن، و الحذف أبلغ من الذکر، لأن النفس تذهب کل مذهب فی القصد من الجواب. و الإیجاز بالقصد کقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصاصِ حَیاةٌ «۴» و قوله: یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیْحَةٍ عَلَیْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ «۵» و قوله: إِنَّما بَغْیُکُمْ عَلی أَنْفُسِکُمْ «۶» و قوله: وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «۷». و الإطناب فیه بلاغة، فأما التطویل ففیه عیّ. و أما التشبیه بالعقد علی أن أحد الشیئین یسد مسد الآخر فی حس أو عقل، کقوله: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمالُهُمْ کَسَرابٍ بِقِیعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّی إِذا جاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً «۸» و قوله: مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ کَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عاصِفٍ «۹»

(_____ ۱) آیة (۸۲) سورة یوسف. (۲) آیة (۲۱) سورة محمد. (۳) آیة (۳۱) سورة الرعد. (۴) آیة (۱۷۹) سورة البقرة. (۵) آیة (۴) سورة المنافقون. (۶) آیة (۲۳) سورة یونس. (۷) آیة (۴۳) سورة فاطر. (۸) آیة (۳۹) سورة النور. (۹) آیة (۱۸) سورة إبراهیم. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۸ و قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ کَأَنَّهُ ظُلَّةٌ «۱» و قوله: إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها أَتاها أَمْرُنا لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ «۲» و قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی یَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «۳» و قوله: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَکانَتْ وَرْدَةً کَالدِّهانِ «۴» و قوله: أَنَّمَا الْحَیاةُ الدُّنْیا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِینَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَیْنَکُمْ وَ تَکاثُرٌ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ کَمَثَلِ غَیْثٍ أَعْجَبَ الْکُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَکُونُ حُطاماً «۵» و قوله: وَ جَنَّةٍ عَرْضُها کَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ «۶» و قوله: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوها کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً «۷» و قوله تعالی: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ «۸» و قوله: کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ «۹» و قوله: مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ «۱۰» و قوله: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ «۱۱» و قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ کَالْفَخَّارِ «۱۲» و نحو ذلک. و من ذلک باب الاستعارة:

و هو بيان التشبيه كقوله تعالى: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «۱۳» و كقوله: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «۱۴» و كقوله: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ «۱۵» و قوله: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى

(_____ ۱) آية (۱۷۱) سورة الأعراف. (۲) آية (۲۴) سورة يونس. (۳) آية (۱۹، ۲۰) سورة القمر. (۴) آية (۳۷) سورة الرحمن. (۵) آية (۲۰) سورة الحديد. (۶) آية (۲۱) سورة الحديد. (۷) آية (۴) سورة الجمعة. (۸) آية (۱۷۶) سورة الأعراف. (۹) آية (۷) سورة الحاقة. (۱۰) آية (۴۱) سورة العنكبوت. (۱۱) آية (۲۴) سورة الرحمن. (۱۲) آية (۱۴) سورة الرحمن. (۱۳) آية (۲۳) سورة الفرقان. (۱۴) آية (۹۴) سورة الحجر. (۱۵) آية (۱۱) سورة الحاقة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۹ الْغَضَبُ «۱» و كقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً «۲» و قوله: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ «۳» فالدمغ و القذف مستعار، و قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ «۴» و قوله: وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ «۵» و قوله: فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «۶» و قوله: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها «۷» و قوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ «۸» و قوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ «۹» و قوله: فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ «۱۰» و قوله: أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً «۱۱» و قوله: حَصِيداً خامِدِينَ «۱۲» و قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ «۱۳» و قوله: وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً «۱۴» و قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ «۱۵» و قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ «۱۶» و قوله: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ «۱۷» يريد أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم. و قوله: وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ «۱۸». و هذا أوقع من اللفظ الظاهر، و أبلغ من الكلام الموضوع. و أما التلاؤم فهو تعديل الحروف فى التأليف، و هو نقيض التنافر. كقول الشاعر: و قبر حرب بمكان قفر و ليس قرب قبر حرب قبر (_____ ۱) آية (۱۵۴) سورة الأعراف. (۲) آية (۱۱) سورة الإسراء. (۳) آية (۱۲) سورة الأنبياء. (۴) آية (۳۷) سورة يس. (۵) آية (۷) سورة الأنفال. (۶) آية (۵۱) سورة فصلت. (۷) آية (۴) سورة محمد. (۸) آية (۱۸) سورة التكوير. (۹) آية (۲۱۴) سورة البقرة. (۱۰) آية (۱۷۸) سورة آل عمران. (۱۱) آية (۲۴) سورة يونس. (۱۲) آية (۱۵) سورة الأنبياء. (۱۳) آية (۲۲۵) سورة الشعراء. (۱۴) آية (۴۶) سورة الأحزاب. (۱۵) آية (۲۹) سورة الإسراء. (۱۶) آية (۲۱) سورة السجدة. (۱۷) آية (۱۱) سورة الكهف. (۱۸) آية (۱۴۹) سورة الأعراف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۰ قالوا: هو من شعر الجن، حروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه. و التلاؤم على ضربين أحدهما: فى الطبقة الوسطى، كقوله: رمتنى و ستر اللّه بينى و بينها عشية آرام الكناس رميم رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم ألا ربّ يوم لو رمتنى رميتها و لكن عهدى بالنضال قديم قالوا: و المتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله، و إن كان بعض الناس أحسن إحساسا من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض. و التلاؤم حسن الكلام فى السمع، و سهولته فى اللفظ، و وقع المعنى فى القلب. و ذلك كالخط الحسن، و البيان الشافى، و المتنافر كالخط القبيح. فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان، و صحة البرهان فى أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، و بصيرا بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر. «و المتنافر»: ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بعد فهو كالظّفر. و إذا قرب جدا كان بمنزلة مشى المقيد. و يبين ذلك بقرب مخارج الحروف و تباعدها. و أما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى، و فيها بلاغة، و الإسجاع عيب؛ لأن السجع يتبع المعنى. و الفواصل تابعة للمعانى. و السجع كقول مسيلمة. ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة. و لا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل؛ لأنها ليست فى الطبقة العليا فى البلاغة. لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى، و إقامة الوزن. و أما التجانس فإنه بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد. و هو على وجهين مزاوجة و مناسبة. فالمزاوجة كقوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «۱» و قوله: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ «۲» و كقول عمرو بن كلثوم «۳»:

(_____ ۱) آية (۱۹۴) سورة البقرة. (۲) آية (۵۴) سورة آل عمران. (۳) عمرو بن كلثوم التغلبى، كان شاعرا مطبوعا، و كان أعز الناس نفسا، و أكثرهم امتناعا و أنفة و لقد ساد

قومه و هو فى الخامسة عشرة. مات سنة (۶۰۰ م). له ترجمة فى: الأغانى ۹/ ۱۸۱، و الشعر و الشعراء (۱۱۷)، و الجمهرة (۷۴). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۱ ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا و أما المناسبة فهى كقوله تعالى: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «۱» و قوله: يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ «۲». و أما «التصريف» فهو تصريف الكلام فى المعانى، كتصريفه فى الدلالات المختلفة، كتصريف «الملك» فى معانى الصفات، فصرّف فى معنى «مالك»، و «ملك»، و «ذى الملكوت»، و «المليك». و فى معنى: «التمليك» و «التملك»، و «الإملاك». و تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة. كما كرر من قصة موسى فى مواضع. و أما التضمين فهو حصول معنى فيه، من غير ذكره له باسم أو صفة هى عبارة عنه. و ذلك على وجهين: تضمين توجيه البنية. كقولنا: معلوم يوجب أنه لا بد من عالم. و تضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به؛ كالصفة بضارب يدل على مضروب. و التضمين كله إنجاز. و التضمين الذى تدل عليه دلالات القياس أيضا إنجاز و ذكر أن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ من باب التضمين لأنه تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم للّه تبارك و تعالى، أو التبرك باسمه. و أما «المبالغة» فهى الدلالة على كثرة المعنى، و ذلك على وجوه منها مبالغة فى الصفة المبينة. لذلك كقولك: «رحمن» عدل عن ذلك للمبالغة، و كقوله: لَغَفَّارٌ و كذلك فعّال و فعول كقولهم «شكور و غفور» و فعيل كقوله: الرَّحِيمِ و قَدِيرٌ و من ذلك أن يبالغ باللفظة التى هى صفة عامة كقوله: خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ «۳» و كقوله: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ «۴» و كقوله: وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِياطِ «۵» و كقوله: إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ «۶» و قد يدخل فيه الحذف الذى تقدم ذكره للمبالغة، و أما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام: كلام، و حال، و إشارة، و علامة. و يقع التفاضل فى البيان، و لذلك قال عز من قائل: الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ

(_____ ۱) آية (۱۲۷) سورة التوبة. (۲) آية (۳۷) سورة النور. (۳) آية (۶۲) سورة الزمر. (۴) آية (۲۶) سورة النحل. (۵) آية (۴۰) سورة الأعراف. (۶) آية (۲۴) سورة سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۲ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ «۱» و قيل: «أعيا من باقل» سئل عن ظبية فى يده، بكم اشتراها فأراد أن يقول: بأحد عشر، فأشار بيديه مادا أصابعه العشر، ثم أدلع لسانه و أفلت الظبى من يده. ثم البيان على مراتب: قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التى ذكرنا أنها تسمى البديع فى أول الكتاب مما مضت أمثلته فى الشعر. و من الناس من زعم: أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التى عددناها فى الفضل. و اعلم أن الذى بيناه قبل هذا، و ذهبنا إليه هو سديد. و هو أن هذه الأمور تنقسم. فمنها ما يمكن الوقوع عليه و التعمل له، و يدرك بالتعلم. فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به. و أما ما لا سبيل إليه بالتعلم و التعمل من البلاغات، فذلك هو الذى يدل على إعجازه، و نحن نضرب لذلك أمثلة لتقف على ما ذهبنا إليه. و ذكرنا فى هذا الفصل عن هذا القائل: إن التشبيه تعرف به البلاغة. و ذلك مسلّم، و لكن إن قلنا ما وقع من التشبيه فى القرآن معجز، عرض علينا من التشبيهات الجارية فى الأشعار ما لا يخفى عليك. و أنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر، و قد تتبع فى هذا ما لم يتتبع غيره، و اتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء. و كذلك كثير من وجوه البلاغة قد بيّنا أن تعلمها يمكن، و ليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره. فإن كان إنما يعنى هذا القائل أنه إذا أتى فى كل معنى يتفق فى كلامه بالطبقة العالية. ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض، و ينتهى منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة، و أبدع البراعة. فهذا مما لا نأباه بل نقول به. و إنما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام، و يفضى إليه. مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، و إن التشبيه معجز، و إن التجنيس معجز، و المطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التى فيها ذكر للتشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها و نظمها و تأليفها، فإنى لا أدفع ذلك و أصححه، و لكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه. و صاحب «المقالة» التى حكيناها، أضاف ذلك إلى موضع التشبيه، و ما قرن به من الوجوه. و من تلك الوجوه ما قد بيّنا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان. و ذلك لا يختص بجنس

(_____ ۱) آية (۱: ۴) سورة الرحمن. إعجاز

القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۳ من المبیّن دون جنس. و لذلک قال: هذا بَیانٌ لِلنَّاسِ «۱» و قال: تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ «۲» و قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ «۳» فکرر فی مواضع ذکره أنه مبین. فالقرآن أعلی منازل البیان، و أعلی مراتبه ما جمع وجوه الحسن و أسبابه و طرقه و أبوابه، من تعدیل النظم و سلامته، و حسنه و بهجته، و حسن موقعه فی السمع، و سهولته علی اللسان، و وقوعه فی النفس موقع القبول، و تصوره تصور المشاهد، و تشکله علی جهته حتی یحل محل البرهان و دلالة التألیف، مما لا ینحصر حسنا و بهجة و سناء و رفعة. و إذا علا الکلام فی نفسه کان له من الوقع فی القلوب و التمکن فی النفوس، ما یذهل و یبهج، و یقلق و یؤنس، و یطمع و یؤیس، و یضحک و یبکی، و یحزن و یفرح، و یسکن و یزعج، و یشجی و یطرب، و یهز الأعطاف، و یستمیل نحوه الأسماع، و یورث الأریحیّة و العزّة. و قد یبعث علی بذل المهج و الأموال شجاعة وجودا، و یرمی السامع من وراء رأیه مرمی بعیدا. و له مسالک فی النفوس لطیفة، و مداخل إلی القلوب دقیقة. و بحسب ما یترتب فی نظمه، و یتنزل فی موقعه، و یجری علی سمت مطلعه و مقطعه یکون عجیب تأثیراته، و بدیع مقتضیاته. و کذلک علی حسب مصادره، یتصور وجوه موارده. و قد ینبئ الکلام عن محل صاحبه، و یدل علی مکان متکلمه، و ینبه علی عظیم شأن أهله، و علی علو محله. أ لا ترى أن الشعر فی الغزل، إذا صدر عن محب کان أرق و أحسن، و إذا صدر عن متغزل و حصل من متصنع نادی علی نفسه بالمداجاة، و أخبر عن خبیئه فی المراءاة. و کذلک قد یصدر الشعر فی وصف الحرب عن الشجاع، فیعلم وجه صدوره، و یدل علی کنهه و حقیقته. و قد یصدر عن المتشبه، و یخرج عن المتصنع، فیعرف من حاله ما ظن أنه یخفیه، و یظهر من أمره خلاف ما یبدیه، و أنت تعرف قول المتنبی «۴»: فالخیل و اللیل و البیداء تعرفنی و الحرب و الطّعن و القرطاس و القلم (_____ ۱) آیة (۱۳۸) سورة آل عمران. (۲) آیة (۸۹) سورة النحل. (۳) آیة (۱۹۵) سورة الشعراء. (۴) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۴ من الواقع فی القلب لما یعلم أنه من أهل الشجاعة ما لا تجده للبحتری «۱» فی قوله: و أنا الشجاع و قد بدا لک موقفی بعقرقس و المشرفیة مشهدی و تجد لابن المعتز «۲» فی موقع شعره من القلب فی الفخر و غیره ما لا تجده لغیره لأنه إذا قال: إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا و سارت ورائی هاشم و نزار و عمّ سماء النّقع حتی کأنه دخان و أطراف الرماح شرار و قال: قد تردّیت بالمکارم دهرا و کفتنی نفسی من الافتخار أنا جیش إذا غزوت وحیدا و وحید فی الجحفل الجرّار و قال: أیها السائلی عن الحسب الأط یب ما فوقه لخلق مزید نحن آل الرسول و العترة الح ق و أهل القربی فما ذا ترید ..؟ و لنا ما أضاء صبح علیه و أتته رایات لیل سود و کما أنشدنی الحسن بن عبد اللّه قال: أنشدنا محمد بن یحیی لابن المعتز قصیدته التی یقول فیها: أنا ابن الذی سادهم فی الحیا ة و سادهم بی تحت الثّری و ما لی فی أحد مرغب بلی فیّ یرغب کلّ الوری و اسهر للمجد و المکرمات إذا اکتحلت أعین بالکری فانظر فی القصیدة کلّها، ثم فی جمیع شعره، تعلم أنه ملک الشعر، و أنه یلیق به من الفخر خاصة. ثم مما یتبعه مما یتعاطاه مما لا یلیق بغیره. بل ینفر عن سواه. و لم أحب أن أکثر علیک فأطول الکتاب بما یخرج عن غرضه. و کما ترى من قول أبی فراس الحمدانی فی نفسک إذا قال: و لا أصبح الحیّ الخلوف بغارة و لا الجیش ما لم یأته قبلی النّذر و یا رب دار لم تخفنی منیعة طلعت علیها بالردیء أنا و الفجر و ساحبة الأذیال نحوی لقیتها فلم یلقها جافی اللقاء و لا وعر وهبت لها ما حازه الجیش کله و أبت و لم یکشف لأبیاتها ستر (_____ ۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۵ و ما راح یطغینی بأثوابه الغنی و لا بات یثنینی عن الکرم الفقر و ما حاجتی فی المال أبغی وفوره إذا لم أفر وفری فلا وفر الوفر و الشیء إذا صدر من أهله، و بدا من أصله، و انتسب إلی ذویه سلم فی نفسه، و بانت فخامته، و شواهد أثر الاستحقاق فیه. و إذا صدر من مکلف و بدا من متصنع بان أثر الغرابة علیه، و ظهرت مخایل الاستنحاس فیه، و عرف شمائل التخیر منه. إنا نعرف فی شعر أبی نواس أثر الشطارة، و تمکن البطالة، و موقع کلامه فی وصف ما هو بسبیله من أمر العبارة، و وصف الخمر و الخمار. کما نعرف موقع کلام ذی الرّمّة فی وصف المهامة و البوادی، و الجمال و الاتساع و الأزمّة. و عیب أبی نواس التصرف فی وصف الطلول و الرّباع و الوحش. ففکر فی قوله: ودع الأطلال تسقیها الجنوب و تبلی عهد جدّتها الخطوب و خلّ لراکب

الوجناء أرضا تخبّ به النّجيبة و النجيب بلاد نبتها عشر و طلح و أكثر صيدها ضبع و ذيب و لا تأخذ عن الأعراف لهوا و لا عيشا، فعيشهم جديب دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش عندهم غريب إذا راب الحليب قبل عليه و لا تحرج فما فى ذاك حوب فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق أديب كأنّ هديرها فى الدّنّ يحكى قراءة القس قابله الصّليب أعاذل أقصرى عن طول لومى فراجى توبتى عندى يخيب تعيبين الذنوب و أى حرّ من الفتيان ليس له ذنوب؟! و قوله: صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم و سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد يقول: سمعت براكويه الزنجانى يقول: أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى «۱»: ودّع هريرة إن الركب مرتحل و هل تطيق وداعا أيها الرجل ..؟

(_____ ۱) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۶ و كان وصف فيها الطلل، قال براكويه: فقال لى هلال: فقلت بديها: إذا سمعت فتى يبكى على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل و إنما ذكرت لك هذه الأمور، لتعلم أن الشىء فى معدنه أعز، و فى مظانه أحسن، و إلى أصله أنزع، و بأسبابه أليق. و هو يدل على ما صدر منه، و ينبه ما أنتج عنه، و يكون قراره على موجب صورته و أنواره على حسب محله. و لكل شىء حد و مذهب. و لكل كلام سبيل و منهج. و قد ذكر أبو بكر «۱» الصديق رضى اللّه عنه فى كلام مسيلمة ما أخبرتك به، فقال: (إن هذا كلام لم يخرج من إله) فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية و رفعة الإلهية يتميز عما لم يكن كذلك. ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان. و لو لم يكن فيه إلا ما منّ به اللّه على خلقه بقوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ «۲» فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان، و أهداه و أكمله .. و أعلاه و أبلغه و أسناه. تأمل قوله تعالى: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ «۳» فى شدة التنبيه على تركهم الحق، و الإعراض عنه. و موضع امتنانه بالذكر و التحذير. و قوله: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ «۴» و هذا بليغ فى التحسير و قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۵» و هذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معوّدين لمخالفة النهى و الأمر، و قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «۶» هو فى نهاية الوضع من الخلة الأعلى التقوى. و قوله: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «۷» و هذا نهاية فى التحذير من التفريط. و قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما

(_____ ۱) سبقت ترجمته. (۲) آية (۳، ۴) سورة الرحمن. (۳) آية (۵) سورة الزخرف. (۴) آية (۳۹) سورة الزخرف. (۵) آية (۲۸) سورة الأنعام. (۶) آية (۶۷) سورة الزخرف. (۷) آية (۵۶) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۷ تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «۱» هو النهاية فى الوعيد و التهديد. و قوله: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ «۲» نهاية فى الوعيد. و قوله: وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ «۳» نهاية فى الترغيب. و قوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ «۴» و كذلك قوله: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «۵» نهاية فى الحجاج، و قوله: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ «۶» نهاية فى الدلالة على علمه بالخفيات. و لا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع فى الرفعة و كبر المنزلة على سواء. و قد ذكرنا من قبل: أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، و هو معجز من القرآن. و ما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة فى اللفظ. فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره، و ليس ذلك بمعجز. بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى و الصفة، وجوه من اللفظ يثمر الإعجاز. و «تضمين المعانى» أيضا، قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة فى أعلى درجاتها. و أما «الفواصل» فقد بيّنا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز، و كذلك قد بيّنا فى المقاطع و المطالع نحو هذا. و بيّنا فى تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الإعجاز به. و التصرّف فى «الاستعارة» البديعة يصح أن يتعلق به الإعجاز، كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام، لأن البلاغة فى كل واحد من البابين تجرى مجرى واحدا، و تأخذ مأخذا مفردا. و أما «الإيجاز و البسط» فيصح أن يتعلق بهما الإعجاز كما يتعلق بالحقائق.

و «الاستعارة» و «البیان» فی کل واحد منهما ما لا یضبط حدّه، و لا یقدّر قدره، و لا یمکن

(_____ ۱) آیة (۴۰) سورة فصلت. (۲) آیة (۴۴، ۴۵) سورة الشوری. (۳) آیة (۷۱) سورة الزخرف. (۴) آیة (۹۱) سورة المؤمنون. (۵) آیة (۲۱) سورة الأنبیاء. (۶) آیة (۱۳، ۱۴) سورة الملک. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۸ التوصل إلی ساحل بحره بالتعلم، و لا یتطرّق إلی غوره بالتسبّب. و کلّ ما یمکن تعلمه، و یتهیأ تلقنه، و یمکن تخلیصه، و یستدرک أخذه فلا یجب أن یطلب وقوع الإعجاز به. و لذلک قلنا: «السجع» مما لیس یلتمس فیه الإعجاز؛ لأن ذلک أمر محدود و سبیل مورود. و متی تدرب الإنسان به و اعتاده لم یستصعب علیه أن یجعل جمیع کلامه منه. و کذلک «التجنیس» و «التطبیق» متی أخذ أحدهما و طلب وجههما استوفی ما شاء، و لم یتعذر علیه أن یملأ خطابه منه، کما أولع بذلک أبو تمام و البحتری. و إن کان البحتری أشغف بالمطابق، و أقل طلبا للمجانس. فإن قال قائل: هلا قلت: إن هذین البابین یقع فیهما مرتبة عالیة، لا یوصل إلیها بالتعلّم، و لا تملک بالتعمّل؛ کما ذکرتم فی البیان و غیر ذلک؟ قلنا: لو عمد إلی کتاب «الأجناس»، و نظر فی کتاب «العین»، لم یتعذر علیه التجنیس الکثیر. فأما «الإطباق» فهو أقرب منه، و لیس کذلک البیان. و الوجوه التی رأینا الإعجاز فیها؛ لأنها لا تستوفی بالتعلم. فإن قیل: فالبیان قد یتعلم؟ قیل: إن الذی یمکن أن یتوصل إلیه بالتعلم یتفاوت فیه الناس، و تتناهی فیه العادات. و هو کما یعلم من مقادیر القوی فی حمل الثقیل. و أن الناس یتقاربون فی ذلک فیرمون فیه إلی حد، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده و لم یمکنهم التخطی، و لم یقدروا علی التعدی إلا أن یحصل ما یخرق العادة و ینقض العرف. و لن یکون ذلک إلا للدلالة علی النبوات علی شروط فی ذلک. و القدر الذی یفوت الحد فی البیان، و یتجاوز الوهم، و یشذ عن الصنعة، و یقذفه الطبع فی النادر القلیل، کالبیت البدیع، و القطعة الشریفة التی تتفق فی دیوان شاعر، و الفقرة تتفق فی رسالة کاتب. حتی یکون الشاعر ابن بیت أو بیتین أو قطعة أو قطعتین، و الأدیب شهید کلمة أو کلمتین. و ذلک أمر قلیل. و لو کان کلامه کله یطرد علی ذلک المسلک، و یستمر علی ذلک المنهج، أمکن أن یدّعی فیه الإعجاز. و لکنک إن کنت من أهل الصنعة تعلم قلة الأبیات الشوارد، و الکلمات الفرائد، و أمهات القلائد. فإن أردت أن تجد قصیدة کلها وحشیة، و أردت أن تراها مثل بیت من أبیاتها مرضیة، لم تجد ذلک فی الدواوین، و لم تظفر بذلک إلی یوم الدین. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۹ و نحن لم ننکر أن یستدرک البشر کلمة شریفة، و لفظة بدیعة، و إنما أنکرنا أن یقدروا علی مثل نظم سورة أو نحوها. و أحلنا أن یتمکنوا من حد فی البلاغة و مقدار فی الخطابة. و هذا کما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق فی القرآن و إن لم یکن له حکم الشعر. فأما قدر المعجز فقد بیّنا أنها السورة طالت أو قصرت. و بعد ذلک خلاف من الناس، من قال مقدار کل سورة أو أطول آیة فهو معجز. و عندنا کل واحد من الأمرین معجز، و الدلالة علیه ما تقدم، و البلاغة لا تتبین بأقل من ذلک. فلذلک لم نحکم بإعجازه، و ما صح أن تتبین فیه البلاغة، و محصولها الإبانة فی الإبلاغ عن ذات النفس علی أحسن معنی، و أجزل لفظ، و بلوغ الغایة فی المقصود بالکلام. فإذا بلغ الکلام غایته فی هذا المعنی، کان بالغا و بلیغا. فإذا تجاوز حد البلاغة إلی حیث لا یقدر علیه أهل الصناعة، و انتهی إلی أمر یعجز عنه الکامل فی البراعة، صح أن یکون له حکم المعجزات، و جاز أن یقع موقع الدلالات. و قد ذکرنا أنه بجنسه و أسلوبه مباین لسائر کلامهم. ثم بما یتضمن من تجاوزه فی البلاغة الحد الذی یقدر علیه البشر. فإن قیل: فإذا کان یجوز عندکم أن یتفق فی شعر الشاعر قطعة عجیبة شاردة، تباین جمیع دیوانه فی البلاغة، و یقع فی دیوانه بیت واحد یخالف مألوف طبعه، و لا یکون سبب ذلک البیت، و لا تلک القطعة فی التفصیل، و لو أراد أن یأتی بمثل ذلک و یجعل جمیع کلامه من ذلک النمط، لم یجد إلی ذلک سبیلا. و له سبب فی الجملة و هو التقدم فی الصنعة، لأنه یتفق من المتأخر فیها. فهلّا قلتم: إنه إذا بلغ فی العلم بالصناعة مبالغة القصوی، کان جمیع کلامه من نمط ذلک البیت و سمت تلک القطعة؟ و هلا قلتم: إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب: إنا لم نجد أحدا بلغ الحد الذی وصفتم فی العادة، و هؤلاء الناس أهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، و خطبهم منقولة، و رسائلهم مأثورة، و بلاغاتهم مرویة، و حکمهم مشهورة. و کذلک أهل الکهانة و البلاغة مثل قسّ بن ساعدة، و سحبان وائل، و مثل: شقّ و سطیح و غیرهم. کلامهم معروف عندنا، و موضوع بین أیدینا، لا یخفی علینا فی

الجملة بلاغة بليغ، و لا خطابة خطيب، و لا براعة شاعر مفلق، و لا كتابة كاتب مدقق. فلما لم نجد فی شیء من ذلک ما يدانی القرآن فی البلاغة، أو يشاكله فی الإعجاز مع ما وقع من التحدی إليه المدة الطويلة. و تقدّم من التقريع و المجازاة الأمد المديد، و ثبت له وحده خاصة قصب السبق، و الاستيلاء علی الأمر، و عجز الكل عنه، و وقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم و إن جهل قوم سببه، و يعلمون نقصهم و إن أغفل قوم وجهه. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۰ رأينا أنه ناقض للعادة، و رأينا أنه خارق للمعروف فی الجبلّة. و خرق العادة إنما تقع بالمعجزات علی وجه إقامة البرهان علی النبوات، و علی أن من ظهرت عليه، و وقعت موقع الهداية إليه. صادق فيما يدعيه من نبوته، و محق فی قوله، و مصيب فی هديه، قد سادت له الحجة البالغة، و الكلمة التامة، و البرهان النير، و الدليل البين. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۱

فصل: فی حقيقة المعجز

فصل: فی حقيقة المعجز معنی قولنا: «إن القرآن معجز» علی أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه. و قد ثبت أن المعجز الدال علی صدق النبی صلّی اللّه عليه و سلّم، لا يصح دخوله تحت قدرة العباد. و إنما ينفرد اللّه تعالی بالقدرة عليه، و لا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام. فنحن لا نقدر علی ذلک و إن لم يصح وصفنا بأنا عاجزون عن ذلک حقيقة. و كذلک معجزات سائر الأنبياء علی هذا. فلما لم يقدر عليه أحد، شبه بما يعجز عنه العاجز. و إنما لا يقدر العباد علی الإتيان بمثله؛ لأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز. و قد أجری اللّه العادة بأن يتعذر فعل ذلک منهم، و أن لا يقدروا عليه. و لو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم و بلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلک، علم أنهم فطنوا إلی خروج ذلک عن أوزان كلامهم، و أساليب نظامهم، و زالت أطماعهم عنه. و قد كنا بيّنا أن التواضع ليس يجب أن يقع علی قول الشعر، و وجوه النظم المستحسنة فی الأوزان المطربة للسمع. و لا يحتاج فی مثله إلی توقيف، و أنه يتبين أن مثل ذلک يجری فی الخطاب، فلما جری فيه فطنوا له و اختاروه و طلبوا أنواع الأوزان و القوافی. ثم وقفوا علی حسن ذلک، و قدروا عليه بتوفيق اللّه عز و جل. و هو الذی جمع خواطرهم عليه، و هداهم له، و هيّأ دواعيهم إليه. و لكنه أقدرهم علی حد محدود، و غاية فی العرف مضروبة، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا. و دل علی عظم شأنه، بأنهم قدروا علی ما بيّنا من التأليف، و علی ما وصفناه من النظم من غير توقيف و لا اقتضاء أثر، و لا تحدّ إليه، و لا تقريع. فلو كان هذا من ذلک القبيل، أو من الجنس الذی عرفوه و ألفوه، لم تزل أطماعهم عنه. و لم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف و قد أمهلهم و فسح لهم الوقت، و كان يدعو إليه سنين كثيرة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۲ و قال عز من قائل: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ «۱» و بظهور العجز عنه بعد طول التقريع و التحدی، بان أنّه خارج عن عادتهم، و أنهم لا يقدرون عليه. و قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ، لأن ذلک طبعهم و لغتهم، فلم يحتاجوا إلی تجربة عند سماع القرآن. و هذا فی البلغاء منهم دون المتأخرين فی الصنعة. و الذی ذكرناه بذلک علی أنه لا كلام أزيد فی قدر البلاغة من القرآن. و كل من جوز أن يكون للبشر قدرة علی أن يأتوا بمثله فی البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال. و لو لم يكن جری فی المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا، لكان يجوز أن تجری عادات البشر بقدر زائد علی ما ألفوه من البلاغة، و أمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة. و أما «نظم القرآن» فقد قال أصحابنا فيه: إن اللّه تعالی يقدر علی نظم القرآن فی الرتبة التی لا مزيد عليها، فقد قال مخالفونا: إن هذا غير ممتنع لأن فيه من الكلمات الشريفة الجامعة للمعانی البديعة، و انضاف إلی ذلک حسن الموقع، فيجب أن يكون قد بلغ النهاية لأنه عندهم، و إن زاد علی ما فی العادة، فإن الزائد عليها و إن تفاوت، فلا بد من أن ينتهی إلی حد لا مزيد عليه. و الذی نقوله إنه لا يمتنع أن يقال: يقدر اللّه تعالی علی أن يأتی بنظم أبلغ و أبدع من القرآن كله. و أما قدرة العباد فهی متناهية فی كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه.

(_____ ۱) آية (۴۵) سورة فاطر. إعجاز

القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۳

فصل: فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز

فصل: فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز إن قال قائل: إذا کان النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أفصح العرب، و قد قال هذا فی حدیث مشهور، و هو صادق فی قوله، فهلا قلتم: إن القرآن من نظمه لقدرته فی الفصاحة علی مقدار لا یبلغه غیره؟ قیل: قد علمنا أنه لم یتحداهم إلی مثل قوله و فصاحته، و القدر الذی بینه و بین کلام غیره من الفصحاء، کقدر ما بین شعر الشاعرین، و کلام الخطیبین فی الفصاحة؛ و ذلک مما لا یقع به الإعجاز. و قد بینا قبل هذا: أنا إذا وازنّا بین خطبه، و رسائله، و کلامه المنثور، و بین نظم القرآن، تبین من البون بینهما، مثل ما بین کلام اللّه عز و جل، و کلام الناس. و لا معنی لقول من ادعی أن کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجز، و إن کان دون القرآن فی الإعجاز. فإن قیل: لو لا أن کلامه معجز لم یشتبه علی ابن مسعود الفصل بین المعوذتین و بین غیرهما من القرآن. و کذلک لم یشتبه دعاء القنوت فی أنه هل هو من القرآن أم لا؟ و لا یجوز أن یخفی علیهم القرآن من غیره، و عدد السور عندهم محفوظ مضبوط. و قد یجوز أن یکون شذّ عن مصحفه، لا لأنه نفاه من القرآن، بل عوّل علی حفظ الکل إیاه. علی أن الذی یروونه خبر واحد لا یسکن إلیه فی مثل هذا، و لا یعمل علیه. و یجوز أن یکتب علی ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ینساه کما یکتب الواحد منا بعض الأدعیة علی ظهر مصحفه. و هذا نحو ما یذکره الجهال من اختلاف کثیر بین مصحف ابن مسعود و بین مصحف عثمان رضوان اللّه علیهما. و نحن لا ننکر أن یغلط فی حروف معدودة، کما یغلط الحافظ فی حروف، و ینسی، ما لا نجیزه علی الحفاظ مما لم نجزه علیه. و لو کان قد أنکر السورتین علی ما ادعوا لکانت الصحابة تناظره علی ذلک. و کان یظهر و ینتشر. فقد تناظروا فی أقل من هذا، و هذا أمر یوجب التکفیر و التضلیل. فکیف إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۴ یجوز أن یقع التخفیف فیه؟! و قد علمنا إجماعهم علی ما جمعوه فی المصحف، فکیف یقدح بمثل هذه الحکایات الشاذة المولّدة بالإجماع المتقرر، و الاتفاق المعروف؟ و یجوز أن یکون الناقل اشتبه علیه، لأنه خالف فی النظم و الترتیب، فلم یثبتهما فی آخر القرآن. و الاختلاف بینهم فی موضع الاثبات غیر الکلام فی الأصل. أ لا تری أنهم قد اختلفوا فی أول ما نزل من القرآن. فمنهم من قال قوله: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ «۱»، و منهم من قال: یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ «۲» و منهم من قال: فاتحة الکتاب. و اختلفوا أیضا فی آخر ما أنزل فقال ابن عباس «۳»: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ «۴» و قالت عائشة: سورة المائدة. و قال البراء «۵» بن عازب آخر ما نزل سورة براءة، و قال سعید «۶» بن جبیر آخر ما أنزل قوله تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللَّهِ «۷» و قال السّدّی آخر ما أنزل: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِیَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ «۸» و یجوز أن یکون فی مثل هذا خلاف، و أن یکون کل واحد ذکر آخر ما سمع. و لو کان القرآن من کلامه، لکان البون بین کلامه و بینه، مثل ما بین خطبة و خطبة ینشئها رجل واحد، و کانوا یعارضونه لأنا قد علمنا أن القدر الذی بین کلامهم، و بین کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لا یخرج إلی حد الإعجاز، و لا یتفاوت التفاوت الکثیر. و لا یخفی کلام من جنس أوزان کلامهم. و لیس کذلک نظم القرآن. لأنه خارج من جمیع ذلک. فإن قیل: لو کان غیر ما ادعیتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غیره، قبل معرفة الفصل من وزن الشعر و وزنه، و الفرق بینه و بین غیره من الأوزان إلی نظر و تأمل، و فکر و رویة

(_____ ۱) آیة (۱) سورة العلق. (۲) آیة (۱) سورة المدثر. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آیة (۱) سورة النصر. (۵) البراء بن عازب أبو عمارة الأنصاری الأوسی الحارثی، استصغر یوم بدر فلم یشهدها، و شهد أحدا و ما بعدها، و شهد بیعة الرضوان. مات بعد سنة (۷۰). له ترجمة فی: الریاض المستطابة ص (۳۷). (۶) سعید بن جبیر بن هشام الأسدی. کان ابن عباس إذا أتاه أهل الکوفة یستفتونه، یقول: أ لیس فیکم ابن أم الدهماء؟ یعنیه. قتله الحجاج سنة (۹۲). له ترجمة فی: شذرات الذهب ۱/ ۱۰۸، و وفیات الأعیان ۱/ ۲۰۴، و تذکرة الحفاظ ۱/ ۷۶. (۷) آیة (۲۸۱) سورة البقرة. (۸) آیة (۱۲۹) سورة التوبة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۵ و اکتساب .. و إن کان النظم المختلف الشدید التباین إذا وجد أدرک

اختلافه بالحاسة، إلا أن كل وزن و قبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكرة و التأمل. فإن قيل: لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة فى وجه إعجازه؟ قيل: قد يثبت الشيء دليلا و إن اختلفوا فى وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة و السكون، و الاجتماع و الافتراق. فأما المخالفون، فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام اللّه؛ لأن مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل اللّه عز و جل فى كونه معجزا؛ لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله، أمكنه أن يأتى بما له هذه الرتبة. و كان متعذرا على غيره لفقد علمه بكيفية النظم. و ليس القوم بعاجزين عن الكلام، و لا عن النظم و التأليف. و المعنى المؤثر عندهم فى تعذر مثل نظم القرآن علينا: فقد العلم بكيفية النظم. و قد بيّنا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه. و المفحم قد يعلم كيفية الأوزان و اختلافها، و كيفية التركيب. و هو لا يقدر على نظم الشعر. و قد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة. و إذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما فى الطبقة العالية و شعر الآخر فى الطبقة الوضيعة. و قد يطّرد فى شعر المبتدى و المتأخر فى الحذق القطعة الشريفة و البيت النادر، و مما لا يتفق للشاعر المتقدم. و العلم بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى، و يحتاج معه إلى مادة من الطبع، و توفيق من الأصل. و قد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة و النّساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف فى الصنعة، ما لا يتفق فى الآخر. و كذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم. و كذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة. و إذا وجدت للشاعر بيتا أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لم يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه. لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد. و يحسب ذلك البيت فى الشرف و الحسن و البراعة، و لا يجوز أن يعلم نظم قطعة و يجهل نظم مثلها. و إن كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى ما قدروه من العلم. أو لسنا نقول إنه يستغنى عن العلم فى النظم، بل يكفى علم به فى الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۶ و هذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرا، فلو أراد أن يأتى بمثله بحيث لا يغادر منه شيئا لتعذّر. و العلم حاصل. و كذلك قد يحسن كيفية الخط، و الجيد منه من الردىء. و لا يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد. و قد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، و كيفية تصور الخطّ. ثم يتفاوتون فى التفصيل، و يختلفون فى التصوير. و ألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام، و إنما يتعذر وقوع ذلك منا لأنا لا نعلم الأسباب التى إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام. و قد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه. و من قبله لم يكن معجزا. و هذا قول أبى هاشم، و هو الظاهر الخطأ، لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، و إن لم يتعذر عليهم فعل مثله. و إنما تعذر بإنزاله، و لو كانوا قادرين على مثل ذلك، كان قد اتفق مع بعضهم مثله. و إن كانوا فى الحقيقة غير قادرين قبل نزوله و لا بعده على مثله فهو قولنا. و أما قول كثير من المخالفين فهو على ما بيّنا، لأن معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله. و كان ذلك متعذرا قبل نزوله و بعده. فأما الكلام فى أن التأليف، هل له نهاية؟ فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه. فمنهم من قال: ليس لذلك نهاية، كالعدد، فلا يمكن أن يقال: إنه لا يتأتى قول قصيدة إلا و قد قيلت من قبل. و منهم من قال: إن ما جرت به العادة فله نهاية، و ما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه. و قد بيّنا أن على أصولنا قد تقرر لكلامنا حد فى العادة، و لا سبيل إلى تجاوزه، و لا يقدر. فإن القرآن خرق العادة فزاد عليها. فصل: إن قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟ قيل: لا بد من ذلك. لأنا لو نعلم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هو الذى أتى بالقرآن و ظهر ذلك من جهته، لم يمكن أن يستدل به على نبوته. و على هذا، لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلدا و ادعى ظهورها عليه، و أنها معجزة له، لم تقم الحجة عليهم، حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه. و قد تحققنا أن القرآن أتى به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ظهر من جهته، و جعله علما على نبوته، و علمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸۷

خاتمة

خاتمة قد ذكرنا فى الإبانة عن معجز القرآن وجيزا من القول، رجونا أن يكفى، و أمّلنا أن يقنع. و الكلام فى أوصافه إن استقصى بعيد

الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه، و شريف مكانه. و الذى سطرناه فى الكتاب، و إن كان موجزا، و أمليناه فيه، و إن كان خفيفا، فإنه ينبه على الطريقة، و يدل على الوجه، و يهدى إلى الحجة. و متى عظم محل لشىء فقد يكون الإسهاب فيه عيّا، و الإكثار فى وصفه تقصيرا. و قد قال الحكيم، و قد سئل عن البليغ، متى يكون عيبا؟ فقال: متى وصف هوى أو حبيبا. و ضلّ أعرابى فى سفر له ليلا و طلع القمر فاهتدى به، فقال: ما أقول لك؟ أقول: رفعك اللّه؟ و قد رفعك، أم أقول: نورك اللّه؟ و قد نورك، أم أقول: أجملك اللّه؟ و قد جملك! و لو لا أن العقول تختلف، و الأفهام تتباين، و المعارف تتفاضل، لم نحتج إلى ما تكلفنا. و لكن الناس يتفاوتون فى المعرفة، و لو اتفقوا فيها، لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن، أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم لاتصاله بأسباب، و تعلقه بعلوم غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب، و بحسب تأتّى مواقعه، يقع الإفهام دونه. و على قدر لطف مسالكه، يكون القصور عنه. أنشدنى أبو القاسم الزعفرانى قال: أنشدنى المتنبى لنفسه، القطعة التى يقول فيها: و كم من عائب قولا صحيحا و آفته من الفهم السقيم و لكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح و العلوم و أنشدنى الحسن بن عبد اللّه قال: أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى: أهزّ بالشعر أقواما ذوى سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا علىّ نحت القوافى من مقاطعها و ما علىّ لهم أن تفهم البقر فإذا كان نقد الكلام كله صعبا، و تمييزه شديدا، و الوقوع على اختلاف فنونه متعذرا، و هذا فى كلام الآدمى. فما ظنك بكلام رب العالمين؟ إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۸ قد أبنّا لك أن من قدّر أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، و لا يفطن منها إلا اليسير. و من زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم فى الشعر، فهو متطرّف. بلى إن كانوا يقولون إن هذه من وجوه البلاغة و غرر البديع، و أصول اللطيف. و إن ما يجرى مجرى ذلك و يشاكله ملحق بالأصل و مردود على القاعدة. فهذا قريب. و قد بيّنا فى نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، و الأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف. ثم الفواتح و الخواتم، و المبادى و المثانى، و الطوالع و المقاطع، و الوسائط و الفواصل. ثم الكلام فى نظم السور و الآيات، ثم فى تفاصيل التفاصيل. ثم فى الكثير و القليل، ثم الكلام الموشح و المرصع، و المفصّل و المصرّع، و المجنس و الموشى، و المحلى و المكلل، و المطوق و المتوج، و الموزون و الخارج عن الوزن، و المعتدل فى النظم و المتشابه فيه. ثم الخروج من فصل إلى فصل، و وصل إلى وصل، و معنى إلى معنى، و معنى فى معنى، و الجمع بين المؤتلف و المختلف، و المتفق و المتسق، و كثرة التصرف، و سلامة القول فى ذلك كله من التعسف، و خروجه عن التعمق و التشدق، و بعده عن التعمل و التكلف. و الألفاظ المفردة و الإبداع فى الحروف و الأدوات، كالإبداع فى المعانى و الكلمات. و البسط و القبض، و البناء و النقض، و الاختصار و الشرح، و التشبيه و الوصف، و تميز الإبداع من الاتباع؛ كتميز المطبوع عن المصنوع. و القول الواقع عن غير تكلف، و لا تعمّل. و أنت تتبينه فى كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف، و مرقب منيف، يبهر إذا أخذ فى النوع الربى، و الأمر الشرعى، و الكلام الإلهى الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، و شرف الجبروت، و ما لا يبلغ الوهم مواقعه من حكمة و أحكام، و احتجاج و تقرير و استشهاد، و تقريع و إعذار و إنذار، و تبشير و تحذير و تنبيه، و تلويح و إشباع و تصريح، و إشارة و دلالة، و تعلم أخلاق زكية، و أسباب رضية، و سياسات جامعة، و مواعظ نافعة، و أوامر صادعة، و قصص مفيدة، و ثناء على اللّه عز و جل بما هو أهله، و أوصاف كما يستحقه، و تحميد كما يستوجبه، و أخبار عن كائنات فى التأنى صدقت، و أحاديث عن المؤتنف تحققت، و نواه زاجرة عن القبائح و الفواحش، و إباحة الطيبات و تحريم المضار و الخبائث، و حث على الجميل و الإحسان. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۹ تجد فيه الحكمة و فصل الخطاب، مجلوة عليك فى منظر بهيج، و نظم أنيق، و معرض رشيق، غير متعاص على الأسماع، و لا متلو على الأفهام، و لا مستكره فى اللفظ و لا متوحش فى المنظر غريب فى الجنس، غير غريب فى القبيل، ممتلئ ماء و نضارة و لطفا و غضارة، يسرى فى القلب كما يسرى السرور، يمر إلى مواقعه كما يمر السهم، و يضىء كما يضىء الفجر، و يزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المتناول المنتاب، كالروح فى البدن، و النور المستطير فى الأفق، و الغيث الشامل، و الضياء الباهر. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱». من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله. و صح جهله. إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، و

تداولته القلوب، و انثالت عليه الهواجس، و ضرب الشيطان فيه بسهمه، و أخذ منه بحظه. و ما دونه من كلامهم، فهو أدنى محلا، و أقرب مأخذا، و أسهل مطلبا. و لذلك قالوا: فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب. كما قالوا: فلان عيى، فأوردوه مورد النقص. و القرآن كتاب دل على صدق متحمله، و رسالة دلت على صحة قول المرسل بها، و برهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين. و بينة على طريقة من سلف من الأولين، حيرهم به إذا كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية. و بلغوا فيه الغاية. فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى نقصانهم. فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج، و الوصول إلى أعلى مراتب الطب. فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى، و إبراء الأكمه و الأبرص. و كما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم، و أتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم. و كما سخّر لسليمان من الرياح و الطير و الجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة، و بدائع من اللطف. ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول و الآخر وقوفا واحدا. و بقى حكمها إلى يوم القيامة. انظر وفقك اللّه لما هديناك إليه، و فكر فى الذى دللناك عليه، فالحق منهج واضح، و الدين ميزان راجح، و الجهل لا يزيد إلا غما، و لا يورث إلا ندما. قال اللّه عز و جل: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ «۲» و قال: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا «۳» و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ

(_____ ۱) آية (۴۲) فصلت. (۲) آية (۹) سورة الزمر. (۳) آية (۵۲) سورة الشورى. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۹۰ كَثِيراً «۱» على حسب ما آتى من الفضل، و أعطى من الكمال و العقل، تقع الهداية و التبيين. فإن الأمور تتم بأسبابها، و تحصل بآلتها، و من سلبه التوفيق و حرمه الإرشاد و التسديد فكأنما: خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ «۲» لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا فاحمد اللّه على ما رزقك من الفهم إن فهمت. و قل: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «۳» و قل: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ «۴» و إن ارتبت فيما بيناه فازدد فى تعلم الصنعة، و تقدم فى المعرفة الأرشد، و يقف بك على الوجه الأحمد. فإنك إذا فعلت ذلك أحطت علما، و تيقنت فهما. و لا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان من هو أعلم منك بالعربية، و أرجح منك فى الفصاحة أقوام و أقوام، و رجال و رجال، فكذبوا و ارتابوا لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز. و لكن اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهل و جاحد. و بين كافر نعمة و حاسد، و بين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات، و حائد عن النظر فى الدلالات، و ناقص فى باب البحث، و مختل الآلة فى وجه الفحص، و مستهين بأمر الأديان، و غاو تحت حبالة الشيطان، و مقذوف بخذلان الرحمن. و أسباب الخذلان و الجهالة كثيرة، و درجات الحرمان مختلفة. و هلا جعلت بإزاء الكفرة مثل: «لبيد «۵» بن ربيعة العامرى» فى حسن إسلامه، و «كعب «۶» بن زهير» فى صدق إيمانه، و «حسان «۷» بن ثابت» و غيرهم من الشعراء و الخطباء الذين أسلموا؟ على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر زاخر. و قد بينا أن لا اعتصام إلا بهداية اللّه، و لا توفيق إلا بنعمة اللّه، ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ «۸»، فتأمّل ما عرّفناك فى كتابنا، و فرغ له قلبك، و اجمع له لبك، ثم اعتصم باللّه يهدك، و توكل عليه يغنك و يجرك، و استرشده يرشدك، و هو حسبى و حسبك و نعم الوكيل.

(_____ ۱) آية (۲۶) سورة البقرة. (۲) آية (۳۱) سورة الحج. (۳) آية (۱۱۴) سورة طه. (۴) آية (۹۷) سورة المؤمنون. (۵) سبقت ترجمته. (۶) كعب بن زهير، كان من المخضرمين، و كان هجا الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أسلم و مدحه. مات سنة (۲۴ ه). له ترجمة فى: الأغانى ۱۵/ ۱۴۷. و الجمهرة (۱۴۸)، و الشعر و الشعراء (۵۸، ۶۷). (۷) سبقت ترجمته. (۸) آية (۴) سورة الجمعة.

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى

تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله" الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ– بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت– عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والدراسات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹